
رواية
الطبعة الأولى
مكتبة
ابك
نُطفَة
أدهم شرقاوي
"قس بن ساعدة"
KALEMAT

الإهداء

إلى أبي الذي قال لي يوماً :
لا تكنْ مثلي لأفخرَ بكَ
فتعمَّدتُ أن أكون مثله
لأفخرَ بي!

أمّا قبل

حبيبتي أسماء :
كيفَ حالكِ؟ واللونُ الأسودُ في عينيكِ كيف؟!
والكحلُ المفترسُ في جفنيكِ كيف؟!
والليلُ المُختبىءُ في شَعركِ كيف؟!

والقرنفلُ الحارقُ في شفتيكِ كيف؟!
والشّامةُ الصّغيرة عند شفتكِ السّفلى كيف؟!
وابتسامتكِ الحُلوة كيف؟!
وكُلّكِ كيف؟!

اشتقتُ إليكِ . . . وعندما أقولُ لكِ اشتقتُ إليكِ فلا أزفُّ إليكِ خبراً جديداً ، تعرفين أنّي أشتاقُ إليكِ إذا كنتُ معكِ فكيف وقد حالوا بيني وبينكِ؟! ولكنّي أردتُ أن أقول أنّ الشّوق إليكِ مخيفٌ أكثر من خطوات هذا السّجان الذي يجوبُ أروقة السّجن ذهاباً وإياباً في هذه السّاعة المتأخرة من الليل! وأنّي إذا ما قارنتُ وجع فقدكِ بوجع السّجن بدا السّجنُ نُزهة! وأنّ هذه الأغلال ليست إلا أساور مقارنة بأغلال فقدكِ ، سجوننا الحقيقية في داخلنا يا أسماء!

ولا أعرفُ لماذا أكتبُ إليكِ في هذه السّاعة ، وما جدوى الكلمات ما دامتْ عاجزةً عن جعل هذه الزّنزانة أوسع وجعلكِ أقرب؟!

لعلّي أردتُ أن أبكي قليلاً ولكنّي لم أشأ أن أُشمِتَ السّجان بي!

فآثرتُ أن أبكي كتابةً ، أن أنزَّ دموعي حبراً لأبقى أنا سجّانه ، فالسّجان الحقيقيّ ليس من يحملُ مفاتيح الزّنزانة ، وإنّما من يرفضُ أن يركع ، ونحن كما تعرفين لا نركع إلا حين نصلّي!

أو لربّما أردتُ شيئاً غير البكاء . . . كأن أكون استسلمتُ لشهوةِ الفكرةِ المجنونةِ التي تراودني منذ أيّام ، وهي أن أكتب حكايتنا . . . حكايتي وحكايتكِ ، ومعنا حكاية آلاف الرّجال المكلومين بالشّوق كشوقي إليكِ ، وآلاف النساء المكلوماتِ بالفقدِ كفقدكِ إيّاي! وآلاف الأيتام الذي سيكبرون ليكملوا عنّا! فليس غير اللغة يبقى إذا ما اندثرَ النّاسُ! ونحن علينا أن نبقى لتبقى القدس يا أسماء ، علينا أن نبقى كالشّوكة في حلوقهم كلما أكلوا من أشجارنا غصّوا بنا!

أمّا بعد

الكتابةُ هي جنوننا حين يأخذُ شكلاً لُغويّاً يا أسماء ، وصدّقيني حين أقولُ لكِ أنّ في كلّ كاتبٍ مسٌّ من نوع ما! ولكن دعكِ من هذا الآن ، لديَّ متّسعٌ من الوقتِ لأحدّثكِ عنه لاحقاً ، ففي السّجن يضيقُ كلّ شيءٍ إلا الوقت!

دعيني أرجعُ بكِ إلى أوّل الحكاية . . .

وعندما أقولُ أوّل الحكاية فلا أقصدُ حكايتنا نحن . . .

حكايتنا تعرفين أوّلها جيّداً ، بدأتْ حين رأيتكِ أوّل مرّةٍ فشطرتني عيناكِ نصفين ، فأكملتُ طريقي وكلّ نصفٍ بي يقسمُ لي أنّه يُحبّكِ أكثر من النّصف الآخر!

ولكنّي أريدُ أن أرجع بكِ أبعد من حكايتنا ، تحديداً حيث بدأ الحُبُّ أوّل مرّة!

تقولُ الأسطورة ـ ولطالما كنتِ شغوفةً بالأساطير يا أسماء ـ أنّه في البداية لم يكن هناك حُبٌّ ، وأنّ الإنسان اكتشفه مصادفةً كما اكتشف النّار فانقلبتْ حياتُه رأساً على عقب! كان البشرُ ذكوراً وإناثاً يعيشون في بقعةٍ ما من هذه الأرض بلا مشاعر ولا أحاسيس ، مجرّد غرائز تحكم هذا النّوع الذي أصبحَ بعد اكتشافِ الحُبّ نحن!

وكان الرّجالُ إذا هاجتْ غريزتُه أخذَ هراوته كما لو كان ذاهباً إلى الصّيد ، وضرب امرأة على رأسها فتسقطُ أرضاً ، ثمّ يجرّها إلى كهفه ليلتهمها كما يلتهمُ طريدته!

وكانت المرأةُ ترى هذا العنف ضرباً من الغزل ، فلو لم تكن فاتنة لما طالتها الهراوة دون غيرها من النّساء! متناسية أنّه لم يضربها من بين نساءٍ أُخريات كلّ ما في الأمر أنها كانتْ أوّل امرأة صادفته ، ولكن من حقّ أيّ إنسان أن يفرح بالأمورِ الجيّدة ولو وقعتْ صُدفة!

غير أنّ رجلَ الكهفِ كان ملولاً لا يمكثُ على امرأةٍ واحدة فكما كان يصطادُ طريدةً لكلّ نهار ، كان يصطادُ امرأةً لكلّ ليل!

وبقيت الحالُ على هذا المنوالِ إلى أن رأى رجلٌ في المنام امرأةً فاتنةً ، جاءتْ إليه بملءِ إرادتها ، ومشتْ معه إلى كهفه دون أن يضربها بهراوته على رأسها . وكانتْ تلك أوّل مرّةٍ يرى فيها امرأةً تدخلُ الكهفَ ماشيةً على قدميها لا مسحوبةً إليه من شعرها!

وعندما استيقظ أخذ هراوة ورثها عن رجلٍ أغلبُ الظّنِ أنّه أبوه!

وخرج يبحثُ عنها بينِ النّساء ليصطادها ، وكانتْ تلك أوّل مرّةٍ ترى النّساءُ رجلاً يطلبُ امرأةً بعينها ، فقد جرت العادة أن تكونَ الهراوة من نصيب أوّل امرأةٍ يعثرُ عليها الرّجل!

وعندما لم يجدها بين النّساء عاد إلى الكهفِ يجرُّ أذيال الخيبة . . .

وكانتْ تلك أوّل مرّة أيضاً يبيتُ فيها رجلٌ وحيداً!

في تلكَ الليلة أصابه الأرق . . .

وظلَّ حتى قُبيل الفجرِ يُفكّر بها ، وبين لحظةٍ وأخرى ينظرُ إلى باب الكهف علّه يراها تدخلُ عليه وتزيحُ عتمةَ الليل!

وعندما أنهكه السّهرُ والانتظار نام . . .

فرآها في منامه أيضاً جالسةً على ضفّة النّهر وقد غمستْ قدميها في الماء ، كانت فاتنة كما البارحة ، وحين ابتسمتْ له أُصيبَ بالدّهشة من الخفقان الذي استعرَ في صدره ، فهذه العضلة التي أسماها البشرُ فيما بعد قلباً لم تكن تضطربُ إلا في لحظة فرارٍ من حيوانٍ كاسر ، ولكن هذه المرّة حلّت اللذة مكان الخوف!

تقدّم إليها ببطءٍ وحذرٍ كطفلٍ يمشي خطواته الأولى . . .

وعندما صار على بعد خطوةٍ منها ، انتبه إلى حفلةِ الألوان فيها ، فقبلها كان يرى النّساء بالأبيضِ والأسود!

لونُ شفتيها الأحمر كان كلون الوردِ الذي رآه في المرجِ يوم كَمَنَ لغزالٍ يريدُ اصطياده

لونُ بشرتها كلون الثّلجِ الذي أفاق ذات يومٍ فوجده يكسو الأرضَ عند باب كهفه

واللونُ الأسودُ في عينيها لم يكن مخيفاً كعتمةِ الليل وإن بدا كأنّه قطعة منها!

كان يحملُ هراوته بيده ، ولكنّه شعر أنّ امرأةً كهذه حرام أن تُضربَ على رأسها . . .

فقال لها : تعالي معي إلى الكهف

فقالتْ له : ليسَ مُقدّراً لنا أن نلتقي!

- ولمَ جئتِ إليّ إذاً؟!

- كي يلتقي الآخرون! على أحدٍ أن يمشيَ الخطوة الأولى نيابةً عنهم ، ثمّ يكملون هم الطريق ، وقد وقع الخيارُ عليك ، قدركَ أن تكون صاحب الخطوة الأولى!

- عِديني أنّي إذا مشيتُ الخطوة الأولى نيابةً عنهم أن ألتقيكِ!

- ولمَ تريدُ أن تلتقيني؟

قال لها وهو يضع يده على صدره : أريدُ أن أُطفىء النّار التي هنا!

فقالت له : هذه النّار لم تُوقدْ لتنطفىء!

مليارات القلوب ستكون حطباً لها ليبقى هذا الكوكبُ دافئاً!

- أنا لا أفهمكَ

- ليس عليكَ أن تفهم ، عليكَ أن تمشي فقط ، وحدهم الذين تمشي نيابةً عنهم سيفهمون ، وسيطعمون قلوبهم لهذه النّار وهم سعداء ، لأنّهم سيكتشفون أنّ هذا الكوكب دونها صقيعٌ لا يُطاق!

- لا أريدُ أن أمشي نيابةً عن أحد . . . إنّ قدميّ لي!

- سيأتي بعدكَ أشخاصٌ لن تكون قلوبهم لهم! سيحملونها في صدورهم ويعرفون أنّها للآخرين! هذا قدركم أن يجعلكم الحُبّ للآخرين!

- وما هو الحُبّ؟!

- النّارُ التي في صدرك سيسمّيها اللاحقون حُبّاً!

- وماذا إن أطفأتُها؟!

- لا تستطيع . . . أخبرتكَ أنّها لم تُوقد لتنطفىء ، قدركَ أن تكون الشرارة الأولى للنار التي ستجعل هذا الكوكب دافئاً!

- وهل سيعرفني الذين تُسمّينهم باللاحقين؟!

- لا أعرف . . . ولكن كثيرين منهم سيعانون الفقد الذي تعانيه . . . حيثما وُجد الحُبُّ وُجد الفقد!

- لماذا سيُحبُّ اللاحقون ما داموا سيفقدون؟!

- سيُحبّون دون أن يعرفوا أنّهم سيفقدون ، ولكنّهم عندما يفقدون لن يكونوا نادمين على التّجربة ، ولو عادوا إلى أوّل الطريق لأحبّوا من جديد ولو علموا هذه المرّة أنّهم سيفقدون!

- أخبريني كيف أمشي نيابةً عنهم!

- عندما تستيقظُ امشِ خارج هذه الغابة ، ستجدُ هناكَ نهراً ، وسيكون هذا أوّل نهر من بين سبعة أنهار عليكَ أن تجتازها! وعندما تجتازُ النّهر السّابع ستجدُ نفسكَ أمام جبلٍ ليس عليه إلا شجرةً واحدةً ، تسلّق الجبل ، وعندما تصل إلى

الشَجرة ستجدُ عند جذعها الضَخم كهفاً ، ادخله دون حذر ، سيحتاج اللاحقون هذه الجرأة عندما يُحبّون! وعلى جدران المغارة ستقرأ ما الذي عليكَ أن تفعله بعد ذلك . . .

- وماذا لو افترسني حيوان ولم أصلْ؟! أسيبقى هذا الكوكبُ صقيعاً لا يُطاق؟!

- قدركَ أن تصل ، وقدرُ هذا الكوكب أن لا يبقى صقيعاً ، النّاسُ على هذه الأرض لا يمشون إلا في دروب أقدارهم!

- قلتِ أنّي سأقرأ . . . ما معنى أن أقرأ؟!

- أشياء منقوشة على الجدران ستفهمها رغم أنّك لم تشاهدها من قبل! وكما سيكتشفُ اللاحقون أنّ الحُبّ هو الذي يجعلُ عالمهم دافئاً ، سيكتشفون أيضاً أنّ القراءة هي التي ستجعل عالمهم مشتعلاً!

ومع ساعات الفجر الأولى استيقظ . . .

كانت الحياة قد دبّتْ في هذا العالم من جديد . . .

وكان الحلم محفوراً في ذهنه كخطوة فيلٍ ضخمٍ في الطّين!

فنهضَ عازماً على أن يمشي الطّريق نيابةً عن الذين لم يأتوا بعد . . .

وأن يُشعلَ النّارَ التي ستجعلُ عالم اللاحقين أدفأ ، وستمنحهم لقاءات لم يحظَ هو بها!

كان كلّ شيء في أعماقه يدفعه لأن يسير . . .

وبالفعل أمسكَ هراوته كما اعتاد أن يفعل كلّ يومٍ إذا أراد أن يغادر كهفه . . .

ولكنّه قال في نفسه : ما حاجتي إليها ، لن يفترسني حيوان في الطّريق ، قدري أن أصل ، والنّاسُ لا يمشون على هذه الأرض إلا في دروب أقدارهم!

ألقى الهراوة أرضاً ، ومشى خارجَ الكهفِ أولى خطواتِ الرّحلة التي ستُغيّرُ هذا العالم إلى الأبد . . . كان يحفظُ الدّربَ عن ظهر قلبٍ وكأنّه مشاه من قبل!

عليه أن يخرجَ من الغابة ليجد النّهر الأوّل ويجتازه ، وهكذا عليه أن يمشي ويمشي حتى يجتاز سبعة أنهار ، ثمّ يجد نفسه أمام جبلٍ ليس عليه إلا شجرة يتيمة ، عند جذعها الضّخم كهف يحوي السّر العظيم الذي سيكون اللاحقون فيما بعد مدينين له أنّه اكتشفه . . .

وبالفعل سار مغادراً الغابة دون أن يُودّع أحداً ، لم يكن النّاس وقتذاك يحفلون بالوداعات ، فلا مغادرٌ يُفتقد ، ولا غائبٌ يُنتظر! الحياةُ صراع من أجل البقاء ، عندما يصطادُ أحدُهم طريدةً يكون قد انتصر في هذه المعركة ، ولكنّ كسب المعركة لا يعني كسبَ الحرب ، فعليه أن يخوضَ كلّ يوم معركة أو أكثر ليبقى! لهذا لم يكن البشرُ يهنّىء بعضُهم بعضاً بعد الفوز بمعركة ، ولم يكونوا يفتحون العزاءات إذا حدث أن أصبح صيّادُ الأمس طريدة اليوم! إنّها الحياة وعليها أن تستمر . . . لهذا

استمرَّ صاحبنا يمشي مُخلّفاً وراءه مجموعةً من النّاس لا يربطه بهم شيء سوى أنّهم شركاءُ صيد! يتعاونون للإيقاع بطريدة، ثمّ يأخذ كلّ واحدٍ منهم حصّته ويأكلها منفرداً، وطبعاً لا يحصلون جميعاً على حِصص متساوية، كانوا مثلنا اليوم، الذي يملكُ هراوة أكبر يمسك بزمام الطريدة، ويوزّعها بالتّفاوت كما يشاء بعد أن يأخذ الحصّة الأكبر!

وبعد أن مشى ساعات . . . كان التّعبُ قد بلغ منه مبلغاً، ففكّر أن يجلسَ ليستريحَ قليلاً، ولكنّه لاحظ أنَّ الضوءَ في الغابةِ صارَ أقوى فعرف أنّه صارَ في نهايتها، وأنّه عمّا قريب سيكونُ عند النّهر الأوّل، فتناسى تعبه، وعادَ يخطو بين الأشجارِ كأن لم يمسّه نصبٌ من مسيرٍ، وما هي إلا لحظات حتى كانتْ آخر شجرة في الغابةِ عند كتفه، والنهرُ الموعود أمام ناظريه، مشى صوب النّهر، وعندما وصلَ إلى الضفة جثا على ركبتيه، وأنزل رأسه ليشرب فلم يكن البشرُ وقتذاك قد تعلموا كيف يغرفون الماء بأيديهم حتى!

شرب بنَهَم الحقولِ التي تشققتْ من قسوةِ الشّمس وقد عاودها المطرُ، ثم رفعَ رأسه يلتقطُ أنفاسه، كان كقَدَم بُترتْ رفيقتها وعليها أن تحملَ صاحبها فيما تبقى له من حياة وحدها!

وهكذا نزلَ إلى النّهر يُفكّرُ باللاحقين، بلقاءاتٍ ستُرتّبها خطواتُه هذه فيما بعد، أراد للاحقين أن يلتقوا، فقد عرف كم هو مؤلمٌ أن يُحبَّ الإنسانُ ويُحرم اللقاء!

كان الماءُ يُبَرِّدُ حرارة جسمه وينعشه . . .

وعندما وصلَ إلى الضِّفةِ الأخرى عمدَ إلى دالية تتكئُ على كتفِ النهر ، وأخذ منها قطفَ عنب ، فقد علم بخبرةِ رجل الأدغال أن هذا الثمرُ صالح للأكل!

أكمل طريقه وكأنَّ الرحلة بدأتْ للتو . . .

وهكذا ظلَّ يسيرُ أياماً . . . يُودِّع نهراً ويستقبلُ آخر . . .

وعندما يصلُ نهراً يشربُ ويغتسل . . . ويقتاتُ في الطريق مما يجد . . . وإذا ما جنَّ عليه الليل اختار شجرة وصعِد إليها لينام . وهكذا مضت الأيام ، نهارٌ يطويه ليل ، وليلٌ يطويه نهار حتى كان أمام ضفة النهرِ السابع!

شعر بشيءٍ من الرَّهبة عندما شاهدَ الشَّجرة الموعودة على سفح الجبل الأجرد ، ولكنّه تذكّر كلامها يوم قالتْ له : كُنْ جريئاً ، سيحتاجُ اللاحقون هذه الجرأة عندما يُحبّون!

نسيَ هذه المرة من فرطِ الحماسِ أن يشربَ ، اجتازَ النهر بسرعة ، ولم يجلس على الضفةِ الأخرى ليستريح ، كل ما كان يريده أن يصلَ إلى الشجرة ليدخل إلى الكهف . . .

وهكذا صعدَ الجبل غير عابئٍ بناتىء الصَّخر ، كان يمشي برشاقة كأنه في سهل منبسطٍ لا في جبلٍ يكادُ يكون عصياً على التَّسلق ، وما أن وصلَ إلى الشَّجرة ونظر إلى الكهف ، علم بخبرة رجل الكهف أن هذا هو الكهف المقصود ، ثمَّة أماكن تكللها هالة من السحر ، نشعرُ بها ولا نستطيعُ أن نشرحها!

دخلَ إلى الكهفِ فوجده محفوراً في الجبل مسافةً أبعد مما اعتادَ أن يرى ، ووجدَ الجدران مطرزةً بنقوشٍ لم يرَ مثلها من قبل!

وقفَ أمام الجدار الذي لا يُرى آخره وقرأ عليه :

لقد وصلتَ حيثُ كان مقدراً لك منذُ البدايةِ أن تصل ، قبلكَ لم يأتِ أحد إلى هنا ، وبعدكَ لن يأتي أحد! أنتَ الجذوةُ التي ستشعلُ نارَ الحُبُّ التي سيصطلي بها مليارات من المحبين ، وسيحترقُ بها مليارات أيضاً ، تابع طريقك ولا تخف!

سار إلى داخل الكهفِ دون أن يشعرَ بالخوفِ من المجهول ، كانَ ممتلئاً بالدهشةِ عن آخره فقط ، وعلى بُعد ما يقاربُ مئة خطوةٍ من الجدار الأول إذا به أمامَ جدارٍ آخر عليه كتابة تقول :

كنتَ جريئاً منذ البداية وتبعتَ حدسكَ ، كل الذين تركتهم خلفك لا يعرفون ما معنى أن يتبعَ المرءُ قلبه ، ولكنكَ عندما تصلُ سيكتشفون أنهم لم يولدوا ليأكلوا ويتكاثروا ويموتوا ، سيصبحُ للحياة طعمٌ ألذّ من العنب الذي أكلته عند ضفة النهر الأول!

مشى إلى عمق الكهفِ أكثر فإذا به يصلُ إلى نهايته ، هذه المرة لم تكن الكتاباتُ على جانبه ، وإنما أمامه على الجدارِ الذي ينتهي عنده الكهف ، فقرأ :

لم يعدْ أمامكَ خطوات أخرى ، كل ما كان عليك أن تمشيه قد مشيته ، في آخرِ هذه الكلمات ستجدُ كفاً محفورة بالصَّخر

تماماً على مقاسِ يدكَ ، كلّ ما عليكَ أن تضعَ كفكَ في الكفِّ المحفورة لتحترقَ! وسيأتي اللاحقون بعدكَ ليقولوا كذباً : لا دخان بلا نار! والحقيقة أنّه لا حُبّ دون نار ، كل من يُحبّ سيحترقُ شاء أم أبى ، لستَ إلا أوّل النار ، وكل الذين بعدك حطبها ، وعندما تضعُ كفك حيث قُدّر لك أن تضعَها سيتغيّرُ العالم!

اعتباراً من هذه اللحظة لن تُضربَ النساءُ بالهراوات

ولن يصبحَ الرّجلُ الأكثر فتنةً هو الأكبرُ هراوة ، وإنما الأكبرُ قلباً!

اعتباراً من هذه اللحظةِ لن تُجرَّ النساءُ إلى الكهوفِ من شُعورهن

وإنما من قلوبهن!

اعتباراً من هذه اللحظةِ لن تتساوى كلُّ النساءِ في عين رجل

ولن يتساوى كلُّ الرِّجالِ في عين امرأة

ستصبحُ امرأةٌ واحدةٌ هي كلّ النساءِ في عين رجل

وسيصبحُ رجلٌ واحدٌ هو كلّ الرِّجال في عين امرأة!

اعتباراً من هذه اللحظة لن يهربَ الرّجلُ من حيوانٍ مفترسٍ ويتركَ امرأته له ليتسنى له أن يبتعدَ لمكانٍ آمن

سيقفُ أمامه ليدافعَ عنها بشراسةٍ لأنَّ الحياة لا تساوي شيئاً من دونها

ولن تنتظرَ امرأةٌ عودة رجلٍ من الصيدِ ليطعمها
ستبقى قلقةً منتظرة عودته لتختبئَ في صدره
وتخبره أن الوقتَ في غيابه ثقيل كحجارة الجبل!

اعتباراً من هذه اللحظة سيرفعُ الرَّجلُ أشهى لقمةٍ في عينيه ويضعها في فم امرأته
ويقولُ لها : كُلي كي أشبع!
وسترفعُ هي لقمةً أخرى وتضعها في فمه
وتقولُ له : كُنْ معي كي أكون!

اعتباراً من هذه اللحظة إذا غضبَ رجلٌ من امرأته لن يلقيها خارجَ الكهف
سيستلقي بقربها ويعطيها ظهرَه فقط!
ولكنَّ الليلَ سيكونُ طويلاً جداً عليه لأنّه يعرفُ أنَّ المكان الطبيعيّ لرأسها على صدره
وسيشعرُ بضعفٍ لذيذ تجاهها
وسيفعلُ أشياءَ كثيرة تُحبها لترضى . . .
وهي ستصالحه كأن شيئاً لم يكن
لأنها ستشعرُ أنَّ المسافة القصيرة بين رأسها وصدره موحشةٌ ولو كان نائماً جانبها!

اعتباراً من هذه اللحظة سيحاولُ الرَّجلُ أنْ يكون أكثر حذراً وهو يصطاد

لأنه يعلمُ أن امرأةً تريدُ منه أن يعودَ سالماً ولو عادَ دون طعام

وستحاولُ هي أن تكونَ أكثرَ جمالاً وفتنةً حين يعود

لأنها تعرفُ ما معنى أن تكونَ شهيةً في عينيه

اعتباراً من هذه اللحظة ستقولُ النظراتُ ما لا تقوله الكلمات

وستقولُ باقةُ الوردِ ما لا تقوله مئاتُ القصائد

وسيقولُ عناقٌ طويلٌ ما تعجزُ عنه اللغةُ مهما حاولت دونه أن تقول!

ضَعْ كفكَ وأشعلْ هذا العالم، هذا العالمُ دون الحُبِّ صقيعٌ لا يُطاق!

ودونَ تفكيرٍ وضعَ كفَّه في الكفِّ المنقوشة على مقاس كفّه أسفل الجدار

فاحترق . . . واشتعل هذا العالم!

هذه هي الأسطورةُ يا أسماء، وقد رويتها لكِ لأشبع شغفك!

هكذا أنتِ تأسركِ الأساطيرُ، ويكبلكِ حديثٌ لا يُعرف راويه، وقصة لا يُعرف حاكيها!

دعكِ من الأساطير الآن . سأروي لكِ كيف بدأ الحب حقيقةً!

أراد الله لهذا الكوكب أن يصبح مأهولاً لفترة فصنعَ من طينٍ هيئة بشريَّة ، ثم نفخَ فيه من روحه فقام آدمُ بشراً سوياً!

ثم لما نام أول مرَّةٍ أخذَ منه قطعةً من قربِ القلب وخلق منها حواء ، فلما رآها أحبَّها لأنه شعر أنها قطعة منه!

ولما رأته أحبته لأنها شعرت أنه وطنها!

كان الله قادراً على أن يخلقَ حواءَ من تربة منفصلةٍ ولكنه لم يفعل ، أراد أن تبقى حواءُ تشعرُ أنها جزء من آدم ، ويبقى آدمُ يشعر أن حواءَ قطعة منه ، إنه إتقان الخالق ، وطريقته العبقريّة لانجذاب الرجلِ والمرأة لبعضهما ، ومن أجل إعمار الأرض الذي خُلقنا لأجله ، وعندما قال : «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها»

كان دقيقاً في تعبيره ، فلم يقل لتسكنوا معها! فالزواج أكثر من شراكة في البيت ، والزوجان يجمعهما أكثر من سقف وأبعد من سرير! أي لتجعلوهن بيوتاً داخل البيوت ، ومنازلَ داخل المنازل ، فكما يأوي الرجل إلى بيته طلباً للستر يأوي إلى زوجته ، وكما يأوي إلى بيته طلباً للراحة يأوي إلى زوجته .

وعندما خلق الله سبحانه حواءَ من ضلع آدم جعلها في أصل الخلقة قطعةً منه ، كي يحافظَ عليها محافَظته على عينيه اللتين هما قطعة منه ولا يستطيعُ إكمال الحياة دونهما . . .

وبالمقابل حين خلقها الله منه فلأجل أن تستعذبَ ميلها وحاجتها إليه ، كالغريب يحنُّ إلى وطنه!

كاليتيم يحنُّ إلى أبيه!

هكذا أبدعَ سبحانه هذه الطريقة العبقرية التي تكفلُ استمرار الخليقةِ بطريقةٍ يستعذبُ فيها كلٌّ من الرجل والمرأة ما يقوم به . الرجلُ حين يحبُّ هذه القطعة الرقيقة المجتثة منه ، والمرأة حين تحبُّ هذا الكلّ الذي تنتمي إليه!

وهكذا كانتْ حكايتي معكِ يا أسماء ، إعادة لقصة آدم وحواء ، فعندما رأيتكِ أول مرة شعرتُ أنك القطعة التي اجتثت مني وأردتُ استعادتها بأي شكل كان! كنتُ دوماً أشعر أني كالأحجيةِ التي ينقصها قطعة واحدة لتكتمل ، وعندما رأيتكِ عرفتُ أنك تلك القطعة!

قبلكِ كنتُ متصالحاً مع نقصي هذا ، أما وقد رأيتكِ فلم أعد أستطيعُ إكمال حياتي وقطعة مني أمام عيني ولا أستطيعُ أن أضمَّها إلى صدري لأكتمل!

وإن كنتُ أحدثكِ عن حكاية الحب في الأسطورة وفي الحقيقة

فإن حكاية الحب التي تخصني كانت أنت!

لم يكن في حكايتي معك شيء استثنائيّ سواكِ ، حكايتنا تشبه حكاية ملايين البشر الذين التقوا وأحبوا ، مع

فارق ضئيل أنَّ كل رجل حصل على امرأة، وأنا حصلت عليهنَّ كلهنَّ يوم حصلتُ عليكِ.

كنتِ أنتِ حظي الجميل، وكنتُ أنا حظكِ العاثر!

ولكننا التقينا، فأحببنا...

كنتِ أجمل ما حدث لي، وكنتُ أسوأ ما حدث لكِ!

ولكني أحببتكِ كما لم أحبَّ أحداً من قبل، وهِمتُ بكِ كما أشكُّ أن أحداً هامَ بأحد هكذا من قبل!

أحببتكِ حدَّ التَّلفِ، كالفراشةِ التي تلقي نفسها في النَّارِ من فرطِ الولع باللهب، ولا تفكرُ ما الذي سيحدثُ بعدها، أردتُ أن ألقي نفسي بكِ، دونُ أن أفكِّرَ في العواقب، ودونَ أن أحسبَ حساباً لما ستقوله هذه المدينة عني، كنتُ أسيرُ إليكِ كمن يسيرُ وهو نائم، يحفظُ طريقه عن ظهرِ قلبٍ وإن كان عقله غائباً، وقد كنتُ مجنوناً بكِ يا أسماء!

بكثيرٍ من الحظِّ، وبدهاءٍ من الصُّدفة، أو هو القدرُ يا أسماء، فالنَّاسُ في هذه الحياة لا يمشونَ إلا في دروبِ أقدارهم كما قال صاحبكِ رجل الكهف!

مشيتُ في طريق قدري فقادني إليكِ لتكوني قدري، فهذه الحياة حين تنوي أن تذيقَ اثنين حلاوتها ومرارتها في آن معاً، تنصبُ لهما فخَّ الحُبِّ، وقد كان قدراً جميلاً أن تصطادني عيناكِ!

ولكنّي وأنا واقع في فخِّ حبكِ ذقتُ الحريّة لأولِ مرة!

ما يُحررنا يا أسماء وما يكبلنا كامنٌ فينا . . .

الأغلالُ ليست إلا مظهراً فارغاً من مظاهر العبودية ، كما الفضاءُ الرَّحبُ ليس إلا مظهراً خادعاً من مظاهرِ الحريّة ، يمكنُ للمرءِ أن يكون حراً وهو مكبل بالأصفاد ، كما يمكنُ أن يكون عبداً وهو طليق!

وأنا حين كبلني حبكِ شعرتُ بحرية لم أعرفها من قبل ، وكلُّ قيدٍ بعد قيدِ حبِّكِ تافه ، حتى هذا السجن الذي أكتبُ لكِ من بين جدرانه ، يبدو في نظري أرحب بكثير مما هو عليه ، وأرحب بكثير مما يعتقده سجّاني ، ذلك أنهم قيدوا جسدي فقط ، أما روحي فحرَّة كنسرٍ في الفضاء ، لأني أعرفُ أنهم ليسوا سوى فصلٍ من فصولِ الغزاة لا بُدَّ أن نطويه يوماً كما طوينا غيره!

مرّ على القدسِ غزاةٌ كُثر يا أسماء ، من كل عِرقٍ وملة ودين ، ومن كل حَدَبٍ وصوبٍ كانوا ينسلون ، ولكنّهم جميعاً ذهبوا وبقيت القدس!

مررتُ بكِ ، أو مررتِ بي كغيمة محملة بالمطر ، ولم يسعفني حذري أن أتخذ دونكِ مظلةً ، أو ألتجئ إلى سقفِ الهرب ، فتبللتُ بك عن آخري!

قبلكِ لم أكن متوحّشاً كرجلِ الكهف ، ولكني كنتُ مثله أرى النِّساءَ بالأبيضِ والأسود حتى جئتِ!

كنتُ وحيداً كآدم قبل أن تُجتثَّ من ضلعه حواء ، وكنتِ

أنتِ وحيدةً كحواء دون آدم يوم هبطا إلى الأرضِ كلٌّ في ناحية ، وكنا ـ أنا وأنتِ ـ يسيرُ كلٌّ منا على حدة يبحثُ عن الآخر ، وعندما عثرتُ عليكِ ، وعثرتِ عليّ ، عرف كلٌّ منا أنه وقعَ على ضالته ، واهتدى إلى ما كان يبحثُ عنه!

أتعرفين يا أسماء ما أول سؤال خطر لي حين رأيتكِ؟

سألتُ نفسي : كيف يمكنُ لامرأةٍ أن تكون جميلة إلى هذا الحدّ؟

وكيف يمكنُ لهذه القطعة الناقصة مني أن تعيش معي في هذه المدينة ولم يحدث أن قادني نقصي إليها من قبل لأكتمل؟!

في ذلك اليوم كنتُ عائداً من حفر نفق ، فكما تعرفين أنه بعد أن ضاقتْ بنا الحياةُ على ظهر هذه الأرضِ صرنا نبحثُ عن حياة في بطنها ، أنفاق نُهرّبُ بها حليبَ أطفالنا خلسةً تحت جنح الظلام كأننا تجّارُ مخدراتٍ لا طالبي حياة ، ونهرّبُ الأسلحة استعداداً للمعركة القادمة ، فقَدَرُ غزة أن تحارب ، إنها كالمجالدين في زمن الرومان عليها كل مرّةٍ أن تنزلَ إلى ساحة المبارزة وليس أمامها خيار إلا أن تقتلَ أو تموت . . . بينما يجلس النبلاءُ في المدرّجاتِ يتفرجون ، لا يفطرُ قلوبهم مشهد الهالكِ . . . ولا يسعدهم فوز الناجي ، المهم أن يحصلوا على جرعةٍ كافيةٍ من الدماءِ تُبرّد نار الشر المستعرة داخلهم!

وكما تعرفين يا أسماء فإن غزّة لا يدميها سوطُ جلادها

بقدر ما يدميها صمت إخوتها ، فلطالما كانت غزّة كيوسف في إخوته ، ذنبه الوحيد أنه كان جميلاً!

وعندما سَلِم يوسفُ من الذِّئبِ لم يسلمْ من إخوته!

أما غزّة فويلٌ لها من الذئب إن نجتْ من إخوتها ، وويل لها من إخوتها إن نجتْ من الذئب!

هذا هو قدر غزة مع إخوتها

قدرها أن يُكبِّلوها فتسعى لتحررهم

قدرها أن يُحاربوها فتحارب نيابةً عنهم

قدرها أن يحاصروها فتفكُّ أسرهم

قدرها أن يُزفَّ شبابها إلى الحورِ العين قبل حورِ الطين

قدر بناتها أن يلبسنَ الحِدادَ قبل الزفاف

وقدر آبائها أن يستخرجوا أولادهم من تحت الأنقاض

وقدر أمهاتها أن تنفطرَ قلوبهن

وقدر أطفالها أن يصبحوا رجالاً قبل الأوان

هذه هي غزة يا أسماء ، وتحت سمائها التقينا!

كنتُ صبيحةَ ذلك اليوم متعباً ، رائحةُ التراب تفوحُ مني ، وكانت الدنيا كلها في عيني وسادة وسريراً ، أريدُ أن أنام ما يكفي فوق هذه المدينة نهاراً لأن لي في بطنها ليلاً حياة أخرى ، ولكن عيناي عثرت عليك قبل أن تعثر على وسادة ، لم يقع سهم في قلبي وإنما وقعتِ أنتِ!

كان كل شيء في ذلك الصباح عادياً ، الزّحامُ في

الشَّوارعِ ، أصواتُ الباعة ، ضوضاءُ السَّيارات ، كلُّ شيءٍ يسيرُ كما يسيرُ كل يوم ، ليس ثمة ما يُنبئ بمعجزة ، ولا إرهاصات في الأفق تُمهِّدُ لمجيئكِ!

فجأةً حصل كل شيء يا أسماء ، اشتعلتُ بك كالقش اليابسِ إذ تقعُ فيه شرارة ولا تترك له فرصة للدِّفاع عن نفسه ، ذُبتُ فيكِ كملعقةِ سُكَّرٍ يُدفع بها في كوبٍ مليءٍ بالماءِ وتُحرَّكُ بعنفٍ فتذوب قبل أن تستجمعَ قواها ، هل لاحظتِ أني أحدثكِ عن اشتعالٍ وذوبانٍ في لحظةٍ واحدة؟! أنتِ سيدة المتناقضات ، فيكِ يجتمعُ كل ما لا يجتمعُ في صعيدٍ واحد! صيفٌ وشتاءٌ في بقعةٍ واحدة ، ماءٌ ونار ، تماماً كالحزنِ والفرح الذائبان في اللونِ الأسود في عينيكِ ، في أعتى لحظاتِ حزنكِ في عينيكِ فرحٌ يقاتلُ كل جيشِ وجعكِ ، وفي قمَّةِ فرحكِ في عينيكِ حزن لا يخبو!

كنتِ تقفينَ أمام بضاعةِ بائع فرشها على الرَّصيفِ ، تحملينَ بيدكِ شيئاً تساومين على سعره ، لستُ أذكرُ ما كنتِ تحملين تحديداً ، أنتِ امرأة لا يُرى معها شيء آخر ، حضورك اغتيال لكل شيء!

نظرتُ إليكِ مشدوهاً فقد كنتِ الشيء الوحيد الخارج عن المألوف في صباح كلّ شيء كان فيه مألوفاً عداكِ!

آيةٌ من الجمال ، وجه أبيضُ مُدوّرٌ كأنه القمرُ ليلة اكتمال ، يزيدكِ حجابكِ الأسود بياضاً ، هكذا حين تجتمعُ الأضدادُ

تتكاتفُ ليَهَبَ كل ضدٌ ضدَّه مزيداً من الفتنةِ ، حاجبانِ أنيقان معقوفان بغنج كهلالٍ وُلدَ منذ ساعة ، رمشان مصفوفان بأناقةٍ كأنهما صفٌّ مُصلين في صلاة فجر ، شفتان حمراوان دون أحمر شفاه!

تمنّيتُ أن يطول النقاشُ بينكِ وبين البائع لأتأملكِ أكثر!

ولكنّكِ خذلتني ، دفعتِ إليه بضاعَته ومضيتِ في طريقك!

فتبعتكِ دون أن أفكر إن كانَ صواباً أن أتبعك ، كان صوابي الوحيد في تلك اللحظة أن لا أفقدَ أثركِ ، لقد انتظرتُ طويلاً مجيئكِ ، ولم يكن بي صبر أن أنتظر أن تحنّ عليّ الصدفةُ مرّةً أخرى ، تعبتُ وأنا أنتظركِ ، هل مرّ عليكِ شخصٌ ينتظرُ آخر لا يعرفه؟!

أنا كنتُ أنتظركِ دون أن أعرفكِ ، كان في داخلي شيءٌ يخبرني أنك ستأتين ، لهذا عندما أتيتِ تخليتُ عن حياء المُحاصَرِ الذي يعيشُ فوقَ الأرض ، واستحضرتُ جرأة المحاربِ الذي يعيشُ تحتها!

تبعتكِ كهدفٍ لا بُدَّ من الإمساكِ به لتحقيقِ نصرٍ مؤزّرٍ في الحرب!

نسيتُ أن عليَ أن أعودَ لأزيلَ رائحة الترابِ عني ، وأن عليَ أن أنامَ لأستجمعَ قواي التي أحتاجها في الليل ، علينا أن نحفرَ في باطن الأرض ممراتٍ كما يفعلُ النملُ ليبقى! ممراتٍ

لأجلِ حليب الأطفال ، ودواءِ المرضى ، وطحينِ الجياع ، وسلاحِ المعركةِ القادمة!

كنتُ أشعرُ أنّي أقاومُ هذا الواقع الذي يُكبلني وأنا أتبعكِ ، ظهوركِ المفاجئ ذكرني أني إنسان لا آلة حفر!

فقبل أن أراكِ بلحظاتٍ كنتُ حياً لأني أتنفسُ أما الآن فأنا حيّ لأنَّ عضلةً في صدري لم تنبض هكذا من قبل!

قبلكِ كنتُ أشرّعُ صدري للرصاص لأنَّ لا شيء في هذا السجنِ الكبير المُسمى زوراً مدينة له طعم الحياة ، وكثيراً ما توقعتُ أن تخرقه رصاصة بدل جرعة هواء!

ولكني الآن أصبتُ بكِ ، إصابة جعلت الحياة تدُبُّ فِيّ وكأني كنتُ ميتاً قبلك!

فكّرتُ بكلِّ هذا وأنا أسيرُ خلفكِ ، وعندما استوعبتُ ما الذي أفعله كان الأوان قد فات ، فقد انتبهتِ إليّ حين دخلنا الزقاق المؤدي إلى بيتكِ ، وقتها استدرتِ بثباتٍ زعزعني أكثر مما فعل اللونُ الأسودُ في عينيكِ!

سألتني بنبرةٍ فيها حدةٍ وتوبيخ : لماذا تلحقُ بي؟!

كنتُ سأقول لكِ أنَّ الطريقَ جمعنا ولم أكن ألحقُ بكِ ، ولكن كان في عينيكِ من الذكاء ما يجعل الكذب عليكِ حماقة أكبر من حماقة اللحاق بك!

ولكني في المقابل خشيتُ أن أخبركِ أني تبعتكِ لأني مفتون بكِ

! فرغم كل هذه الرقة التي تسكنك ، والأنوثة التي تختبئُ فيكِ إلا أن انتصابكِ أمامي كرمح جعلني أعرفُ أنَّ فيكِ شيء من القسوة التي لا يسلمُ منها كل من يعيش في هذه المدينة الشَّرسةِ كجندي!

فهنا كلُّ غريبٍ عدو حتى يثبتَ العكس ، وقد كنتُ غريباً عنكِ في اللحظة التي كنتِ فيها وطني!

عرّفتكِ باسمي قائلاً : أنا حمزة ، ما اسمكِ؟

لكنكِ بدل أن تقولي لي أنا أسماء ، سألتني : ماذا تريد؟!

فقلت لكِ : لا تفهميني خطأ ، أنا لم أتبع امرأةً من قبل ، كلُّ ما في الأمر أني رأيتكِ ، وشيء ما في داخلي جعلني أتبعكِ!

توقعتُ أن تقولي شيئاً ترمين به خيبتي

ولكنك قلتِ لي : لا تلحق بي ، لا أحد يفهم نيَّتكَ من شكل خطواتكِ .

تركتني ومشيتِ خطواتٍ قليلة ، ثم دخلتِ منزلاً ، بينما بقيتُ أنا مسمراً في مكاني لحظاتٍ ، ثم مضيتُ فرحاً ، على الأقل عرفتُ مكاناً أقصده لأراكِ مرةً أخرى .

الطريقُ التي تؤدي إلى بيتكِ الآن واضحة ، ولكن الطريق التي تؤدي إلى قلبك يبدو أنها أشد وعورة من طريق جبلي! ولكن بالنسبةِ إلى رجلٍ يشقُّ الأنفاق تحتَ مدينةٍ محاصرة لا طريق غير قابل للعبور ، وبالنسبةِ إلى رجلٍ تعرّف على قلبه

حين رآكِ لا يمكن أن يهدأ قبل أن يُحدثَ جلبةً في صدركِ كالتي أحدَثْتِها في صدره، لتدركي أنه لم يكن يتبعكِ بقدميه وإنما بقلبه.

لستُ رجلاً عاطفياً أو لنقل أني لم أكن أتعاملُ بالعواطفِ إذ لا ولا وقت لها في حياتي، ولا أعرفُ الآن إن كانت عواطفي تلك تختزنُ نفسها لتنفجرَ برؤيتكِ، أو أنَّ رؤيتكِ أوجدتها بي فجأة، لكن ما أعرفه أنَّ وجهكِ لم يغب عني منذ أشرقَ أول مرّة، ولكني كنتُ قد انتبهتُ لما قلتِه لي جيداً، وأدركتُ خطئي حين لحقتُ بكِ دون أن أتركَ مسافةً آمنة لا تفزعكِ مني ولا تضعني موضعَ الأحمق أو قليل الحياء، غير أني وأنا أقرُّ بهذا التصرف الخاطئ لا يخالجني الندم، أو يعتريني الخجل، لعلَّ مردَّ ذلك إلى سعادتي بالمعلومة الصَّغيرةِ التي حصلتُ عليها عنكِ، إضافة لتلك الوقفةِ الصغيرة التي جعلت حديثاً يدور بيننا وإن كان مقتضباً، لقد تعلمتُ أن لا أتركَ شيئاً أريده للحظ، فالحظُّ لم يكن ذو ماضٍ مشرقٍ معي، فدائماً ما خذلني، كما يفعلُ كلُّ شيءٍ آخر في هذا العالم. لذا لم أكن لأندمَ على هكذا خطأ، إن كان خطأً أن يتبعَ المرءُ قلبه!

لكني احترمتُ رغبتكِ، ولم يغب عني أبداً احتمال أن يكون في هذا أذى لكِ، فأنا ابن مدينتكِ، وأعرفُ كيف تعملُ العقول هنا، وأدركُ أن الألسن لا تبقى هادئة بين فكي أحد،

لذا قررتُ أن أراكِ من بعيد ، وأسترقُ النّظر عليكِ حتى أعرفكِ ، أو أجعلكِ تعرفيني ، فجعلتك أول مهامي اليومية . . .

كنتِ تخرجين قرابة الثامنة صباحاً إلى عملك ، تصطحبين معك طفلة صغيرةً عرفت لاحقاً أنها أختكِ وأنكِ تأخذينها في طريقكِ إلى المدرسة ، أتركك بعدها وأكمل يومي ، أو أتركني عندكِ وأمضي لأنجز مهامي الأخرى بعد أن اطمئن برؤيتكِ ، فقد بدأت الأشياء تختلفُ عندي منذ عرفتكِ ، بدأتُ أشعر بأهمية الأيام ، بقيمةِ الساعات ، بقيمة النَّفسِ الذي أتنفسه . أصبح هناك ما يمكن أن يجعلني راغباً في النضالِ أكثر في سبيل فكِّ قيود هذه المدينة ، لا راغباً في الموت لأجلها فقط ، أردتُ أن أجعلها مكاناً أفضل لأعيش فيه معكِ ، لأجعلكِ تمرين في شوارعه دون أن ينتابكِ قلق ، وتنتقلين بين أحيائه دون أن يجرؤ حاجز على الوقوف في وجهك ، أردتُ كثيراً أن أجعل من هذا المدينة مهراً لك ، لأنني لم أجد أقل من ذلك يليقُ بكِ .

ولأني كنتُ قد توقفتُ منذ زمنٍ طويلٍ عن توقع شيءٍ جميل من الحياة ، تفاجأتُ حين رتّبتْ لقائي بكِ ، وتساءلتُ عما إذا كان هذا هو هدفُ الحياة يا ترى؟

أعني أن تُخيّبَ ظنوننا باستمرار

فتعاملُ المتفائلِ الحالمِ كالمتشائمِ اليائسِ ، وتجعل من اليأس خطيئة كما من الأمل ، موضحةً لنا أنها لا تُحبُّ أحكامنا

المسبقة عليها ، ولا تكهناتنا المسبقة حول ما تخفيه خلف ظهرها لنا .

الحياة تحب المفاجآت أحياناً

وعليّ أن أعترفَ هذه المرة أنها أدهشتني إلى حد عدم التصديق ، ربما لأنها عودتني على الحرمان ، وربما لأنكِ فعلاً تجعلينني دائماً في حالة من الدهشة اللذيذة .

والآن أُفكِّرُ يا أسماء كيف يمكنُ أن أشرحَ لكِ أني أحبكِ؟

كيف يشرحُ لكِ شخصٌ مثلي أنّه يحبّكِ ، شخصٌ أكثر كلمة سمعها في حياته هي كلمة «اخرس ياولد» . . ففي وطن كهذا لا مكان لشيءٍ سوى الصمت ، لا دور للألسن لأنه لا حاجة بنا للثرثرة ، فالعالم بأكمله يثرثر ، العالم الذي لم نعد جزءاً منه منذ وقت طويل ، أو أننا جزؤه الذي يفترضُ به أن يصمتَ ، لأن صوته مزعجٌ جداً ، لا مكان في هذه المدينة للكلام ، الأيدي وحدها تعمل ، بعضها يحفرُ ، وبعضها يقاتل ، والبعض الآخر يُعدُّ قبور الجنازات اللاحقة!

شخصٌ يداه مشققتان ، وجهه مغبّر ، قلبه فقط ما زال غضاً كراحة طفل ، منسياً غائراً في الأضلاع حتى انتشلته عيناك .

لذا قررتُ حين آتي إليكِ هذه المرة ، أن لا أختبئَ في الزوايا وأكتفي بأن أرمقكِ بنظراتي ،

ولا أتعقّبُ خطواتكِ كلص يتسللُ ليسرقَ رائحتك بدلاً من الأوكسجين

لن أخففَ من سرعتي كي لا تحينَ منكِ التفافة أتمناها وأتحاشاها في آنٍ معاً!

سأبررُ لكِ هذه المرة

سأبررُ لكِ مجيئي إليكِ كلَّ يوم قبل أن آخذ حصتي من ضوءِ الصَّباح

سأبررُ لكِ وقوفي الطويل على أطرافِ الطرقاتِ التي تمرين بها

سأبررُ لكِ احتفاظي بآخر حديث بيننا على قائمةِ الذكريات المتجددة باستمرار ، ابتساماتي ذات شرود وأنا أتأملُ وجهكِ في خيالي ، وأتذكرُ جمال نظراتكِ التي جعل منها الغضب آيةً من الفتنة

سأبررُ لكِ كلَّ هذا بكلمةٍ واحدة : أحبكِ .

جئتُ إليكِ ، لا أحملُ وردةً في يدي ، ولا قصيدةً في فمي ، كل ما أحمله هو اعترافاتي التي حمَّلتها من الصدقِ أكثر مما حمّلتها من جودة التعبير .

انتظرتُ طويلاً تلكَ اللحظة التي تكونين فيها بمفردكِ . . . كانت الشمسُ قد أوشكت أن تغوص في الأفقِ مسدلة الستار على يوم طويلٍ من التربص ، والانتظار .

وقفتُ أمامكِ مجدداً وسألتكِ دون أن أسمح للتردد أن يحول بيني وبينكِ : هل لديكِ بعض الوقت لأحدثكِ قليلاً؟

كانت الدهشةُ واضحةً عليكِ هذه المرة ، ويبدو أيضاً أن

تلك الفـتـرة الفـاصلة بين لقـائنا الأول والتـالي كـانتْ طويلة بالنسبـة لكِ ، فما بدا لي حضوراً مستـمرا ، كان بالنسـبةِ لكِ غياباً وانسحاباً .

قلتِ بعد دقيقةٍ بنبرة استغراب : أنتَ مجدداً؟

أومأتُ برأسي دون أن أدركَ أنني أتصرفُ كالأطفال الذين يتـملقـون محـاولين كـسب رضـا أمهاتهم وهم يعـرفون أنهم لن ينالوا غير التأنيب .

ثم عقّبتُ : اسمحي لي بقليل من الوقت . .من فضلكِ .

برضوخ غير متوقع أشرتِ بيدكِ إلى الأمام قائلة : تفضل

مشـيناً معـاً جنباً إلى جنب ، بصمتٍ مريح ، لـم يحـاول أحـدنا أن يقطعـه ، كنتُ أشـعـر أن خطواتي أكـثـر خـفـة وهي تحاكي خطواتكِ بانسـجام تام .

في مكان هادئ ومنعزلٍ نوعاً ما استـقر بنا المسير ، جلسـنا متـقـابلين ، كنتُ أنظرُ إليك فـقط ، وعـقـدة البـداية تجعلني في حيـرةٍ مما أقـول ، إذ غـالبـاً مـا تقـفل الكلمـات على نفـسـهـا في داخلنا بانتظار أن نجدَ طرف الخيـط ، وكنتُ أحاول أن أجـده قبل أن ينفد صبركِ .

كـان لملامحكِ هيـبـة تجـعل الفـصـيحَ أخرسـاً ، وكـان في عينيكِ دفءٌ وأمان يجعلُ الأخرس فصيحاً ، تضارب في داخلي هذا وذاك فقلت متلعثماً : حين سألتني أول مرة لماذا تلحقُ بي كان لدي سبب لأقوله ولكن لم أجرؤ ، ما زال السببُ هو نفسه

هذا اليوم ؛ عقلي مزدحم بكِ ، وقلبي كذلك ، أعرف أني غريب بالنسبة لكِ ، وأعرف أنك لستِ امرأة تشرع أبوابها للغرباء ، أستطيعُ تخمين الأفكار التي تدور في ذهنكِ حول كلامي الآن ، وأستطيعُ أيضاً أن أرى اشارات الاستفهام في نظراتكِ ، كل ما أطلبه منك هو أن تسمحي لي أن أعرّفكِ بي وأعرفْكِ أكثر .

قلتِ لي بعد تمعن : لماذا أنا؟

أجبتُ : لأنك أنتِ!

– هذا ليس جواباً .

– لأني لو قلت لكِ شيئاً آخر لكذبتُ ، فلو قلتُ لأنكِ جميلة لما كنتُ منصفاً ، ولو قلتُ لأن فيكِ جاذبية غريبة لأهملت جوانب أخرى لا يمكن غض الطرف عنها ، ولو أخبرتكِ عن اختلافكِ لطال بنا الحديثُ حتى مطلع الفجر ، ولكن لأنّكِ كل هذا ، ولأني أحتاجُ عمراً بأكمله لأشرحَ كل هذا . . . كنتِ أنتِ!

– لماذا انتظرتَ كلَّ هذا الوقت إذن لتتحدث إليّ؟

– كنتُ أحاولُ أن استجمعَ قوايَ التي فقدتها بعد حديثنا الأول .

– عن طريق اللحاق بي خلسة؟

– هل لاحظتِ وجودي؟

– أوتحسبني عمياء؟

- لا ولكني لم أظهر في طريقك أبداً .

- النساءُ يُدركن الكثير مما يخفيه الرجال ولكنهنَّ يتظاهرن بالجهل!

- من المؤسف أن أجهزة المخابرات تعجّ بالرجال ، يجب ألا تهدر مواهب النساء!

أفرجتِ عن ابتسامةٍ جميلة مُعقبةً بدعاية مماثلة

ـ ينقصهن شرط مهم جداً : المحافظة على السريّة .

كان وجهك يشبه زهرة تفتحت للتوّ ، حمراء لأنها جميلة ، أو جميلة لأنّها حمراء! وأنتِ تحاولين الحفاظ على وقارك رغم أن هزيمتكِ بدت واضحة .

ثم قلتِ بشكل مفاجئ وكأنكِ تذكرتِ شيئاً مهماً : يجب أن أغادر الآن ، لقد تأخرتُ على المنزل .

نهضنا معاً فاعترضتِ على مرافقتي لك في العودة غير أني غلبتك بإصراري .

وقبل أن نقترب حيث تقطنين افترقنا بعد أن تواعدنا في المكان والزمان نفسه لليوم التالي .

عدتُ تلكَ الليلة إلى عملي في الأنفاق وأنا أشعر أنَّ طاقة جديدة تدب في روحي ، كنتُ مستعداً لحفر آلاف الأنفاق دون أدنى تعب ، كان يكفيني أن أتذكر وجهكِ ضاحكاً أو صورتكِ جالسة أمامي لأشعرَ أنّ بإمكاني أن أحفرَ مدينةً في جبل ، لا نفقاً تحت مدينة فقط!

ما زال الصباح موعدي مع وجهكِ ، وما زال عنوانك وجهتي الأولى حين أخرج إلى ظهر الأرض ، أذهب لأراكِ ، لأعطي قلبي حصته من الراحة ، ثم أعود لأسمح لجسدي أن يحظى براحته ، فالشوق يقظة ، والقلب الذي تبقى فيه قناديل الشوق مشتعلة ، يجعل عتمة النوم مستحيلة ، لذلك كان على عينيَّ أن تطمئن برؤيتك ، ليطمئن قلبي ، ليطمئن جسدي .

وفي المساء كنا نسرقُ ساعة من الزمن لنعيش ، كنا نلتقي في زاويتنا الهادئة لنتحدث عن كل شيء ، عن غزة بأفراحها وأحزانها ، عن شوارعها وسمائها وأرضها وجوها وبحرها ، كنت أحكي لك عن غزة التي تحت الأرض ، وكنتِ تحكين لي عن غزة التي فوقها!

قلتِ لي مرة : كلُّ المدن لها أبوابٌ تسمحُ لمن يدخلها بالخروج متى شاء ، إلا غزة ، فأبوابها تسمحُ لك بالعبور مرة واحدة فقط إلى الداخل ، تماماً كالعشاق القدامى ، الذين حين يفتحون قلوبهم لأحد مرة لا يسمحون بخروجه إلا برفقة الروح .

وقلتُ لكِ : كلُّ المدنِ تأخذ أبناءها إلى باطنها حين يموتون فقط ، إلا غزة ، فهي كالأمهاتِ تمنحُ الحياة لأبنائها عن طريقِ حبلها السريّ ، تجعلُ من أحشائها مأوى لهم ، وكل يوم لغزة مخاضها الموجع الذي تنجبنا من خلاله ، مدينةٌ قائمةٌ على الألم والمعاناة ومع هذا فهي لا تكفُّ عن بثِّ الحياة وصناعة أسبابها .

سألتني بنبرةٍ هادئة : ما حلمك؟

أجبتكِ دون تفكير : أنتِ!

ابتسمتِ مستغفرةً : أقصدُ ماذا تريدُ أن تفعلَ في هذه الحياة؟

قلتُ بنفس النبرة : أتزوجكِ!

هنا أصبح وجهكِ أكثر حمرة من الشمس التي أوشكت أن تغيب وقلتِ متحاشية النظرَ في وجهي : ماذا كان حلمكَ قبل أن تلتقيني إذن؟

- أن ألتقيكِ!

نظرت إليّ مستسلمةً وقلتِ : أليس لديك أحلامُ أخرى؟

- هناك حالتان يتوقفُ فيهما الإنسان عن الحلم : عندما يكون مزدحماً جداً ، وعندما يكون فارغاً جداً ، لا أعرف أية حالةٍ منهما تمثلني بالضبط ، ربما كلا الحالتين ، إذ أني فارغ من الداخل جداً ، ومزدحمٌ من الخارج جداً ، وأحياناً العكس ، لعل إحداهما كانت نتيجة للأخرى ، لا أعرف حقاً ، فقد كان لدي بعض الأحلام ولكنها تساقطت مني تباعاً تحتَ الأرض ، نسيتُ كل الأحلام المتعلقة بالحياة حتى رأيتكِ ، لا أعرف متى توقفتُ عن الحلم ، ربما في مراهقتي ، أو حين كنت أرغب في شراء دراجة نارية وكلما ادخرت من أجل ذلك مالاً مرض أحد أفراد عائلتي فتخليت عن مدخراتي لأجل دوائه ، أو ربما حين دفنت أمي تحت التراب ، في ذلك الوقت تحديداً تخليت عن

وجه الأرض لأنه خلا من أهم ملامحه : وجه أمي ،أو ربما لأني كنتُ أموت كل يوم ألف مرّة لتأمين رسوم الدراسة في الجامعة ، لأذهبَ إلى قبر أمي وأقول لها : لقد تخرّجتُ! أو ربما عندما اقتنعتُ أنّ هذه المعركة هي معركتي الشّخصيّة ، انقطعتُ للعمل في حفر الأنفاق ، هكذا كنت أشعر أني قريبٌ منها ، وبعيد عن الأحلام .

وضعتِ يدك على يدي ، ولم تقولي شيئاً ، ولكنكِ بيدكِ التي تعانق يدي أخبرتِني أنكِ قربي أكثر مما يمكن لكلمات مختارة بعناية أن تفعل .

حينها سألتكِ قافزاً عن تلك الغصة التي لم أشأ أن تظهر عليّ آثارها : وأنتِ ، ما حلمكِ؟

قلتِ دون أن تأخذي يدكِ من يدي : أن أكمل دراستي الجامعية وأتخرّج من كليّة الحقوق

قلتُ لكِ ممازحاً : علينا أن نجد الحقوق أولاً يا حلوتي كي ندرسها .

أجبتِ على دعابتي بجدية : على العكس ، علينا أن ندرس الحقوق لنجدها .

نظرتُ إليكِ طويلاً ثم قلت : ألكِ حلم آخر؟

- أجل

- ما هو؟

- أن يتحقق حلمكَ الأول!

كنتِ كالبحر ، لا يزدادُ الشاربُ منه إلا عطشاً ، فكلما التقيتُ بكِ ازددتُ شوقاً إليكِ ، وصارت تلك الساعة المسائية لا تكفي لكل هذا الاشتياق ، ولكني كنتُ أدركُ أنك بالكاد تستطيعين المجيء ، ولم أشأ أن يكون في لقائك بي عبءٌ عليك ، كنتُ على استعداد أن أقضي عمري كله منتظراً لأجل ساعة واحدة معك ، رغم أن الانتظار من أكثر الأشياء التي لا أحتملها في هذه الحياة ، ولكن كل الأمور حين نحب تكون قابلة للتغيير ، فنحن نحتمل الآخرين أما الذين نحبهم فنصبر عليهم ، ذلك أن الاحتمال نمارسه على مضض وإلى حد معين ، أما الصبر فنمارسه بإرادة ودون حدود ، وفي حين أننا نجامل الآخرين فنحن نداري أحبتنا ، إذ أن المجاملة فعل مؤقت يدفعنا إليه أدب التعامل أو الاضطرار ، أما المداراة فهي ابنة الاهتمام ، ولا يكتملُ الحب إلا بالاهتمام ، وعمري بأكمله سيظل قاصراً وغير كافٍ لأشرح لكِ إلى أي مدى أهتمُّ بكِ ، بتفاصيلكِ الصغيرة ، تلك التي لا يلاحظها أحد ، برجفة صوتكِ حين تحاولين إخفاء أمرٍ يزعجكِ عني ، بلمعة عينيك حين أحكي لكِ كم كانت ساعات غيابكِ أشد بطأً وثقلاً ، بكل تجعيدة في زوايا عينيك حين تضحكين ، بالقوة التي تحملينها في داخلكِ رغم هشاشة مظهرك التي تسبغها عليه رقتكِ ، بكل ما فيكِ ، وكأني في كل مرة على موعد لاكتشافكِ ، لأعيد دهشتي الأولى بكِ .

أرجعُ الآن بكِ إلى الأساطيرِ يا أسماء ، دوماً أحبُّ أن أرجعَ إلى ما تُحبِّين ، فليتني أرجعُ إلى ما أحبُّ . . إليكِ!

لا شيء يجعلُ هذا السجن سجناً إلا غيابكِ!

يقولون : الحُبُّ أعمى!

وأنا لا أوافقهم لأني لم أبصرْ إلا يوم أحببتكِ ، قبلكِ كنتُ أتحسسُ طريقي بعصا فقدي لكِ ، أما وقد أحببتكِ فقد أبصرتُ ، أبصرتُ كل شيء ، وصدقيني إذ أقول لكِ أني يوم أحببتك أبصرتُني!

أُسطورة الحُبّ أعمى أبعد في الزمن من أسطورة رجل الكهف التي رويتها لكِ ، فإذا كانتْ أسطورة رجل الكهفِ تدورُ أحداثُها في مرحلة مبكرةٍ من عمر الإنسان على هذه الأرض ، فإن أُسطورة الحُبُّ أعمى تدور على الأرض قبل مجيء الإنسان!

تقولُ الأسطورة أنّه عندما كانت الأرض خالية من البشر كانت الفضائلُ والرذائلُ تجوب الأرض ، وكانت تشعر بالملل الشديد ، فأراد الإبداعُ أن يجعلَ الأمر أكثر حماساً ، فاخترع لعبة «الاستغماية»! فراقت الفكرة للجميع وتحمسوا لها ، وصرخ الجنونُ قائلاً : أريد أن أبدأ ، أنا سأغمض عينيَّ أولاً وأبدأ العد ، وأنتم عليكم الاختباء ، ثم سأحاول العثور عليكم واحداً تلو الآخرا

فوقفَ عند جذع شجرة ووضعَ يديه على عينيه ، وبدأ

العـد ، واحـد ، اثنان ، ثلاثة . . . وبدأت الفـضـائل والرذائل بالاختباء ، فاختبأت الرِّقة في وردة ، واختبأ العطاء في غيمة ، واختبأت القسوة في كومة حجارة ، وهكذا حتى اختبأت الفضائل والرذائل جميعاً إلا الحب!

وقف حائراً كعادته لا يملك قراراً ، ولكنه عندما سمع الجنون قد اقترب من بلوغ المئة ، اختبأ في سنبلة قمح ، فتح الجنون عينيه ، وكان ذكياً جداً ، سرعان ما وجد الرِّقة مختبئة بين الورد ، وشاهد العطاء في الغيمة ، واكتشف القسوة عند كومة الحجارة ، وأكمل بحثه يكتشفُ فضيلةً ، ويعثرُ على رذيلة ، ولكنه لم يستطع أن يكتشف الحُب ، فلم يخطر بباله أن يكون قريباً منه إلى هذا الحد ، عند السنبلة التي كان يعدّ إلى المئة قربها!

غضب الجنون من فشله ، وأراد أن يكتشف الحب بأي ثمن ، فأخبره الحسدُ أن الحبَّ مختبئ في سنبلة القمح ، فأخذ غصناً مليئاً بالشوكِ وتوجه إلى السنبلة وضربها ، فدخلت الأشواك في عينيّ الحبَّ وفقد بصره وصار أعمى!

صاح الجنون نادماً : يا إلهي ، ماذا فعلتُ! وماذا يجب عليّ أن أفعل لأكفّر عن خطئي هذا؟

فقال له الحُبُّ : لن تستطيع أن تعيد إليّ بصري مهما حاولت ، لهذا عليكَ أن تقودني طول العمر ، ومن يومها مشى الحبُّ في هذا الأرض أعمى يقوده الجنون!

الحُبُّ يا أسماء ليس أعمى ، إنه عاطفتنا الأبصر ، ولكنه يُعمي!

عندما نُحبُّ لا نرى إلا حسنات من نُحبُّ ، تخيلي لو أنه لم يكن يُعمي ، أكان سيستمر؟! لا أعتقد ، وأنا اليوم أشد تمسكاً بكِ من قبل لأني لا أراكِ بعينيَّ بقدر ما أراكِ بقلبي ، عندما أتركك لعينيَّ سأنقّبُ في عثراتكِ ، وسأرى زلاتكِ ، ولكن عندما أراكِ بقلبي فشأني معكِ شأن النحلة مع هذا الكوكب . . . لا ترى منه إلا أزهاره!

سأناقشك الآن في الأساطير التي تُحبينها!

دائماً ما تقولين لي : الإنسان لا يظهرُ على حقيقته إلا في الأساطير ، ذلك أن الرواة فيها يكونون على سجيّتهم ، فيقولون ما يجولُ بخاطرهم دون خجلٍ أو مواربة ، عندما يكون الراوي مجهولاً يتخلصُ من الرقابة ، على عكس الكُتّاب المعروفين ، هؤلاء مهما حاولوا أن يتخلصوا من ردة فعل القرّاء فلن يستطيعوا ، إنهم حين يكتبون يتخيلون القرّاء جالسين فوق أقلامهم ، فيكتبون ما يريدُ القرّاء لا ما يريدون هم ، أو بتعبير أدق إن القرّاء هم الذين يكتبون ولكن بأيدي الكُتّاب!

أنا وإن كنتُ آنسُ بالأساطير كأنسكِ بها أو أكثر ، إلا أنّ الفارق بيني وبينكِ أني لا أعتبرها أكثر من نصٍّ أدبيٍّ صنعته المخيلة ، بينما ترين أنّه في الأصل حقيقة خامرها الخيال!

يؤسفني أن أخبركِ أنّ الذي صنع الأساطير ليستْ مخيلة

الإنسان يا أسماء بل جهله!

فالإنسان كائن مسكون بغريزة تفسير الظواهر الكونية من حوله ، ولا شكّ أن الظواهر الكونية ظواهر طبيعية تنشأ عن النواميس والسنن التي حكم الله بها هذا العالم ، فإذا ما صارت السنن وقعت الظاهرة! وكان من الطبيعي أن لا يستسلم الإنسان ويعترف بجهله ، فسعى لإيجاد أسباب علائقية بين الأشياء والظاهرة التي حدثتْ ، وعندما لم يهتدِ لأسباب منطقية اختلقها! هذه الأسباب المُختلقة هي التي أنتجتْ لنا الأساطير التي تُحبينها!

خذي عندك مثلاً أسطورة «عروس النيل» عند الفراعنة ، حيث كان يفيضُ نهر النيل في شهر «بؤونة» الفرعوني ، وهذه ظاهرة طبيعية لاشتداد الأمطار في هذا الوقت عند منبع نهر النيل البعيد عن دولة الفراعنة ، وحدث ذات يوم أن فاض النيلُ فيضاناً أكثر من المعتاد ، فأخبر كبيرُ الكهنة الملكَ أن النيل غاضبٌ ويريد الزواج والإنجاب ، فقد سئم من كونه وحيداً ، وأنه إذا لم يتزوج فسيزداد غضباً ويفيض أكثر ، ولن يكتفي بطمر الحقول وتدمير المحاصيل ، بل سيطال غضبه البيوت وكل أرجاء المملكة ، وإذا ما أردنا أن نلجم غضبه علينا أن نرضيه ونعطيه زوجة!

راقت هذه الفكرة للملك فجمع العذارى الجميلات وطلب من الكاهن أن يختار منهن واحدة تليق أن تكون زوجة للنيل

الغاضب! وبالفعل قام الكاهنُ باختيار فتاة جميلة من بينهن ، فزينوها وزفوها إلى موتها لتكون عروساً للنيل! وما لبثت مياه النيل أن نقصت كما هي قوانين الطبيعة ، فاحتفلوا بالنجاة ، وبارك الملكُ الكاهنَ على حلّه العبقريّ!

ولكن يبدو أنَّ النيلَ كان مزواجاً! ففي السنة التالية غضب أيضاً يريدُ عروساً ، وبما أنَّ المشكلة الجديدة كانت قديمة لجأوا إلى حلهم القديم ، وأعطوه عروساً جديدة ، وهكذا كانوا يفعلون كل سنة!

ولمّا كان فيضان النيل ظاهرة طبيعية خاصّة بمصر لم نشهد أسطورة عروس النّيل عند شعبٍ آخر ، وإن عرفت الشعوب القديمة تقديم القرابين البشريّة للطبيعة الغاضبة! فإنّ خسوف القمر شأن عام على هذا الكوكب ، ولأنه ظاهرة تطال الجميع نشأت أساطير كثيرة محاولةً تفسيره!

وكان العرب في الجاهلية إذا حدث الخسوف اعتقدوا أنّ القمر وقع في الأسر ، وأنه بحاجة إلى مساعدتهم ليفك أسره! ولأنهم كانوا أهل نجدة كما تعرفين فإنهم كانوا يضربون بأعقاب السيوف على الأواني المعدنية محدثين ضجةً وجلبةً كبيرة معتقدين أنها خير إعانة للقمر ليحصل على حريته ، وعندما كانت الأرض تكملُ دورانها كان القمر يعود سيرته الأولى شيئاً فشيئاً ، فيعتبرون أن قرعهم على الأواني هو الذي خلّص القمر من سجنه ، كالديكِ المغرور الذي يعتبر أنّ الصباح لا

يأتي إلا بعد أن يأذن صوته!

ولا أحد يعرف ما علاقة الحوت الذي يعيش في الماء بالقمر الذي يجوبُ الفضاء، ولكنَّ الناس في العراق والشام بعد أن أعيتهم عقولهم في تفسير ظاهرة الخسوف، قالوا أنه يقع نتيجة ابتلاع الحوت للقمر، وساروا في تخليصه سيرة العرب في الجاهلية، فكانوا يقرعون الطبول، ويضربوا على الأواني ليتحرر!

وليست الأمم الأخرى في أساطيرها أحسن حالاً من الفراعنة والعرب، فالإغريقُ أكثر الأمم أساطيراً، وأساطيرهم على متعتها التي أعترفُ بها لكِ ولا أجد حرجاً في هذا، إلا أنها نشأت من ذات المصدر الذي نشأت منه أساطير الفراعنة والعرب، وهي جهل الإنسان!

خذي عندكِ مثلاً أسطورة التوأمين روميلوس وريموس اللذين ألقاهما خالهما عند ضفة النّهر ليموتا مخافة أن يكبرا ويسلباه حكمه، فعثرت عليهما ذئبة، وأخذتهما إلى كهفها وأرضعتهما حتى اشتدَّ عودهما وصارا رجلين وانتقما من خالهما!

وما هذه الأسطورة إلا محاولة غير منطقية لتبرير لماذا يمكن لإنسان أن يكون أقوى جسداً من غيره!

وأنا هُنا إذ أُكَذِّبُ الأساطير التي نشأت لتفسير ظواهر طبيعية فلا أكذِّبُ الأساطير كلها، بعض الأساطير التي

تعرفينها لها أصلٌ تاريخيّ ، وقد تكون حكاية صغيرة حدثتْ بالفعل ، ولكن الناس أثناء تداولها لقرون من الزمن زادوا فيها أشياء تجعل من العسير تصديقها ، ولكن هذا لا يعني أن نُكذِّب الأصل الحقيقي الذي نشأت عنه هذه الأسطورة المبالغ فيها ، فعلى سبيل المثال يثبتُ التاريخ أن الحروب استعرت قديماً بين إسبارطة وطروادة ، وأنهما تلاقتا بالسيوف أكثر من مرة ، ويقول علم الأحافير أنهم عثروا على أنقاض مدينة طروادة ، فإذا ما كانت طروادة موجودة حقيقة ، وإسبارطة كذلك ، والأسباب لاندلاع الحروب بينهما ممكنة ، فلا يمنع أن نصدِّق أن أسطورة طروادة فيها شيء من الحقائق ، والتعامل معها على أنها نصّ تاريخي فيه كثير من المتعة لا على أنها نصّ دينيّ مقدس ليس فيه إلا الحقيقة!

أتمنى أن لا أكون فجعتكِ بأساطيركِ!

أعرفُ أنكِ لا تستسلمين بسهولة وقد تكابرين ، فأنتِ لا تتخلين بسهولة عما تؤمنين به!

فإن لم أكن قد فجعتكُ بأساطيرك فدعيني أفجعكِ بأسطورتي!

أسطورة رجل الكهف واكتشافه الحب أنا ألفتها لكِ!

أرأيتِ يا أسماء . .من السهل تأليف الأساطير!

ونلتقي خلسةً عن عيون هذه المدينة التي لا يخفى عليها شيء!

قلتُ لكِ يومها : منذُ أيام وأنا أفكّرُ في كلامكَ « يجب أن نضعَ حدّاً لهذه الحكاية قبل أنْ يضع الآخرون حدّاً لها»

ثقـي يا أسمـاء أني أريدكِ زوجةً لي كما تريدينني زوجاً لكِ

أريدُ أن نضع حـدّاً ليس لأني أخـافُ عليكِ من أبيكِ أن يكون مسكوناً بعادة أجداده الذين لم يكونوا يزوّجون بناتهم من أحبائهنّ لأنهم عدّوا ذلك عاراً

ولا لأننا في مدينةٍ تلوكُ لحومَ النّاس بلا رحمةٍ فلا ينجو من الغيبة أحد

بل لأني أريدكِ حقاً ولأني تعبتُ من دونك

لأنّي أريد أن آخذكِ إلى صدري لتنامي فأشعرُ أن القطعة النّاقصة في صدري قد اكتملتْ برأسكِ

لأني أريدُ أن تغطيني بشعرك لأنام . . .

أريدُ لأحدٍ أن يحرسني ، سئمتُ وأنا أحرس النّاس!

– بعد أن أُصبحَ زوجةً لكَ هل ستحبني كما تفعل الآن يا حمزة ، أم أن حبكَ لي سيتحول إلى عادة تفقدُ طعمها مع الوقت ، كما يحدث مع معظم الأزواج الذين يتحولون إلى مجرد غرباء يعيشون تحت سقف واحد؟!

– سأحبكِ دوماً يا أسماء

لا أريدُ أن أتزوجكِ لأضعَ نهـايةً للحبِّ وإنما لأضع بداية جديدة له!

لأحبكِ دون أن أخاف أن يؤذيكِ حبّي هذا
لأحبكِ دون تأنيب ضمير
لا تصدقي أولئكِ الذين يقولون : الزّواج مقبرة الحُبّ!
الزّواج ميلاد الحُبّ يا أسماء

– أنا لا أصـدّقُ أحداً سـواكَ يا حـمـزة . لكنـي أخـشـى أن أفقد هذا الدفء الذي أراه في عينيكَ كلما التقينا ، أخشى أن أفقـده لا لأني لا أثق بصـدق حبكَ ، ولكن لأني أشـعـرُ حين يغمرني أن البرد لم يمسني يوماً ، ولأني أحبكَ كثيراً ينتابني ما ينتـاب النسـاء من هواجس الفـقـد . لأنكَ أمنيـتي في هذا العالم ، ولأنكَ حين جئتَ قتلت كل مخاوفي عدا خوفي من فقدكَ .

– هذا شـعور طبيـعيّ يا أسـمـاء ، يخشى النّاسُ أن يصبحَ الحُبُّ اعـتيـاداً إذا صـارَ زواجاً ، ولكن لا أعـرفُ لماذا لا ينظرون إلى الأمـر من زاوية أخرى ، لماذا يعتـبرون أن الحبّ إذا انتـهى بالزواج كأنه دخل في نفق مظلم أغلب الظن أنه لن ينجو منه ، لماذا لا ننظر إلى الأمر من زاوية أنه أخذ شكلاً آخر فقط ، صار مـتـاحـاً في كلّ لحظة ، أنا أرى الأمـر رفـاهيـة وليس اغـتـيـالاً للحب .

صحيح أن الأشياء تفقد بريقها بحكم العادة ولكن هناك

دفء في التعامل إذا انتبهنا له قتلنا برد العادة!

- يقول ليو تولستوي : أن حب الرجل ينقلب إلى أنقاضٍ متى اطمأنَّ إلى حب المرأة . . فهل تقتل الطمأنينة الحب ياحمزة؟

حين أفكر في الأمر أجد أني بحاجة للطمأنينة لأحبكَ أكثر ، لأمنحكَ دون قيود ، ولأتحررَ من الخوف المحيط بي والذي يحول بيني وبين شرح مشاعري لك بكل الطرق والأشكال ، أنا أظن أن الطمأنينة لازمة في الحب ، فهل هذا يعني أنها لازمة للمرأة فقط دون الرجل؟

هل تظن أن الرجل الذي يسعى بكل الوسائل للقاء حبيبته قبل الزواج ، سيسعى بعد زواجه منها للهرب بكل الوسائل أيضاً؟

- هذا متوقف على نظرة الرّجل للزّواج أو للزوجة!

بعض الرّجال يرون الزواج قيداً والزوجة سجناً لأنه يصعبُ عليهم التخلي عن حرية العزوبية ،

أنا أرى أنّ لكل مرحلة من مراحل الحياة خصوصيتها . على المرء أن يفهم هذه المرحلة قبل أن يُقدم عليها . وليس الرجل من يفقد شيئاً من حريته بالزّواج ، المرأة أيضاً تفقد كثيراً من حرّيتها وخصوصيتها التي كانت ترفل بها قبل الزّواج

وأنا لا أراكِ قيداً يا أسماء ، ولا أرى الحياة معكِ سجناً ، أنا أريدكِ لأتحرر!

وإن كنتُ سأفقد شيئاً من حرّيتي بالزواج بكِ فما سأفقده سأتنازلُ عنه بملء إرادتي لأني سأحصل على أشياء ألذّ منها!

المسؤولية قيد ولكننا لا شيء دون مسؤوليات ، وصدقيني حين أقول لكِ أن قيمتنا في هذه الحياة تأتي من قيمة المسؤولية التي نحملها

- أظنُّ أنَّ الكثير من الأخطاء التي نرتكبها تأتي من فكرة التعميم ، حين نجعل كل النساء تحت صفة واحدة شائعة ، وكل الرجال كذلك . إنّ الأقوال العامة تلقى رواجاً عند الأغلبية الساحقة من الناس ، فتنتشر بينهم لتصبح قواعد ثابتة يتبعها الناس دون تفكير .

أنا أؤمن بالاختلاف أكثر من التشابه ، أؤمن أيضاً بأن الزّواج يتوقف على الزوجين أنفسهم ، في نجاحه أو فشله ، في رفاهيته أو جحيمه!

الزواج فكرة قد تكون صائبة أو خاطئة بناءً على طريقة تطبيقها ، فالمسؤول عن النتائج غير المرضية لكثير من الزيجات ليس الزّواج نفسه بل الأزواج . . أو مدى الانسجام والتآلف الروحي بينهما . فقد يتزوج شخصان كلاهما جيد ولكن وجودهما مع بعضهما سيء ، وقد يكون أحدهما سيء أو كلاهما وينجح زواجهما .

لا أعرف إن كان التّشابه أو الاختلاف هو ما يساعد روح الزّواج على البقاء حية ، ولكن تفاهم الأرواح ، وقدرة الطرفين

على ملء فراغات بعضهما ، أو الفراغات بينهما ، وانسجامهما تبدو لي ضرورة للاستمرار .

- كلامكِ جميل يا أسماء

وفيه ثلاث أفكار جديرة لتكون محطَ نقاش

الأولى : أنَّ كثيراً من الأفكار السلبية التي يتلقاها العُزَّاب عن الزَّواج يزرعها في رؤوسهم المتزوّجون! لهذا لو كان لي نصيحة أوجهها لمقبل على زواج لقلتُ له لا تستمع لنصائح المتزوّجين! درجنا على سماع أشياء سيئة عن الزَّواج حتى الأزواج السعداء يبوحون بالعكس ، أترانا نخاف من العين! حينما نقدم على تجربة الزواج مسلحين بالأفكار السلبية عنه لن تكون تجربتنا فيه ناجحة ، تخيلي رجلاً شبَّ على أن الزوجة ماكرة ، ولا تنصاع إلا بالقوة ، سينمو في داخله جلاد وهو لا يدري ، وبلحظة ارتباطه سيخرجه إلى العلن ، وسيحلل أي تصرف خاطىء من الزوجة تبعاً لما سمعه!

والمرأة التي كبرت وهي تسمع من الزَّوجات أن الأزواج لا يُحتملون ، زرعنا في ذهنها أنها مقبلة على العيش في قفصٍ مع وحش ، لا في بيتٍ مع رجل!

الفكرة الثانية أنه لا أحد يحاول أن يثبت عكس ما سمعه ، لا الزوج يحاول أن يعطي فرصة لزوجته لتكون مختلفة ، ولا الزوجة تعطي فرصة لزوجها ليكون مختلفاً! إننا نمثّل على خشبة الزواج الأدوار التي رسموها لنا سلفاً! لهذا

تتشابه العلاقات الزوجية ، وتُستنسخ التجارب ، حتى ولو حاول زوجان أن يكونا مختلفين ينظرُ إليهما الآخرون بريبة ، فالزوج الحنون عند الناس مسحور ، والزوجة المطيعة عند الناس ضعيفة الشخصية!

أما الفكرة الثالثة فكأنك تسألينى : أيجبُ أن يتشابه الزوجان

فأجيبكِ ليس شرطاً أن يذوب كلّ واحدٍ منهما في الآخر ليكون الزواج ناجحاً ، أحيانا نحن نحتاج لمن يختلفُ عنا أكثر من حاجتنا لمن يشبهنا! طبعاً أنا لا أعني أن لا يتفق الزوجان في القناعات والمبادىء ، هذه أشياء إذا اختلفت صار الزواج متعباً ، ولكني أقول أنه يمكن لكل منهما أن يحتفظ بخصوصيته ، يمارس هواياته ويقوم بأشيائه ، لماذا على الزوج أن يُجبر زوجته أن تُحبَ كرة القدم ، ولماذا على الزوجة أن تُجبر زوجها أن يهتم بالأزياء؟!

ما المانع أن تتفهم الزّوجة أن هذه هواية الزّوج وأن ممارستها تريحه وتجعله أكثر اقبالا على الحياة وبالتالي عليها ، وأن يتفهم الزّوج أن هذه هي هواية زوجته ، وأنه إذا أظهر لها شيئا من الاهتمام ولو كان مصطنعاً فسيعود هذا عليه حتماً!

- هذا ما أظنه أيضاً ، فالاختلاف والتشابه ليسا قاعدة ، وتفاعل الصفات في الشخصيات مع بعضها قد ينتج عطراً وقد ينتج حريقاً ، ولا بد من الاختلاف الذي يقابله التفهم من كلا

الطرفين قدر المستطاع ، وأظن أننا حين نحب ستبدو لنا كل صفة في الطرف الآخر محط إعجاب ، وإن لم يكن الإعجاب فالاحتواء والتفهم ، العلاقات المثالية لا مكان لها في المجتمعات البشرية ، لأننا جميعاً قاصرون من جهة ما .

لكن ثمة أشياء تكبر في الإنسان دون أن يكون له يدٌ فيها ، يزرعها نموذج الزّواج الأول الذي كبر فيه! من تجربتي الشخصية يا حمزة كان زواج والديّ كارثياً بما لهذه الكلمة من معنى .

لم يمضِ يوم دون أن يتشاجر أمي وأبي على أتفه الأمور وأقلها أهمية ، ودون أن يخبرانا أنّ سبب بقائهما الوحيد مع بعضهما هو نحن .

ففي حين كانا يشعران أن وجودهما مع بعضهما تضحية ، كنا نشعر أن وجودنا في الحياة ذنب!

لذلك كبرتُ وشعور الذنب في داخلي يكبر معي تجاه كل شيء في الحياة ، وكنتُ ألوم نفسي على كلّ ما يحدث في هذا العالم كأني المسؤولة الوحيدة عنه .

وفي حين كان حلم النساء في عمري هو الزّواج ، كان الزواج في نظري مجرد كابوس .

لم تتحسن صورة الزواج بالنسبة لي إلا حين عرفتكَ ، وكان سبيلي الوحيد للاجتماع بكَ .

لم يكونا قادرين أبداً على احتمال بعضهما ، كان التفاهم

والفهم بينهما صفراً ، لذلك كل اللحظات العائلية السعيدة التي أذكرها كانت أثناء غياب أحدهما عن اللحظة ، ومع هذا استمرا .

إنني أتساءلُ عن كون الهدف من الزّواج أو المقياس لنجاحه هو مجرد الاستمرار ، بغض النظر عن كارثية هذا الاستمرار؟

شعرتُ وقتها أنّ كل شيء بي يريدُ أن يضمكِ!

أردتُ أن آخذكِ إلى صدري بقوة ، كأنّي أعصركِ لتخرج هذه الذكريات القاسية من رأسكِ!

ولو أنّي تجرأتُ وفعلتُ لكنتُ قلتُ لكِ : أعدكِ أنكِ لن تجدي فيّ من شخصيّة أبيكِ إلا حنانه عليكِ .

ولكنّي استجمعتُ قواي ، ولا أعرف كيف منعتُ نفسي من ضمكِ ، لأنها كانت المرة الأولى التي أرى عينيكِ تفيضان بالدمع وتكابران كي لا تبكيا .

فقلتُ لكِ : أنا على عكسكِ تماماً لا أذكرُ كثيراً عن زواج أبي وأمي ، كنتُ صغيراً عندما ماتت ، وكبرتُ وأنا أعتقد أن جدّتي هي أمي ، ولكن جاءت اللحظة التي شعرتُ فيها باليتم رغم أنّ جدتي كانتْ لنا أمّاً ، وكان أبي يذكر أميّ بخير ، ولكني كنتُ أصغر سنّاً من أن أُفسّر لماذا لم يتزوّج بعد وفاتها ، وعندما كبرتُ وصرتُ صديقه عرفتُ أنها كانت في عينيه كلّ

النساء ، وأنه يوم دفنها دفن كلّ نساء الأرض معها!

ولكن وصلاً لما انقطع ، تحديداً عند زواج أبيك وأمكِ ، لا أعرفُ ما الوضع المثاليّ في حالة كهذه ، أحياناً أرى في الأمر تضحية وإيثاراً ، يضحّي الزوج بحقه في الحصول على حياة زوجية هانئة كي لا يدفع أولاده ثمن فشله في تجربته ، وتضحي الزوجة بحقها في الحصول على الحنان والأمان وتحتمل رجلاً أقرب ما يكون إلى الجلاد لتبقى تضم أولادها تحت جناحيها كما تفعل الدجاجة بفراخها .

ولكن أحياناً أُفكّر بالأمر من زاوية أخرى ، وهي أن الأولاد يدفعون الثمن الأكبر لاستمرار زواج كهذا ، فأن يتربى الأولاد مع أحد الأبوين ، حياة يسودها الاحترام والمحبة ، أفضل من أن يعيشا في كنف أب وأم في جو موتور لا يدمر حاضرهم فقط ، وإنما يدمر مستقبلهم أيضاً .

من قسوة الزوج على زوجته يكبر الولد معتقداً أنّ هذه هي الطريقة الأمثل لتطويع الزوجة ، وتكبر البنت معتقدة أن الزوج جلاد!

ومن فظاظة الزوجة مع زوجها ، يكبر الولد معتقداً أن الزوجات ظالمات ، وتكبر البنت معتقدة أنّ طريقة أمها في التعامل مع أبيها هي الطريقة التي عليها أن تتعامل بها مع زوجها في المستقبل .

إننا بهذا نحفظ أجسادهم أن تبقى معاً ، ولكننا ندمّر

نفسياتهم ونحشوهم بالمعتقدات والأفكار المريضة ، ومن النادر أن يشذَّ ولد عن شخصية أبيه وأن تشذَّ بنت عن شخصية أمها!

كنتِ تبدين شاردة رغم كل محاولاتكِ لعدم إبداء مشاعرك تجاه الأمر ، وكأنك أردتِ الحديث عن الفكرة وحسب ، متجنبة الخوض في شرح شعوركِ تجاه التجربة ، أو جعل ذكرياتكِ تبدو على ملامح وجهكِ ، ولكنكِ لم تنجحي في تمثيل دور اللامبالية ، ربما لأنكِ شفافة أكثر مما يجب ، وربما لأني أصبحتُ أعرفكِ حتى أكثر من نفسك ، قلتِ وأنت تهزين كتفيكِ كمن يحاول أن يتخلص من عبء يثقلهما :

- أعتقد أننا لا نشبه آباءنا وأمهاتنا إلا حين نعجب بهم ، فنتخذهم قدوة ، أما حين نخافهم ، أو يزعجنا جانبٌ فيهم ، فإننا سنسعى جاهدين للتخلص من تلك الصورة التي تنمو في داخلنا تجاههم ، أن نتخلص من الصفات التي لا تعجبنا فيهم ، ونشذِّب فكرتنا عنهم ، بحيث لا يبقى في خواطرنا إلا ما نحبه منهم ، تماماً كما نقصُّ الجزء الذي لا يعجبنا من صورة ما ، ستظهر ناقصة حينها ، ولكنها خالية مما يحزننا ، إن الأثر الذي تركته خلافاتهما بنا ليس استنساخ تصرفاتهما تجاه بعضهما ، بل تدمير فكرة العلاقات بالنسبة لنا ، أو تشويهها ، كان علينا أن نجابه قلّة فهمنا للحبّ ، من خلال البحث عنه في أنفسنا ، دون أن نفترض وجوده في الآخرين ، وهذا أفقدنا الكثير من التوازن في مشاعرنا ، وأظهر فجوة مرعبة بين ما نشعر به بالفطرة

وما نشأنا عليه بالتربية ، فكبر بعضنا بعاطفة طاغية ، وكبر بعضنا الآخر بعاطفة جافة ، لم يكن لدينا القابلية لتصديق أن ثمة أطراف قد تحب بعضها بشكل متبادل ، وحين كنا نشعر بالحبّ كنا نجد صعوبة في إظهاره أو الإفصاح عنه ، لأنه كان شيئاً غريباً لم نعتد عليه .

- لكنكِ كتلة من الحبّ والحنان يا أسماء ، قلبكِ جميل إلى الحدّ الذي لا يمكن أن تنجح أيّ تجربة في تشويهه ، وروحك مرنة ، سرعان ما تعود إلى طبيعتها إن طالها ضرر ، إن العلاقات الإنسانية يا أسماء من التعقيد بحيث أننا نعجز عن فهمها ، حتى أبسط العلاقات قد تتعقد في وقتٍ ما لدرجة أننا لا نستطيع أن نخرج منها إلا متضررين ، وبرأيي أن فقدان الحوار في أيّ علاقة يعدُّ عاملاً هاماً لدخولها في دوامة اللا فهم ، ومن ثم التباعد ، لذلك حين يحدث التصادم في موقف لاحق فإن ردود الفعل من الطرفين لا تكون بناءً على الموقف نفسه ، بل على مواقف سابقة لم يتم التحدث عنها ، فيزول الموقف ويبقى أثره ، علينا أن نعرف متى يجب أن نصمت ، ومتى يجب أن نتحدث ، الكلمات قد تحدث بنا جراحاً أسوأ مما تحدثه السكاكين ، فالجرح الذي يحدثه السكين يزول حين يلتئم ، لكن جراح الكلمات متجددة تجددها في الذاكرة ، والغضب أكثر الدوافع التي نستبيح من خلالها قلوب الآخرين ، لذلك قيل دوماً : من ينهض بغضبٍ سيجلسُ بندامة .

- إذن عدني يا حمزة أن لا تتوقف عن الكلام معي ، ولا تجعل للبرد مكاناً بيني وبينك ، عدني أننا لن نكون شخصين ملين يتشاغلان حتى لا يلتقيان ، عدني أنك ستخبرني عن تصرفاتي التي لا تحبها ، وأن تستمع إليّ حين أخبركَ عن تصرف منك ضايقني ، عدني أنك لن تتوقف عن النظر إليّ ، والاهتمام بي ، وأن لا نسمح للخصام أن يطول بيننا أكثر ساعات .

ضممتُ يديكِ بين يديّ وقلت لكِ بثقة :

-أعدكِ وأعدُ نفسي أننا سنحبّ بعضنا من أول العمر إلى آخره ، وسنعيش معاً بالطريقة التي تشبهنا ، ولن نكون نسخة لأي علاقة جيدة كانت أو سيئة ، سأحبكِ يا أسماء كأن الحبّ خُلق لأجلكِ ، وسأحبك بمقدارٍ يتسع لأضعاف عمرنا ، وأعرف أنكِ ستفعلين .

كنتُ أراقبُ نار القلق في عينيكِ وهي تنطفئ شيئاً فشيئاً مع كل كلمة أنطقها ، كنتُ أتلذذ بالأمان الذي أسكبه في روحكِ ، وكأني أضمكِ في شدة خوفكِ ، وأدثركِ في قمة بردكِ ، فيعمُّ الدفء قلبي ، لأنكِ قلبي . ثم أضفتُ مؤكداً :

- سنكون سعداء ، عليكِ أن تنظري لعينيك لتفهمي أنها سبب وجيه لسعادتي .

- من الجيد أنك رأيتني ذلك النهار عند البائع المتجول ، من الجيد أنكَ لحقت بي ، من الجيد أني عرفتكَ .

قلتُ مبتسماً :

- من غير الجيد أنكِ كسرتِ قلبي يومها .

استغرقتِ في الضحك ، وكان هذا هدفي من تلك الدعابة ، أردتُ لعينيك أن تستعيد بريقها الذي أحبُ ، نظرتِ إليّ بعدها متأملة ، ثم قلتِ وكأنكِ تفكرين بصوتٍ مرتفع :

- هل تعتقد ياحمزة أن هناك زواج سعيد أو حتى حياة سعيدة ، عندما يتركز الحديث عن السعادة في الزواج وتوضع النصائح لهذا الغرض ، وتُكثف الدروس التي تعلّم المرأة أو الرجل طرق الحصول على زواج سعيد ، ترسخ في الأذهان فكرة نمطية تجسّد الزواج كرحلة أو نزهةٍ الغرض منها الحصول على السعادة وحسب ، برأيي أن الخطأ يكمن هنا ، أن نجعل الأمر محصوراً في السعادة وحدها ، بينما الزواج كالحياة فيه المر وفيه الحلو ، والسعادة التي يصبو إليها الأغلبية ما هي إلا لحظات وفي الغالب تجيء دون خطط مسبقة ، الزواج هو الحياة ولكن برفقة شخصٍ آخر ، وعلينا أن ندرك أن النصائح التي قد تساعد في بناء بيت هي نفسها قد تتسبب في هدم آخر ، لسبب بسيط هو أن حياة كل إنسان تختلف عن الآخر ، وشركاء الحياة يختلفون كذلك أحدهم عن الآخر ، فالمضي على درب النصائح لا يوصل دائماً إلى نفس النتيجة ، وكي تعيش مع شخص عليك أن تتعرف عليه وتعامله بناء على معرفتك أنت به ، وعلى شعورك أنت تجاهه ، لا أن تعامله كما يفترض أن يعامل

الأزواج بعضهم في كاتلوج النصائح ، إنني حين أفكر بك يا حمزة لا أتخيل أن نصيحة في هذا العالم ستكون أجدى من شعوري تجاهك ، إنني أراك فريداً لا يشبهك أحد ، ولا يمكنني أن أكون الزوجة التي تبحث عن خطة من أجل حياة زوجية سعيدة معك ، أنا أكتفي بوجودك لأسعد حتى في قمة حزني ، لا أحد يمكن أن يعرفك أكثر مني لينصحني فيك ، ولا أحد يعرف طرقات قلبك أفضل مني ليهديني خارطة الوصول إليك ، ولا أنا قادرة أن أكون معك غير نفسي ، ولا أريد أن تكون معي غير نفسك ، هذه التي أحببتها كما هي دون أن أغيّر فيها أي شيء لتتوافق مع فكرة سابقة لديّ ، وسأحبك دائماً وسأسعدك دائماً دون أن أضطرك للبحث في النصائح عن ما يرشدك للتعامل معي ، حتى وإن أحزنتك أو أحزنتني يوماً ، يكفي أن تنظر إلي بهاتين العينين ليذوب كل ما عداك في قلبي .

قلتُ لكِ وقد أمسكتُ يدكِ فشعرتُ أني أمسكُ روحي :

- لا يوجد وصفة سحريّة للسعادة الزّوجية يا أسماء ، وإني وإن قلتُ لك آنفاً أني ضد الاستماع لنصائح المتزوّجين لأنها سوداوية في الغالب ، إلا أن ثمة نصائح لا يمكن تجاهلها ، حتى المشاكل التي تحصل بين زوجين ، لو نظرنا في أسباب نشوئها لاستطعنا تجنبها إذا نحّينا أسبابها!

قالت جدّتي توصي أختي قبل أن تُزفّ إلى زوجها :

البيوت أسرارا! لا تفشي سرّ زوجكِ لأحد حتى إلينا ، لأننا لو تحزّبنا لكِ بعد أن جئتِ شاكية فسنخسر علاقتنا بزوجكِ بعد أن تتراضيا ، لتكن حياتكما لكما . . . وبنت الأصل ، لزوجها ستر وغطاء!

ما أجملها من نصيحة يا أسماء

- جميلة يا حمزة ، أتعرف أنني أحببتُ جدتك من حديثكَ الدائم عنها؟ في الحقيقة أنا أحبُّ كل من له علاقة بكَ ، كأني بهذا أحبكَ من جذورك ، كأن قلبي يتسع كل يوم ليكون لائقاً بك ، ولا يضيقُ بشيء يخصك . ثم أضفتِ بعد دقيقة صمت : لاحظتُ من كلامك أنك تعتقد أن أغلب علاقات الزواج تعيسة ، أليس كذلك؟

- ليس بالضبط يا أسماء ، ولا أعرف إن كانت لفظة «أعتقد» لفظة مناسبة ، أنا أنقل لكِ ما أراه ،

وصدقيني أغلب علاقات الزواج التي شاهدتها عن قرب كانت تملكُ من أسباب الانفصال أكثر مما تملك من أسباب الاستمرار ، ولكن ثمّة شيء اسمه التعايش يا أسماء!

- ماذا تقصد بالتعايش؟

- لا أعرف كلمة واحدة تصلح أن تكون مرادفاً للتعايش ، ولكن لأُقرّب لكِ الفكرة هي أشبه بالتكيف أو الاعتياد . . . شيء يشبه استسلام صاحب المرض لمرضه بحيث يألفه!

يعرف أنه ليس باليد أن يتخلص منه ، وبالمقابل يعرف أنه

لا يمكنه أن يترك نفسه إليه فيحاول أن يتكيف ويتعايش معه ، يبتعد قدر الامكان عما يجعل مناعته أضعف ومرضه أقوى!

الكثير من البيوت التي تشاهدينها يا اسماء قائمة على التعايش لا على الحب!

رجل ابتليَ بامرأة ، أو امرأة ابتليت برجل ، ثم قرر هذا المبتلى أن يتعايش ، والأنكى من هذا أن الطرف الآخر يعتقد نفسه أنه يتعايش أيضاً! بل وقد تجدينه هو الذي يسعى للاطاحة بالزواج رغم محاولة المبتلى التعايش ، فيصدق عليه مثل جدتي التي تحبينها : «رضينا بالبين والبين ما رضي فينا»!

بعد أن بادلتني الابتسام قلتِ وأنت تهزين رأسكِ موافقة :

- فهمتُ ، ولكن ما لم أفهمه هو ما الذي يجبر إنساناً على الحياة مع آخر لا يريده؟

فكرة التعايش يمكن أن تكون صالحة للتطبيق في الخارج ، في المجتمع حيث يكون الإنسان مضطراً لا مختاراً أن يحتك بمختلف أفراده ممن لا يوافقهم ، ولكن في بيته! المكان الذي يفترض أن يكون كل ما فيه من اختياره هو ، يفترض أن لا يكون فيه مجبراً على ما لا طاقة له به .

أظن أننا أحياناً نضيّق على أنفسنا من حيث أن لها سعة .

- الحياة يا أسماء تضعنا أحيانا أمام خيارات أحلاها مرّ!

لماذا علينا أن نثقب باطن الأرض كلّ يوم لنعيش؟!

تخيلي أن البعض يحفرون بحثاً عن الآثار وعن حياة

سابقة ونحن نحفر بحثاً عن حياة حاضرة!

كثيرات يبقينَ مع ازواجهنَّ لأنّ لا مكان آخر يذهبن إليه!

- ربما كان بعضهن مضطراً، وبعضهن الآخر يظن أنه مضطر، إن رهبة الإقدام هي ما تجعل الأمر صعباً والتهويل الحاصل حول فكرة الطلاق، يجعل كلاً من المرأة أو الرجل يظنّ أن الإقدام على الطلاق ذنباً منه، لا حقاً له. بينما نص القرآن الصريح يخبرنا أنها ليست نهاية الطريق.. «وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته».

- هل أعتبر كلامكِ هذا تهديداً

- كلا، هي فقط نظرة منطقية للأمر، لأني يا حمزة لا أتعايش معك، ولا أعيش معك مجبرة، أنا لا أعيشُ من دونكَ.. ما أردتُ قوله هو أنه لا يوجد شخصٌ ضعيف بل يوجد شخصٌ مستسلم، إن الضعف مسموح لنا فقط أمام من نحب، وكل ما عدا ذلك هو إهمال منا لجوانب قوتنا، فالبعض يطيب لهم دور الضحية لأنهم يخشون المواجهة، أو يعتادون العذاب، يجعلون من الظروف دروعاً يخبئون خلفها خوفهم من التغيير، ذلك أن العادة أقوى عدو للإرادة، إن الإنسان أسيرُ ما اعتاد عليه، يخشى أن يقدم على ما يكسر روتينه، حتى ولو كان هذا الروتين يكسره بشكل يومي. أنت مقاوم، تصنع من أسوأ الظروف مساراً لك في هذه الحياة، لذلك يجب أن تكون أفضل من يفهم كلامي هذا، إذا أردنا فإن كل شيء ممكن.

كنتُ أستمع إليكِ وأستمتع بتأملكِ في آن معاً ، أحبكِ حين تتحدثين بجدية بالغة عما تؤمنين به ، وتتفانين في إثبات ذلك دون توقف ، وكأنكِ بهذا تعيشين حلمكِ الصغير بممارسة مهنة المحاماة ، تدافعين عن آرائكِ بشراسة ، ولا تُنزلين أشرعتكِ مهما كانت الرياح التي تعاكس مساركِ عاتية ، كلما عرفتكِ أدركتُ كم أنتِ قوية ، ومقاومة ، لا تتطلب المقاومة سلاحاً فقط ، إنها تتطلب روحاً كروحكِ يا أسماء ، روحاً تأنف الظلم وتأباه في صغائر الأمور قبل كبائرها ، كنتِ تحفرين في داخلي أنفاقاً وتفتحين طرقاً جديدة ، بكلماتك البسيطة والهادئة كنتِ تبعثين النور بداخلي ، ولا تقفين أبداً أمام أي عائق ، تظلين تحفرين بذلك الإصرار الصامت الذي لا يُحدث الكثير من الجلبة ، ولكنه يصنع الكثير من الممرات ، أحب أن أبقى قريباً منكِ ، أن أتركُ عقلي وقلبي لكِ ، وأنصت فقط لصوتكِ مهما كان ما تقولين ، لذلك كان كل ما علّقتُ به على حديثكِ الأخير هو كلمة : أفهمكِ

وابتسمت كأني أرفع الراية البيضاء أمام جيش السواد الذي يهزمني في عينيكِ .

ولكني سألتكِ بعدها بشكل مباغت : هل تجدين في هذا الرجل المسالم ، العاشق ، المحب ، الطيب ، زوجاً يليق بكِ؟

نظرتِ إليّ وأنت تقاومين ضحكتك ، كعادتك حين تحاولين إحاطة نفسك بهالة من الكبرياء ثم قلتِ : هذا عرض

أم سؤال؟

اقتربت منكِ وهمستُ : عرض وسؤال ورجاء وأمنية .

قلتِ لي وقد غلبتكِ ابتسامتك : عليكَ أن تسأل أبي عن ذلك .

- هل هذا يعني أني مؤهل لطلبك؟

- أنت مؤهل لاحتلالي!

- أنا مسالم جداً معكِ لذا لا يصح أن تطلقي عليّ لقب محتل .

- المسالمون لا يحصلون على شيء .

- لكني حصلت عليكِ!

- لأنك مقاوم .

- لأني عاشق .

- لا عشق دون مقاومة ، حين تعشق ستقاوم على جبهتين ؛ نفسك ، والعالم من حولك .

- تزوجيني وأعدكِ أن أقاوم حتى الهواء .

- سأفعل .

- تفعلين ماذا؟

- سأتزوجك .

قلبي بين يديك ، تشكلينه كما تشائين ، تارة كنتِ تجعلينه ناعماً ومشتاقاً كوسادة تنتظر رأسكِ ، وتارة تجعلينه موقد حطب يحترق ليبعث الدفء فيكِ ، في الحالتين كنتُ سعيداً ، يكفي

أن تكوني لأسعد ، في داخلي كنتُ أؤمن أنكِ امرأتي ، امرأة عمري ، فبعض النساء حين نقابلهن نعرف أنهن لسن نساءً لمرحلة ، لا يجئن ليمهدن الطريق لمن بعدهن ، لسن مجرد شغف لحظي بين رجل وامرأة ، بعض النساء يا أسماء يبعثن في الروح السكينة وفي القلب الشغف ، يجمعن الماء والنار في ذات الكف دون أن يقتل أحدهما الآخر ، أولئك لا نصادفهن إلا مرةً في العمر إن كنا ذوي حظ ، وقد كان حظي أن صادفتكِ ، كنتِ أنتِ حظي الأكبر والأجمل في هذه الحياة .

مكتبة احمد

أخبرتكِ يا أسماء وأنا في مطلع توثيق حكايتنا وإن شئتِ فقولي جنوننا ، أنَّ في كلِّ كاتبٍ مسٌّ من نوع ما ، ووعدتكِ أن أرجع إليك بالحديث عن هذا ، وها أنا أرجعُ بكِ كما وعدتكِ!

وحين أقول لكِ أنَّ في كلّ كاتب مسّ ، فأنا لا أقصدُ الإساءة ولا التجريح ، بقدر ما أحاول أن أنقل إليكِ فهمي للعملية التي تُنتجُ الكتابة! ولو أردتُ أن أسيء إليهم لحدثتكِ عن شيء آخر يا أسماء ، كالتكسب بالشِّعر ، ولا أعرفُ إن كنتُ أضيفُ جديداً إليكِ إذا أخبرتكِ أن الغالبية العظمى من شعرائنا تكسبوا أو تسوّلوا بشعرهم على أبواب السلاطين! من النابغة الذبياني مفتي سوق عكاظٍ وقاضيها ، إلى المتنبي فارس

القوافي في شعرنا ، وحده عمر بن أبي ربيعة أبى أن يكون مع المتسولين ، وعندما أرسل له عبد الملك بن مروان ليمدحه ، قال عمر لرسول الخليفة : أقرئ أمير المؤمنين السلام ، وقل له : عمر لا يمدح إلا النساء!

وحين أخبرك أن في كلّ كاتب مسّ فأنا لا أتهمهم بالجنون ، على العكس هم في حياتهم العادية قد يكونون أكمل عقلاً منكِ ومني ، ولكن المسَّ هذا حالة تعتريهم ، وهذه الحالة مدتها فترة إنتاج النص الأدبيّ ، نثراً كان أم شعراً ، إنها أشبه بعملية إلهام ، وإن شئتِ سمِّها وحياً ، لا يستطيع أحد أن يفسِّرها حتى الأدباء أنفسهم ، ولكنهم يعرفون في قرارة أنفسهم أنهم لحظة إنتاج النص أشخاص غير الذين يعيشون حياتهم اليومية مع الناس .

مسُّ الأدباء حالة مرضية باعتقادي ولكنه مرض مُنتج ، المعافى في كل أوقاته لا ينتج أدباً!

يدخل الأديب في حالة هلوسة لذيذة ولا يخرج منها إلا وقد فرغ من نصِّه ، ولا أحد يكتبُ وهو واعٍ تمامًا!

خذي عندكِ المتنبي وهو ينشدُ الأبياتَ التي قيل أنَّه ادعى النبوة فيها ، حيثُ يقول :

أنا في أمة تداركها الله
غريبٌ كصالح في ثمودِ
ما مقامي بأرضِ نخلةِ

إلا كمقام المسيح بين اليهودِ

وإنَّ صحَّ ادعاء المتنبي للنبوة في هذه الأبيات أو لم يصح ، إلا أنني أعتقدُ أنه كان لحظة إنتاجه بيتيه هذين في حالة المسِّ التي أخبرتكِ عنها ، لاحظي مدى تضخّمِ الأنا عند المتنبي ، هذه الأنا الصغيرة كما أسماها الشيخ سيغموند فرويد صارت عند المتنبي أضخم من الأنا التي هي المجتمع!

معرفتي بشعر المتنبي تجعلني أنحاز إلى الرأي الذي يقول أنه لم يقصد ادعاء النبوة في هذين البيتين ، المتنبي أعقل من هذا بكثير ، ولكنه حين اعترته حالة المس التي تصيب الأدباء ، قال ما قال ، أما لماذا لم يقل غيره مثله ، فهذا عائد إلى أن المسَّ أنواع تماماً كما أنَّ الجنون فنون ، فلكل أديبٍ مسُّه الخاص به ، وهذا المسّ يأتي متوافقاً مع تركيبة الأديب النفسيّة ، والمتنبي كان يعاني من جنون العظمة! يرى نفسه أكبر من الجميع حوله! حتى أنه يعتقد أنه أعظم من الخلفاء الذين يمدحهم ويُظهرهم عظماء! وكان في قصائد مديحه يكبتُ إحساسه بالعظمة لصالح ممدوحيه ، ولكنّه مرّةً فقد السيطرة على عظمته ، فقال في حضرة سيف الدولة :

سيعلمُ الجمعُ ممن ضمَّ مجلسنا

بأنني خيرُ من تسعى به قدمُ

فغضب سيفُ الدولة وقذفه بدواة الحبر فشجَّ جبينه ، عندها أدرك المتنبي أنَّ عظمته انفلتت من عقالها فأصلح الأمر

على الفور وقال له :

إن كان سرَّكم ما قال حاسدنا
فما لجرحٍ إذا أرضاكمُ ألمُ

وإن كان المتنبي موسوساً بالعظمة ، وأفلح في إخفاء عظمته تلك ، فإنَّ عمر بن أبي ربيعة كان موسوساً بالنساء ، ولم يكن قادراً على ممارسة انفصامه كما المتنبي لهذا رفض أن يمدح عبد الملك بن مروان لأجل المال رغم أنه يتغزل بالنساء مجاناً! وإن شئتِ قولي كان يتغزّلُ بنفسه!

وعندما نجد أن لكل شاعر حبيبة عُرف بها وعُرفت به ، فلا نعرف من هي حبيبة عمر ، فتارة هي هند ، وأخرى وعد ، ومرة هي زينب ، فأسماء حبيباته لا تُحصى!

لم يكن ابن أبي ربيعة يُقرضُ شعراً بقدر ما يمارس مسَّاً أدبياً!

وإذا كان النقاد قد درجوا على تصنيف ابن أبي ربيعة شيخاً للغزل الإباحيُ نظراً لتعدد المحبوبات ، فصوروا لنا عمر ورفاقه قوماً من المتهتكين رغم أنَّ شعرهم من حيث المضمون أعفُّ كثيراً من غزل اليوم الذي لا نتهمه بالتهتّك!

لا تفهمي من كلامي أني إذ أعتبر عمر بن أبي ربيعة موسوساً بالنساء فإني أبرّيء جميل بن معمر ورفاقه العذريين من المسِّ ، الأدباء كلهم موسوسون لأيِّ مدرسةٍ انتموا ، ونحن إذ نُصنفهم بين مدرسة وأخرى ، ولون شعريّ وآخر ، إنما

نصنفهم تبعاً لمضمون أشعارهم ، ولكن لو تعمّقنا في حالتهم النفسيّة التي أنتجت النص الأدبيّ لتبيّن لنا أنهم في المسّ سواء!

ومن طريف ما قرأتُ حول الحُبّ العذريّ دراسة لصادق جلال العظم يُبتُ فيها أن الحُبّ العذريّ هو حالة مرضيّة! أتمنى أن لا أكون قد فجعتك بالحُبّ العذري الذي تستعذبين شعره ، كما حدث أن فجعتكُ من قبلُ بالأساطير!

وإن كان صادق جلال العظم قد بالغ أحياناً في آرائه ، وحمّل الأبيات الشعرية فوق ما تحتمل ليُثبت النظرية التي انطلق منها ، إلا أنه خلص لأراءٍ لا يمكن تجاهلها .

فجميل بن معمر على سبيل المثال فعل كل ما بوسعه لعرقلة زواجه ببثينة! محبوبته الوحيدة ، تعرفين أن العربٌ كانوا لا يُزوّجون بناتهم ممن شبب بهنّ أي تغزّل بهن شعراً على الملأ ، وقد كان جميل يعرف هذا جيّداً ، فقد كان عربياً كنخل نجد ، وككثبان الرمل في رمضاء مكة! ولكنه كان متيماً بشعره أكثر من تيمه ببثينة ، كان يعرف أنّ بثينة والشعر لا يجتمعان له ، فإما أن يكتم حبه في قلبه ويتقدم لخطبتها ليوافق أبوها ، فليس في جميل ما يُعاب ، ولكنه آثر الشعر على بثينة ، وبالفعل عندما تقدَّم لخطبتها رفض أبوها للسبب الذي يعرفه جميل وتعرفه معه كلّ العرب!

وجميل ومعه العذريّون كانوا يُحبّون الحُبّ أكثر مما يُحبُّون

حبيباتهم ، فالحُبُّ عندهم ليس وسيلة لعقد رباطٍ مقدس بين رجل وحبيبته ، إنما هو غاية في ذاتها ، على الحُبِّ وكل ما له علاقة به -كالشوق والوجد- أن يستمر ، وفي اللحظة التي ينعقد فيها الزَّواج سيكون العذريّ قد حصل على الحبيبة ولكنه خسر الحُبَّ!

وجميل هذا الذي صوروه لنا عفيفاً مكث على حبيبة واحدة ، والتزم بالتقاليد والأعراف ، ظلَّ يزور بثينة بعدما زوجها أبوها من رجل آخر ، لم يكن جميل يبحثُ عن بثينة بقدر ما كان يبحثُ عن حُبِّ بثينة!

نقطة أخيرة يُثبتُ بها أن الحُبَّ العذريَّ كان حالة مرضية وهي مازوشية العذريين ، وحبهم لتعذيب الذات ، لا يوجد حُبٌّ دون شقاء ، دون مرارة الفقد ، ووجع الاشتياق ، وكانوا يريدون لأمد الحُبِّ أن يطول ليستمروا في تعذيب أنفسهم! وليس أدلّ على هذا من قول جميل :

يموتُ الْهوى مني إذا ما لقِيتُها

ويحيا ، إذا فارقتها ، فيعودُ

ولا تحسبي أن المسَّ ناتج عن الحُبِّ ، وإنما سُقتُ لكِ أمثلة على عشاق موسوسين ، وإلا فالمسُّ ليس له علاقة بالغرض الأدبي وإنما بالأدب نفسه!

ولو أردتُ أن أتوقّفَ لكِ عند كلّ من رأيته ممسوساً لما انتهى الكلام ، ولما نجا منّي أحد! فالحُطيئة كان رجُلاً هجّاءً لم يُفلتْ

من هجائه أحد ، فقد هجا أباه وأمّه ، وعندما لم يجد من يهجوه هجا نفسه ، وأبو نواس كان ممسوساً بالخمر فلا يخرج شعره عنها! ولا تحسبي أنّ هذا في القدماء فحسب ، ولو فتحت لك باب الحداثيين لما انغلق!

وما أحدثكِ عنه من مسٍّ يا أسماء لا آتيك به من فراغ ، لطالما نظر الناس إلى الباعث على الإبداع الأدبي نظرة مريبة ، والناس شرقهم وغربهم في هذا سواء!

فقد أيقن العرب قديماً أن الإنتاج الأدبي ليس في متناول الجميع ، وفشلوا في تفسير ظاهرة الإبداع هذه ، ولأنهم لم يكونوا يعرفون مصطلح الوسوسة أحالوا فرادة القول هذا إلى الجنّ! وما إيمانهم العميق بوادي عبقر إلا اعترافاً منهم أن في الشعراء شيء ليس في الناس! فقد آمنوا أنّ وادي عبقر يسكنه شعراء الجنّ ، واعتقدوا أنّ من أمضى ليلة هناك تلبسّه جنّ شاعر وصار يُلقنه الشعر! لهذا كان لكل شاعر جاهليّ قرين شاعر! وعدهم في هذا حكايا أتركُ لكِ متعة البحث عنها إن أردتِ!

أما الغربيون فعلى حدٍّ علمي تصالحوا مع أنفسهم ، واعترفوا بهذا المسّ منذ فجر الحروف وإن لم يسمعوا باسمه . وكان أفلاطون أول من انتبه إلى هذه النقطة ، عندما قال بأن العباقرة يغضبون بسهولة ويخرجون عن طورهم كأنهم يعيشون خارج الزمن والوجود! وإني لأقسم لكِ أنه لو عرف مصطلح

الانفصام وقتذاك لقاله! أما تلميذه أرسطو فقد انطلق من وجهة نظر معلمه ولكنه ناقش الأمر بشكل فلسفي محكم، فقد تساءل لماذا يبدو جميع الرجال الاستثنائيين من فلاسفة وعلماء وشعراء وفنانين أشخاصاً سوداويين؟!

ولما بزغ فجر علم النفس -مع تحفظاتي الكثيرة عليه كما أخبرتكِ ذات حديث فاتني أن أوثقه- صار بالإمكان تفسير أزمات الهلوسة التي كان يمر بها رامبو وهو يكتب رائعته فصل في الجحيم، وحالات الاكتئاب التي كان يمر بها غوته، والقلق الدائم الذي كان يعانيه كافكا، والمزاجية الغريبة التي كانت تعتري مايكل أنجلو، والميول الانتحارية عند فان غوخ وفرجينا وولف، وعصبية نيتشه، وجنون دو موباسان في سنّ مبكرة، والشيزوفرينا لأنطونان آرتو، والاكتئاب المصاحب لبتهوفن، ونوبات الصرع الملازمة لدوستيوفسكي!

أحسبُ أنني قد أسهبتُ في هذا يا أسماء، وأنّ كلّ ما أردتُ أن أقوله منذ البداية قد قلتُ أكثر منه، والأمرُ إليكِ، تقبلين أو ترفضين، تأخذين بعضاً من كلامي وتتركين آخر، ولكن هذه وجهة نظري، ولطالما كنتُ أحملُ رأياً لا سوطاً!

أتركك الآن ترفلين في حريتكِ وأعودُ أقلبُ نظري في هذه الحجرة الضيقة . أسوأ ما في هذه الزنزانة يا أسماء أنها تفصلني عنك!

أشعر أني عليلٌ بدونكِ! تماماً كصباح لا شمس فيه ، وشتاء بلا مطر ، وكشجرة عاقر لا ثمر فيها ، وكليلة النصف من الشهر دون قمر!

لم يسلبني السجن حريتي رغم أني مقيّد فيه ، ولم يأخذ اتساع حلمي رغم أنه ضيّق جداً ، فقط سلبني وجودكِ لهذا هو الآن عندي أضيق من خرم إبرة!

الشوق إليك يجعل قضبانه سياطاً من نار ، اعتدت على كل شيء إلا على غيابكِ ، يصعبُ عليّ أن أعتاد على صباحٍ لا يشرقُ فيه وجهك ، وعلى ليل لا تقفلين بابه قائلة : حبيبي تصبح على خير!

أنا لا أشكو الزنزانة بقدر ما أشكو غيابكِ ، فلو كنتُ طليقاً ولم تكوني معي سأشعر رغم اتساع المكانِ أني في زنزانة!

سجني الحقيقي هو شوقي إليك!

في السجن يا أسماء يضيق المكان ويتسع الزمان كما يقول السجين الجميل علي عزت بيغوفيتش ، وإذا ما ضاق مكاني هرعتُ إلى زمنكِ!

أعودُ بكِ إلى تلك الأيام حين كنا حديثي عهد بالحبّ ، وكنتُ استمتع بولادتي الجديدة على يديكِ ، وأعيدُ عدّاد العمر

إلى الصفر معكِ، وأقرأ في عينيك كتاب العشق الذي خطَّه الملايين قبلنا، وأعرف كيف يمكن لشرارة صغيرة أن تضرم ناراً كبيرة!

افتعل معكِ شجاراً أحياناً لأني أحبُّ غضبكِ، ولا يمكنكِ لومي في هذا لأنكِ تصبحين فاتنة عندما تغضبين، ولا شيء أحلى منكِ في غضبكِ إلا أنتِ في رضاكِ!

لهذا لم أكن أسمح للغضب أن يقيم فيكِ طويلاً فأراضيكِ!

الأحلام يا أسماء لا تلتفتُ إلى من يقنع بانتظارها، ولا تحفَلُ كثيراً بأولئك الذين يترددون في خطواتهم نحوها، ولا تنظر بعين الاهتمام لمن لا يجد نفسه جديراً بتحقيقها، ولأنكِ حلمي آليتُ ألاّ أنتظر طويلاً لأجعلكِ حقيقتي، لأوثِّق حبي لكِ على الورق، لتكون كل دقائق الحياة وثوانيها موعداً للقائي بكِ، لقد قررتُ الزواج بكِ مذ التقينا أول مرة، لم يسبق قراري هذا الكثير من التفكير، كان يكفي أن أراكِ لأعرف أنكِ كل من أريد، لأن مكانكِ في حياتي كان فارغاً منذ الأزل، منتظراً أن تملئيه بوجودك، وها أنت، تمنحيني ذلك المزيج المدهش من الفرح والخوف في آن معاً، ذلك الخوف الذي يلازم القلوب التي اعتادت الفقد، واعتادت أن يُسلب منها ما تحبه كلما أطمأنت وأَمِنتْ جانب الحياة، لذلك تصبح قلوبنا في حالة

تأهب عندما تضمُّ بداخلها حباً كبيراً كحبي لكِ يا أسماء ، تنام بعين واحدة كالذئب ، وقلب وجل كطريدة ، هكذا هم العشاق يا أسماء ، وجدانهم دائم الاشتعال ، وأرواحهم حطب لمقادير الدنيا ، يُقدِمون على السعادة بخجل العذارى ، بينما هم على الحزن أكثر جرأة وله أكثر توقعاً ، لقد آمنتُ بأنكِ لي ، وأني لكِ ، لكني ما زلتُ كافراً بنوايا الحياة ، التي جعلت دأبها تمزيق كلّ قلبين تحابّا .

كان ذلك المساء قمرياً ، ككل المساءات التي أرى فيها وجهكِ ، كنتُ أستعد ووالدي لزيارتكم ، لطلب يدك!

ترىُ لماذا جُعلت اليد رمزاً لطلب الزواج؟

ألأن أيدينا هي أكثر أعضائنا قدرة على التشبث؟

ألأنها أكثرها قدرة على اجتياز المسافة بين شخصين ومن ثم اختصارها؟

أم لأن فراغات الأصابع بينها مُعدّة خصيصاً لتملأها يدٌ أخرى؟

لا أعرف ولكني أحبُ يدك ، وأرغب في طلبها . .

غير أني أرغبُ أكثر في طلبِ عينيكِ فهي أول مصيدة وقعتُ فيها

وهي أكثر البحار التي يستهويني الغرق فيها

وإن كان لي من أمنية قبل الموت فهي أن تكون عينيكِ آخر ما أراه من الدنيا .

جدتي التي دأبت على ملء مكان أمي في حياتي ، والتي فتحت حضنها لي في طفولتي ، واحتوتني بكل ما يمكن لأم أن تفعله لابنها الوحيد ، كانت تقف بجانبي هذا المساء أيضاً ، تعلو وجهها ابتسامة تشبه نورساً يقصد البحر في سماء تميل شمسها للمغيب ، تكسو وجهها حمرة كلما دخل الفرح قلبها الطيّب ، وكأن دماءها تتسابق لتستقر في وجنتيها المتغضنة من أثر السنين ، قالت لي كما لو كانت تقرأ ما يدور في ذهني :

- عندما يكبر الإنسان يا بني لا يعود الفرح يطرق أبوابه إلا من خلال أبنائه ، وقلبي منذ زمن لم يرقص كما يفعل اليوم .

أمسكتُ يديها التي لم تنسَ ليلة واحدة أن تمسح بها على رأسي قبل أن أنام وقبلتهما قائلاً :

- أدامكِ الله لي يا جدتي ، كيف كانت لتكون حياتي لولا يديك الحانيتين هذه وصوتك الذي رطّب لياليّ بالأغنيات الحلوة والحكايا ، إذا كان قلبك يرقص من الفرح من أجلي هذه الليلة ، فلطالما تحول إلى بيت ليحتويني ، وجدارٍ ليسندني ، وحديقة غناء لتسعدني ، فضلكِ عليّ أكبر من أن يُختصر في عجالة كهذه ، ولكن يكفي أنكِ ترافقيني هذا المساء كي لا تتركي جزءاً مني ناقصاً ، كما فعلتِ طيلة حياتي .

تدخّل أبي مقاطعاً حديثنا بقوله :

- لا أرغب في قطع جوكما الحميم هذا ، ولكن أظن أننا

تأخرنا ، فلنخرج لحاجتنا الآن ، ولديكم عند العودة متسع من الوقت للتعبير عن عواطفكما .

ضحكت جدتي ورمَتْه ببعض الكلمات التي اعتادت أن تعبر بها عن رأيها فيما لا يعجبها من تصرفاته ، ثم تأبطتْ ذراعي وخرجنا .

كان أبي يسألني بعض الأسئلة والأحاديث الروتينية التي من المعتاد أن تُقال في هكذا حدث ، وكنتُ أكثر ارتباكاً من القدرة على التركيز في ما يقول ناهيك عن رد جواب .

لكنه فجأة غيّر الأحاديث وبدأ في سرد ذكرياته ، ربما لأن الموقف أثارها بداخله ، وربما ليشتت انتباهي عمّا كنتُ أفكر به ليُهدِّىء من روعي . قال وذهنه غير حاضر معنا تماماً :

كانت أمكَ أجملُ نساء الحي ، أو أني كنتُ أراها كذلكِ لفرط حبي لها ، فكل عاشق لا يرى امرأة أجمل من حبيبته . لم يكن بيننا الكثير من الأحاديث سوى سلام عابر ، ونظرات مختلسة ، كانت تعرف أني أحبها ، النساء أفضل من يعرف هذا الأمر وأول من يعرف أيضاً ، إنهن يجدن قراءة المشاعر ، ويُجدن إخفاءها أيضاً ، تلك موهبة خاصة بهن ، بينما يتعذب الرجل ليفك لغز تصرفات المرأة التي تستحوذ بلا سبب على تفكيره ، ولا ينجح في الغالب ، وهذا على الأرجح يمتعهن ، حين كنتُ أسترق النظر إليها كانت تتظاهر بعدم رؤيتي ، وحين كنتُ أحاول أن أختلق حديثاً معها كانت تستمع بإرباكي ،

لذلك قررتُ أن أُفسد عليها متعتها وأحسم الأمر بالتقدم لخطبتها ، لم يكن لديَّ فكرة عمّا قد يكون جوابها ، لأن مشاعرنا لم تكن قبل ذلك منطوقة بيننا ، كنا فقط نحاول فهمها من تصرفات بعضنا ، أو أنني وحدي كنتُ أفعل ، لقد تركتني أياماً أتقلّبُ على الجمر ، دون أن ترد جواباً ، كانت تعرف أن انتظار المتلهف صعب ، ولكن حرفة النساء الأولى هي التعامل مع اللهب ، يعاملن القلوب التي تعشقهن كما يعاملن الطبخة على النار ، ينتظرن نضج المشاعر على نار هادئة ، ولكنهن لا يعلمن أن نار الشوق لا تعرف كيف تكون هادئة ، حين ردت جواباً كنت قد فقدتُ أملي تماماً في الحصول على موافقتها ، وقد كان هذا ما تريده ، أن تعطيني الأمل بعد اليأس ، لأنها تدرك لذّته ، قالت لي أنها بهذه الطريقة عبّرت لي عن حبها ، وبهذه الطريقة سارت حياتي معها ، لم تكن تفعل أي شيء كما أتوقع ، كانت تفعل كل شيء بطريقتها ، تلك الطريقة التي جعلت قلبي لا يرى غيرها .

ثم التزم الصمت . . .

ولم أجد ما أقوله سوى أني شددتُ على كتفه . . .

كنتُ أُدرك أنه لا يبحث عن المواساة ولا يحكي ذكرياته لفتح جرح الفقد في قلبي ، كان في كل مرة يحكي لي عنها يضع قطعة جديدة في الصورة التي رسمها لها في داخلي ، لتظهر المزيد من تفاصيلها الغائبة ، تماماً كما نضيف قطعة

أُحجية لنكتشف ما تنطوي عليه صورة ما .

وصلنا إلى باب بيتكِ ، وهناك كان والدكِ ووالدتكِ في استقبالنا ، كانت عيناي تبحثُ عنكِ ، رغم علمي أنكِ لن تظهري للعيان الآن ، ولكني كنتُ مسروراً بالتعرف على المكان الذي كبرتِ فيه ، والأشخاص الذين عشتِ بينهم ، عائلتكِ ، منزلكِ ، جيرانك .

والدكِ كان رجلاً ذا هيبة ، رغم حفاوته وكرمه في الاستقبال -تلك الصفة اللازمة في العربي أياً كان وطنه والتي تميّزه عن غيره- إلا أنه كان محافظاً على هالة الوقار التي تحيط به ، أمكِ كانت مليئة بلطف الأمهات ، تلك السمة التي تولد بها بعض النساء دون غيرهن ، ثمة نساء يكنّ أمهات بالفطرة ، الحنان فيهن فائض إلى الدرجة التي تجعله جلياً في ملامحهن ، فيعاملن الجميع كما لو كانوا أبناءً وبنات لهن ، أحببتُ والديكِ ، أو بالأحرى كنتُ أشعر بالامتنان تجاههما ، لأنهما أتيا بكِ إلى هذه الدنيا ، فجمّلا حياتي .

وجئتِ أخيراً ، ظهرتِ من الباب كما لو أن قطعة من روحي تمشي على الأرض ، تحملين القهوة بيديكِ ، دون أن ترفعي بصركِ إليّ ، بينما كنتُ مُسمراً أُحدّقُ بكِ ، ناسياً أننا في مجلس أبيكِ ، وأن هناك غيري وغيركِ في المكان .

أعادني صوت جدتي للواقع حين تمتمت كعادتها عندما ترى ما يعجبها :

- ما شاء الله .

قدَّمتِ القهوة للجميع ، حتى وصلتِ إليّ ، كنتُ أسمع دقّات قلبك ، أو لعلها دقّات قلبي ، فكلانا يُحدث في الآخر ذات الجلبة ، كان ذلك أول فنجان قهوة حلو أشربه في حياتي ، ماذا تفعل مرارة القهوة أمام حلاوتك سوى أن تنهزم؟

وطلبوك لي . .كما تقتضي الأصول في ذلك .

وكان عليّ أن أنتظر جوابكِ ، أو بالأحرى إعلان موافقتكِ بالطرق التقليدية .

لم أستطع البقاء ساكناً ، لذا كنتُ بانتظاركِ صباح اليوم التالي ، عندما رأيتني غيرتِ طريقكِ المعتاد ، وتواريتِ عن الأنظار كي لا يراكِ أحد ، وتبعتكِ كعادتي منذ رأيتكِ أول مرة .

قلتِ بابتسامة شبه مكتومة :

- يا مجنون ، ماذا تفعل هنا؟

- لم أستطع النوم ، ولا الانتظار ، أردتُ أن أراكِ .

- ماذا لو رآنا أحد؟

- ليرَ من يرى ، ألم أخبرهم البارحة أني أحبكِ وأريدكِ .

- لم تحصل على جوابك بعد .

قلتِ ذلك وكأنكِ تحاولين استفزازي ، لآخذ الجواب قسراً

- ليس لديكِ الكثير من الخيارات ، إما نعم أو نعم .

- ألا ترى أنكَ بدأتَ تصابُ بالغرور؟

- وهل يمكن لرجل تحبه امرأة مثل أسماء ألاّ يصاب بالغرور؟

- وواثقٌ أيضاً أن أسماء تحبك؟

- ماذا تفعل أسماء هنا لو لم تكن غارقة في حبي؟

- تحاول السباحة إلى الشاطئ .

قلتها وأنتِ تنظرين مباشرة في عينيّ ، دون أن تُحيدي بنظركِ عنها ، حينها لم يعد ثمة ما يقال ، أردتُ فقط أن أوقف الساعة وأبقى هكذا قريباً منك تلك المسافة التي أرى من خلالها وجهي في عينيك .

لكنكِ قلتِ بنبرة أقرب للهمس :

-تأخرتُ ياحمزة ، يجب أن أذهب .

أومأت برأسي لكِ ، دون أن أخفي رغبتي الشديدة في ضمك تلك اللحظة ، ولكني لم أفعل . فقط قلتُ من خلفك :

- عجّلي عليّ بإعلان موافقتك .

لم تلتفتي وكنتُ أعلمُ أنكِ ترسمين ابتسامتكِ الحلوة وتشعرين بذات ما أشعر به .

.

.

.

تبقى الأيام كالماء بلا لون ، ولا طعم ، ولا رائحة ، حتى نحب! مجرد خواء حتى يدخل حياتنا شخصٌ ما فيصبح طعم الأيام ولونها ورائحتها ، حينها نكون قد وجدنا رفيقاً للعمر ، هكذا كانت أيامي قبلكِ ، ثم جئتِ فصار لأيامي طعم ورائحة ولون! عرفتُ ذلك من طعم أيامي المحلاة بكِ يا أسماء ، من لونها البهيّ بوجودكِ فيها ، من رائحتها العطرة التي فاحت منذ نبت في قلبي زهر حبكِ ، امتلأت روحي بالحياة عن آخرها ، أنا الآن أعيش ، لا أتنفس وحسب .

أسألكِ كلما التقينا : ماذا تفعلين بالساعة ، لتهرب دقائقها بعجالة حين أكون معكِ؟

فتجيبين ببراءة : لا أفعل شيئاً ، قلبك من يفعل .

- ماذا يفعل قلبي؟

- يسرع في نبضه حين نكون معاً ، ومدن العشاق كما تعلم تعيش بتوقيت القلب لا بتوقيت الساعة .

- قلبي لا ذنب له ، حبك هو من يحركه .

- ليبقَ في حركة دائمة إذن .

- ألن تفعلي شيئاً لتهدئته؟

- مثل ماذا؟

- تخبريني أن والدكِ سيقبل بي

نظرتِ إليّ في دهشة ثم قلتِ :

- ألديكَ شك في الأمر؟

- أخشى أن لا يجدني لائقاً بكِ .

- لا يليق بي سواكِ يا حمزة ، أنت الصاحب الوحيد لهذا القلب .

- لم أعد أملكُ صبراً ، أريدكِ لي ومعي دائماً ، أنتِ لا تعرفين ماذا تفعل بي الساعات في غيابكِ ، بطيئة وثقيلة ومحملة بالأشواق .

- أعرف يا حمزة ، أنا وأنت نعيش ذات الحالة ، ولكن بقي القليل ، سيكون كل شيء كما نُحب ، لا تقلق .

مزجتِ كلماتكِ المهدئة تلك بابتسامة حانية ، تشبه حضناً دافئاً في ليلة شتائية ، لذلك قلتُ مذعناً وكأنما احتوتني ابتسامتك :

- إن كنتِ ستستمرين بالابتسام لي بهذه الطريقة ، سأصبر حتى الرمق الأخير .

رغم أني كنتُ أعرف أن أصعب الأوقات هي اللحظات الفاصلة بيننا وبين ما نشتهي ، نكون خلالها نافذي الصبر ، غير قادرين على اجتياز هذا القليل الذي بقي ، فيصبح أطول وأثقل من الكثير الذي انقضى ، وكأننا لم نكن ندير صبرنا بشكل جيد ، حين أنفقناه بإسراف في البدايات ، فبقيت النهايات هكذا بلا صبر .

أخبرتني لاحقاً أنكِ ووالدكِ قد تحدثتما بشأني ، وأنكِ أفصحتَ له عن معرفتكِ بي من قبل ، قلتِ لي أنكِ أخبرته

كل ما يحتاج معرفته عني ، ولأنه كأي أبٍ يرغب دائماً بالأفضل لابنته ، ويشعر أن مسؤولية التحري عن من يطلبها تقع على عاتقه ، أراد أن يتحرى عني ، ربما لأنه لا يؤمن كثيراً بأحاديث القلب ، وربما لأنه يخشى عليكِ من كسر القلب .

بعد أُسبوع من الانتظار الصعب حصلتُ على الموافقة التي أريد ، السحابة السوداء من القلق التي كانت تحوم فوق رأسي قد انقشعت ، لتحل محلها شمس مفعمة بالحياة ، مضت الأمور كأجمل ما تكون ، تماماً كالأحلام ، ككل الأشياء التامة والجميلة ، تلك التي تسجل في الذاكرة على هيئة حلم ، لشدة شذوذها عما اعتدناه واقعاً ، هكذا أتذكر تلك الأيام الآن يا أسماء ، كحلم جميل اضطررتُ للاستيقاظ منه ، تلك اليقظة التي لم أكن مستعداً لها أبداً .

ثم بدأنا نجهّز معاً للخطوبة ، كان كل شيء في الوجود يتخذ شكل ابتسامة في نظري ، كنت سعيداً إلى الدرجة التي فقدتُ فيها قدرتي على الحزن ، ربما كان هذا القدر من السعادة خطراً على شخص مثلي ، شخص لم يؤمن أبداً بالسعادة المطلقة ، أو يتنازل عن ريبته الدائمة بشأن المكاسب الحياتية ، كنت أخشى أن أتخلى عن حذري ، ولكني فجأة فعلتُ أكثر ما أخشاه ، نسيتُ كيف أحذر ، واحترفتُ الجنون ، في الحقيقة لم يكن لديّ خيارٌ آخر ، إنني حين عشقتكُ فقدتُ دفاعاتي كلها ، أليس العشق شطراً من الجنون نهاية المطاف؟!

عند الصائغ كنتُ أقف بجانبكِ لنختار خواتم الخطوبة ، بحثتِ عن أقلها سعراً ، ثم ادعيتِ أنه لم يعجبكِ سواها ، وحين أدركتُ ذلك

قلتُ لكِ بإصرار : اختاري ما يعجبكِ فليس للسعر أهمية عندي بقدر سعادتكِ .

أجبتني بنبرتكِ الجادة والحادة حين تتخذين قراراً لا رجعة فيه :

- السعر أيضاً لا يهمني ، هذه الخواتم مجرد رمز ، قيمتها في قلوبنا لا في جيوبنا .

- أعرف يا حبيبتي ، أنا فقط لا أريدكِ أن تأخذي الأقل ، لأني أحبُ أن أمنحكِ الأفضل ، عيشي فرحتكِ كاملة دون نقصان ولا تقلقي بشأن شيء .

- من قال لكَ أني لا أعيشها كاملة الآن؟ أنت فرحتي يا حمزة ، وجودك معي وحده ما يسعدني ، لا يهمني ثمن الخاتم ، يكفي أن تضعه أنت في إصبعي ليكون أغلى شيء في هذا العالم ، حتى ولو كان مجرد خيط تلفه حوله

- أعرف أن المظاهر لا تهمكِ يا حبيبتي ، ولكن من أجل عائلتكِ أيضاً ، لا بد أن نراعي من حولنا ، فأمكِ ربما لن يعجبها أن تأخذ ابنتها أقل من غيرها ، سيفكر الجميع أنكِ تفكرين تحت تأثير العاطفة ، وسيكيلون لكِ النصائح وربما التوبيخ ، وأنا لا أريد أن يُعكر صفوكِ شيء .

- لا يوجد شيء كهذا ، ثم أنا لا أفكر تحت تأثير العاطفة ، رغم أني لا أرى في ذلك عيباً ، فأنا أشارك حياتي مع الرجل الذي أحب ، لا أدخل في صفقة تجارية ، ولكن تخيل أنك تخرج في رحلة طويلة ولديك قدر كافٍ من الزاد لذلك ، فهل من المنطقي أن تجعل ذلك الزاد كله في وجبة واحدة ثم تقضي رحلتك تعاني الجوع والحاجة؟

- بالطبع لا .

- وهذا هو الحال بالنسبة لنا أيضاً ، أنا وأنت نخرج في طريق الحياة معاً ، ليس على أحدنا أن يتكبد عناء كلّ شيء وحده ، ولن ننفق ما لدينا في ليلة واحدة على أمور كلانا لا يعيرها أهمية . ما نريده هو المهم ، أليس كذلك؟

- ليس إلا ذلك .

- إذن دعنا لا نتجادل حول هذا الأمر بعد الآن .

- سمعاً وطاعة .

ووضعتُ الخاتم في إصبعك ، ووضعتُ توقيعي أخيراً على الورقة التي توثّق حلمي بالاجتماع بكِ .

نعم يا أسماء ، أنتِ الآن خطيبتي ، أنا لا أحلم ولا أتخيل كما كنتُ أفعل في كل لحظة مرّت بي منذ رأيتكِ ، الآن أستطيع أن أضمك ملء الشوق الذي صارعته زماناً طويلاً ، أستطيع أن أمسك يدك دون أن أخشى أعين الآخرين ، أستطيع أن أحيط كتفيكِ بذراعي وأجول المدينة كلها ليرى الجميع أني

ارتبطتُ بالمرأة التي أعشقها ، لا أحتاج زاوية أختبئ فيها لأراكِ ، ولا نحتاج أن ننتظر فرصة يجود بها الزمن علينا لنلتقي ، نستطيع أن ندير الآن ظهرنا للزمن ، نستطيع أن نديرها للكون بأكمله ، لأننا اجتزنا الجسر الفاصل بين الحلم والواقع ، أنا وأنتِ الآن قادران على بناء عالمنا الخاص ، ووضع قوانينا الخاصة ، أنا لكِ وحدكِ ، وأنتِ لي وحدي ، نستطيع الآن أن نُلبس عمرنا ثوب الحب ، هذا الثوب الذي سهرنا ليالٍ عدة نحيكه بأشواقنا .

جئتُ لزيارتكِ في منزل أهلكِ للمرة الأولى بعد أن عُقد قراننا ، كنتِ أنتِ في استقبالي هذه المرة ، شعركِ الأسود مسترسل خلف ظهركِ كشلالٍ من عتمة ، يحيط بوجهك المنير كالبدر ليلة تمامه ، عيناكِ مليئة بالحبِ والبهجة كأنما يقام فيهما عرسٌ ، شفتاكِ تحمل ابتسامة رضى ، ويداكِ تمسكان يديّ الآن بينما يأتي صوتكِ العذبُ مُرحباً :

- أهلاً بكِ يا حبيبي .

كانت تلك هي المرة الأولى التي تنادينني بها بغير اسمي ، كنتُ أحبُ طريقة نطقكِ له ، وأحس بالدفء غالباً عندما تخرج حروفه مُحمّلة على نبرة صوتكِ ، ولكن تسميتكِ لي «حبيبي» قد جعلتني أشعر كما لو قُلدتُ أهم مناصب العالم ، أو أني تُوجتُ ملكاً على أعظم عروش الدنيا .

قبلتكُ من جبينكِ ، وهمستُ لكِ بغبطة :

ـحبيبكِ مشتاقٌ إليك .

اتسعت ابتسامتكِ حتى كشفت عن الغمازة في خدكِ ، ثم اشرتِ بيدك أمامي قائلة : تفضل بالدخول .

- أريد أن أرى غرفتك .

قلتُ لكِ هذا ونحن في طريقنا إلى الغرفة التي استقبلنا فيها أهلكِ حين جئنا لطلبكِ ، سألتني ونحن نجلس على إحدى الأرائك : لماذا تريد رؤيتها؟

- لأني أفضل البقاء في المكان الذي قضيتِ فيه أكثر وقتكِ ، في المكان الذي يحمل رائحتكِ ، وبصماتكِ ، وكذلك أنفاسكِ ، أن أرى السرير المحظوظ الذي تنامين عليه ، والوسادة التي تتركين عليها الشعر الساقط من رأسكِ كل صباح ، والسقف الذي تتأملينه إن أصابكِ أرق ، أحبُ أن أتعرف على كل ما يتعلق بكِ يا أسماء .

- بكل سرور ياحبيبي .

قلتِ هذا وأنتِ تقفين مضيفة : ولكن أولاً سأعدُ لك القهوة ونشربها معاً ثم نلبي طلباتكَ واحداً واحداً .

فقلتُ لكِ وأنا أتابعك بنظراتي وأنتِ ذاهبة :

- ألا يمكن أن تصطحبي حبيبك معكِ إلى المطبخ .

- ابقَ هادئاً سأعود بعد لحظة .

حين عدتِ كنتُ قد بدأتُ في فقدان صبري ، فغيابكِ لا يحتمل وإن كان لدقائق ، وضعتِ القهوة أمامي ، وتركتِ بيننا

مسافة حيثُ جلستِ ، لكني قطعتُ تلك المسافة دون انتظار ، قائلاً لكِ :

- اشتقتُ إليك .

- أحبُ أن تستمر في اشتياقك .

- وأنا أحبُ أن أعبّر عن اشتياقي .

- كيف تفكر أن تفعل ذلك؟

- هكذا مثلاً

أخذتكُ حينها بين ذراعيّ ، ضممتكِ بحجم المرات التي رغبتُ فيها بضمك ومنعتُ نفسي ، استنشقت رائحة شعركِ ، كغريق خرج للتو من تحت الماء ، أردتُ أن أدفنكِ في صدري أكثر ، لتشعري بحرارة قلبي ، ولكن عدة طرقات على الباب كانت كفيلة بانتشالك من حضني ، وانتشالي من سعادتي .

جاءت والدتكِ للترحيب بي ، تبادلنا الأحاديث أثناء شرب القهوة ، كنتُ أحب تلك المرأة أكثر في كل مرة ألتقي بها ، وقد عرفت حين عرفتها من أين أخذتِ حنانكِ المفرط واتساع قلبكِ ، في نهاية أحاديثنا قالت أمكِ بعد دقيقة صمت :

- أوصيكَ بأسماء خيراً يا حمزة ، إنني أرى فيك الخير جلياً يا ولدي ، ولكنني أعطيكَ قطعة من روحي ، فلا تحزنها ، وكن لها رفيقاً طيباً ، أعنها على الحياة ولا تعن الحياة عليها ، وهذا ما أوصيكِ به أيضاً يا ابنتي ، حافظا على بعضكما

وحافظا على ما بينكما ، وقلبي دائم الدعاء بالسعادة والخير لكما .

بعد أن قبّلنا يدها غادرت الغرفة ، فالتفتِ إليّ قائلة :

- تعال لأريكَ غرفتي .

نهضنا معاً فتعمدتُ أن أمسك يدكِ أثناء سيرنا ، كنتُ أحبُ أن أبقى قريباً منكِ ، أن يكون جزءاً مني معكِ وجزءاً منكِ معي ، حين دخلتُ غرفتكِ وجدتها عابقة برائحتكِ كما كنتُ أتوقع ، جلستُ على طرف سريركِ بينما بقيتِ واقفة أمامي ، ثم سألتني ضاحكة :

- ما رأيك بغرفتي إذن؟

- جميلة كمن تسكنها .

ثم أمسكتكِ من يدكِ وأجلستكُ بجانبي ، ونظرتُ في عينيكِ ملياً ، ويدي تلمس أطراف خصلة من شعركِ :

- بعد الآن سيكون كل منا حيث يكون الآخر ، بعد الآن سيكون هناك بيتنا ، وغرفتنا ، وسريرنا ، سيكون هناك نحن ، لا أنا وأنت ، أريد لغرفتنا أن تحمل رائحتكِ ، وأريد أن أجمع كل يوم شعركِ المتساقط عن وسادتي ، وعن كتفي ، أريد أن أعيش بكِ لا معكَ فقط .

كان جوابكِ عملياً هذه المرة إذ أحطتِ عنقي بذراعيكِ في عناق صامت وطويل .

في الصباح كنتُ أقطع طريقكِ أثناء ذهابكِ لاحضار

احتياجات البيت من السوق فلم يعد ممكناً بالنسبة لي أن أمضي في يومي قبل رؤيتكِ ، وفي المساء كنت آتي لزيارتكِ في المنزل ، أو نخرج معاً إلى مكانٍ ما ، كل الأماكن التي أزورها معكِ تبدو وكأني أزورها للمرة الأولى ، وجودكِ معي يعيد إليّ دهشة الأشياء الأولى ، كأني للمرة الأولى أتعرف على رمل الشاطئ ، وكأني للتو اكتشف زرقة مياه البحر ، وكأني لم أرَ من قبل مطر السماء ، ربما يعود هذا إلى أن الحب يمحو خبراتنا السابقة ، ويفسح في ذاكرتنا مجالاً عن طريق نسيان ما سبق لنا من حياة ، يجعلنا متلهفين كالأطفال ، مسكونين بالدهشة كـ«أليس» في بلاد العجائب ، ويجعلنا أكثر قابلية لرؤية الجمال في الأشياء ، وأكثر جاذبية للفرح .

يدكِ في يدي ، هكذا أصبحنا نعبر الطريق ، هكذا تُصبح الطرقات آمنة ، وتتحول المدينة إلى حضن أم ، في المرة الأولى التي أمسكتُ يدكِ قلتِ لي : الناس ينظرون إلينا .

كنتُ أدركِ أنكِ ما زلتِ تحاولين الاعتياد على كوننا زوجين الآن ، وكنتُ أدركِ أيضـــاً أنكِ تغطين ارتبـــاككِ بمثل هذه الملاحظات ، فنظرات الناس كانت في الحقيقة آخر ما يعنيكِ ، لذلك قلتُ لكِ :

– العين تنجذب تلقائياً للمناظر الجميلة ، ولا يبدو لي أن في هذا المكان منظراً أجمل منكِ ، رغم غيرتي من أعينهم ، إلا أني أعذرهم .

- أتعرف أنك تجيد استغلال المواقف لتنظم عقود الكلمات؟

- أعرف ، وأنتِ أتعرفين أني أحبكِ؟

- أعرف ، ولكن أحب أن تخبرني دائماً .

- أنا أخبركِ دائماً حتى حين لا أفعل .

- كيف ذلك؟

- مثلاً حين أمسكُ يديكِ ، هذا يعني أني أقول لكِ أحبكِ بطريقة أخرى .

وبطريقة مباغتة قبلتكُ في غفلة منكِ ، فنظرتِ حولكِ مرتبكة ثم نظرتِ إليّ قائلة : في منتصف الشارع تفعل هذا؟

فغمزتكُ بعيني قائلاً :

- ألستِ أنتِ من طلب أن أخبركِ أني أحبكِ؟

- تخبرني لا تقبلني أمام الناس .

- هكذا أخبركِ ، ثم سأقبلكِ أمام من أشاء ، أنتِ الآن زوجتي ، أنسيتِ؟

- لم أنسَ ، غير أني أخجل .

- اخجلي ، هذا يعجبني .

- تستمتع بإحراجي إذن؟

- أستمتع برؤية وجهك أياً كان التعبير الذي يعلوه ، أستمتع بهذا كثيراً .

- في هذه الحالة انظر إليّ دائماً ، ولكن حين تقبلني خبئني عن العالم .

- حين أقبلكِ لا يكون هنالكِ عالم سواكِ ، أنا لا أرى أحداً .

- أنت مجنون .

- كيف يمكنني أن أجمع بين عقلي وعشقكِ ، أنتِ المذنبة في هذا .

- مذنبة ولن أتوب عن هذا الذنب .

- إذن يعجبكِ جنوني .

- كثيراً .

- ولماذا إذن تتذمرين من ممارستي له .

- لا أتذمر ، أنا أحتج فقط .

- وأنا أحتج على احتجاجكِ .

- تحتج أم تقمع؟

- نسيتُ أن أخبركِ .

- ماذا؟

- أُحبكِ .

الحب يقلب أعماقنا رأساً على عقب ، قد يكون هذا أجمل ما فيه وأسوأ ما فيه أيضاً ، إذ لا يمكنك بحال من الأحوال العودة إلى ما كنت عليه قبل أن تدخلي دوامة العشق ، وكلما حاولتِ الخروج من حالتك تلك تجدين أنك تنغمسين بها

أكثر ، إن الذين يقدسون روتينهم يفزعهم الوقوع في الحب ، يرعبهم ذلك القدر من الخفقان الذي لم تألفه قلوبهم من قبل ، لذلك يقاومون المشاعر التي تحاول احتلالهم ، كما يقاوم أحدنا من يحتل أرضه ، وهذا ما يجعلهم عرضه للهزيمة في نهاية الأمر ، إذ لا يمكن بحال من الأحوال أن نتغلب على المجهول ، وعواطفنا أكثر تعقيداً من قدرتنا على فهمها أو سبر أغوارها ، لا يمكن هزيمة الشعور ، ولا يمكن الانتصار على الأفكار ، كلاهما يهاجمان من الداخل ، وكلاهما يعرفان أكثر نقاطنا ضعفاً ، الفكرة لا تصمت مهما بذلتِ لأجل إلجامها ، والشعور لا يقف مهما اجتهدتِ في كبح جماحه ، لذلك كان الحب مصدر قوة وضعف في آن معاً ، حبي لكِ يا أسماء يجعلني قادراً على فعل أي شيء يقربني منكِ أكثر ، ويجعلني قادراً على مواجهة أي شيء قد يمسكِ أو يلحق بكِ ضرراً ، ولكنه يضعفني كثيراً حين يتعلق الأمر بمجابهة شعوري تجاهكِ ، أنا أشد ضعفاً من طائر مكسور الجناح حين تهب رياح شوقي إليكِ ، وأكثر خوفاً من طفل تاه عن والديه حين تُغـيِّب الأيام عني وجهكِ ، أنا بحاجة إليكِ لأواصل التنفس ، بحاجة إليكِ لتستعيد الأوقات خصائصها الحياتية ، ولا تكون مجرد سيل جارف من صوت تكات الساعة ، وصمت كل الأشياء التي يأكلنا انتظارها ، في ذاكرتي تشحب تلك الصور التي كانت ملونة وزاهية ، لأن ألوانها كانت مستمدة من ضوء وجودك ، وتتحول ضحكاتنا

تلقائياً إلى غصة ، لأني لم أعد قادراً على الوصول إلى مكان الفرح في قلبي ، ربما لو لم أكن أحبكِ بهذا القدر ما كان عذابي هائلاً ومستمراً هكذا ، ولكن إن كنتِ تسألينني عما إذا كنتُ نادماً على الاستغراق في شعوري تجاهك إلى هذا الحد ، فجوابي هو كلا ، إنني نادم فقط على كل دقيقة مرّت دون أن أخبركِ بكل الطرق الممكنة أني أحبكِ ، نادم على كل لحظة كان بإمكاني فيها أن أضمكِ ولم أفعل ، نادم على كل قُبلة لم أقبلكِ إياها ، على كل كلمة لم أقلها ، نادم لأني لم أعش معك كل يوم وكأنه يومي الأخير ، حبكِ وحده كان جديراً بأن يُعاش ويكبر دون أن يُطعن بكل هذه السهام الحادة من الشوق ، لكنه ما زال يعيش ويكبر بداخلي دون أن يمسه فتور ، يعيش ويقتلني بأشواقه يا أسماء .

بدأت رائحة الحرب تفوحُ يا أسماء ، والحديثُ عنها سيِّد الأحاديث ، فحين تحضر الحرب يغيب كل شيء ، هذه المدينة خُلقت لتحارب ، المدن كالبشر يا أسماء ، كل واحد له وظيفة بدونها لن يؤدي دوره في الحياة كما يجب ، والمدن كذلك ، باريس تُنتج العطور ، نيويورك تنتجُ الأفلام ، ريو دي جانيرو ترقص ، مكة تصلي ، أما غزة فتحارب! هي تعرف هذه الحرفة وتتقنها ، وبها يعرفها الناس ، غزة دون حرب كلاعب كرة قدم بعد الاعتزال ، لا يَحفَل به أحد!

لا أعرف إن كان مصطلح الحرب مصطلحاً دقيقاً يصف كل

نزال تخوضه غزة ، الحربُ يشتركُ فيها جيشان على الأقل وفي نزالاتنا التي يسميها الناس حروباً جيش واحد له البحر والجو واليابسة وليس لنا إلا باطن الأرض نثقبها لنصل إليهم لأن البحر بعيد والفضاء واسع واليابسة عسيرة!

يتخرج ضباطهم من الكلية الحربيّة ويتخرّج محاربونا من سورة الأنفال وصلاة الفجر ، ولو جئناهم لأبادونا ، أسلحتهم عمل عليها خبراء الأرض ، وصواريخنا إن صحّت التسمية منتج محليّ ، في كل نزال يكتشفون أنه بإمكاننا أن نصيبهم أبعد وأوجع!

ليست حروباً هذه التي نخوضها يا أسماء ، إنها مذابح ، الطائرة ضد مئذنة المسجد ، والصواريخ المتطورة ضد البيوت المتهالكة ، الدبابات ضد أجساد الأطفال ، والرصاص لا يستخدمونه إلا لأننا نقترب منهم مسافة تذهلهم ، هي حرب السيف ضد الدم ، والمخرز ضد العين ، لكننا عودناهم أن السيف وإن أسال الدم فلن يجعله يركع ، والمخرز وإن فقأ العين فلن يجعلها تتخلى عن النظر إلى القدس .

في حروب الناس يحاول كل طرف منهم أن يقضي على الآخر ، أما نحن فنخوض نزالاتنا ونحن نعرف أنه لا يمكننا أن نقضي عليهم ، ولكننا نخوضها لنفسد عليهم نصراً تسمح لهم موازين القوى أن يحققوه!

نصرهم أن يقضوا علينا أما نصرنا أن نبقى!

وإننا ننتصر دوماً ، نخرج من نزال منهكين فنبدأ بالاستعداد لآخر ، سنبقى على هذه الأرض ما بقي بحر عكا يهدر ، وزيتون القدس يثمر ، باقون في حلوقهم غصة ، ولن يهنأوا على هذه الأرض ، لأنها أرضنا ، وكما اندثر الغزاة قبلهم عنا سيندثرون ، جيلاً يورث جيلاً هذه المهمة المقدسة!

نقضّ مضاجعهم إلى الأبد ، وها هو التاريخ أمامكِ ، وطرد الغزاة نتوارثه في جيناتنا كما نتوارث لون البشرة وفئة الدم!

كنتُ هذه المرة قلقاً لا من الحرب نفسها فقد اعتدتها ، ولكني قلق منها لأنك ستكونين وسطها ، الحرب تعني الموت يا أسماء ، والموتُ لا يكون مرعباً إلا حين يُهددنا بأحبتنا ، ليس له سلاح أقوى منهم ليقتلنا به! وكنتِ كل أحبتي على هذه الأرض ، كنتُ بحاجة إليكِ لأعيش ، وبحاجة لأعيش فقط من أجلكِ ، أغمضتُ عينيّ أمام احتمال فقدكِ ، فماذا سأفعلُ في هذا السجن الكبير الذي أسموه زوراً مدينة بدونكِ؟ لمن أكتب؟! بمن أتغزل؟! من أنتظر؟! هذه الأشياء لم أعرفها إلا على يديكِ وقد صار من المستحيل إكمال حياتي دونها أو بالأحرى دونكِ!

جئتُ إليكِ على موعد عقدناه ، وكنتِ بانتظاري ، فاتنة كما أنتِ دوماً ، ولكن قلقاً بادياً على محياكِ لم يستطع جمال عينيكِ أن يخفيه ، الكل يخاف الحرب وإن امتلك البسالة لخوضها ، أورثتنا حروبنا السابقة هذا الخوف ، الذين انتشلناهم

من تحت الأنقاض علمونا أننا يمكن أن نُستخرج من بعدهم قطعاً، والذين شيعناهم جماعات علمونا أنه ليس بالضرورة أن يكون لكل ميت قبر وحده، هذا يُعتبر رفاهية، وكما تعلمين غزة محرومة من كل شيء يمتُّ للرَّفاهية بصلة!

الآباء الذين عزيناهم فقد أولاهم علمونا أن آباءنا من الممكن أن يقفوا مكسورين يتقبلون فينا العزاء، والأمهات المكلومات بفلذات أكبادهن علمننا أنَّ الجرح في غزة كأس على كل أم أن تشرب منه!

كنتِ قلقة فسألتني على الفور كمن يطلب طمأنة لا جواباً: هل خبر الحرب إشاعة؟

فأجبتكِ: في هذه المدينة يا أسماء السَّلام هو الإشاعة أما الحرب فعادة... حربنا لم تتوقف يوماً لتبدأ، إما أن يرجعوا من حيث أتوا وإلا فليس لهم منا إلا الذي تعرفين!

- أعرف يا حمزة وأنا لا أخشى على نفسي، بل أخشى عليك، أخشى فقدك، لقد وقع خبر اقتراب الحرب على قلبي كالنار، ولا شيء يُطفئ هذه النار إلا أن أعرف أن الحرب لن تقع!

- لا أحد يخشى على نفسه يا أسماء، كلنا نخشى على أحبتنا! الموت ليس مخيفاً حين يكون شأننا الخاص، ولكنه كذلك حين يكون شأن من نحب، الرجال في الخنادق لا يخافون من الجنود الذين أمامهم لقد ذهبوا إليهم بأرجلهم،

ولكنهم يخافون على الذين تركوهم وراءهم ، الأم تريد أن يدفنها ابنها لا أن تدفنه ، والأب يريد أن يتقبل ابنه العزاء به لا أن يتقبل هو العزاء بابنه ، الأخت لا تريد أن تُفجع بأخيها ، والأخ لا يريد أن يُفجع بأُخته ، هذه المدينة التي تبدو قاسية في الظاهر رقيقة في قلبها ، وأهلها يبدون قساة أحياناً لأنهم لو لم يكونوا كذلك لما بقوا! ولكن تمر لحظات تفضحهم ، تكشف عن قلوب الأطفال في أجساد الرجال ، وعن عقول الرجال في أجساد الأطفال!

– لم أكن يوماً مع الحرب يا حمزة ، أنا كالجميع تعبت ، أريد أن أزفَّ إليكَ ، إلى بيت لا أنتظر متى يُهدم ، أريد أن أنجب منكَ ولداً لا أنتظر متى ندفنه ، انتظار الأشياء السيئة أسوأ من وقوعها أحياناً! ولكني كالجميع أعرف أنها سبيلنا الوحيد الذي لم يتركوا لنا غيره لنمشي فيه!

– لا تقلقي يا أسماء ، سنجتاز هذه الحرب أيضاً ، كما اجتزنا التي قبلها ، لا خيار آخر أمامنا ، سنجتازها بخسائر جمة ، وبجنازات كثيرة كما جرت العادة ، ولكننا لن نجعلها نزهة لهم ، سيقيمون جنائزهم أيضاً ، ونحن كلما قُتلنا اشتد عودنا بينما هم كلما قُتلوا وهنوا ، هذا هو الفرق بين صاحب الدار والدخيل عليها ، نحن نقاتل لأجل أن نستعيد حقنا وهم يقاتلون كي يعيشوا فيها أكثر ، حياتنا وسيلة وحياتهم غاية ، وهذا ما يميزنا عنهم ، وهي نقطة في صالحنا ، فهم حين يقتلون

منا يسلبوننا وسائلنا بينما حين نقتل منهم نسلبهم غاياتهم ، لا شيء غير هذا يجعل الحرب موجعة بالنسبة إليهم!

ستطوى صفحة هذه الحرب ، وسنخرج منها سالمين وإن خرجنا مكلومين ، سيكون لنا أيام لنعيشها معاً ، أنا أريدُ أن أراكِ في ثوب زفافكِ الأبيض ، وأن أقضي عمري كله معكِ حتى نشيخ معاً ، أكون لكِ كتفاً وتكونين لي عكازاً ، لدينا كثير من الأحلام لنعيش لأجلها ، لا تفكري الآن بالموت ، ولا بالفقد ، فكري فقط كم أحبكِ ، لأن هذا أكبر من الحرب ومن يقف خلفها .

- سأقلق رغماً عني يا حمزة ، لكني سأتمسك بالأمل . . . أتعرفُ يا حمزة متى بدأت علاقتي مع الأساطير التي دوماً تسخر من اهتمامي الكبير بها؟ القصة الأولى كان فيها شيء من الأمل لهذا أحببتها ، لقد بدأ الأمر مع الفتاة اليابانية «ساداكو» التي أصيبت بسرطان الدم نتيجة سقوط القنبلة الذرية على هيروشيما . ثم بدأت ساداكو تصنع من الأوراق الملونة طيور الغرنوق ، امتثالاً للمعتقد الشعبي الياباني الذي يؤمن أن طائر الغرنوق هذا يعيش ألف عام ، والمريض الذي يصنع ألف طائر سوف يشفى من مرضه ، ولكنها ماتت عندما صنعت ٦٤٤ طائراً ، وبعد وفاتها قام اليابانيون ودعاة السلام يصنعون ما تبقى من الألف إكراماً لروح ساداكو ، ثم أصبحت هذه الطفلة رمزاً للأمل والإصرار على الحياة ، وأيقونة للأطفال

الذين سُرقت حياتهم نتيجة قرار أحمق بالحرب ، كنت أبحثُ أيضاً عما يبعثُ الأمل في نفسي ، عن فكرة أدفن فيها إحباطي وانكساراتي ولو كانت فكرة بدائية ركيكة ، أحياناً نلجأ إلى الجهل مختارين لأن الحياة التي نعيشها زاخرة بالحقائق المرة ، نتمسك بالوهم لنعيش ، لأن العلم لم نرَ من ثماره إلا فعل الأسلحة المتطورة على أجسادنا البدائية! أقرأ الأساطير وأحاول تصديقها لا لقلّة الوعي بل لقلّة الأمل!

أكتبُ كلامكِ هذا عن الأساطير الآن وأنتِ لا تعرفين أني سبق أن طويت هذه الصفحة معكِ سابقاً ، وما أريد أن أقوله لكِ قد قلته لكِ في لحظة غيابكِ ، فإن كان مقدراً لهذه الكلمات أن تصلكِ فستقرئين ما قلتُ ، وإن ظلّت حبيسة معي ، فقد ذهب الكلام سدى وإن كان سيقرأه غيركِ ، كل شيء لستِ فيه سدى ، تماماً كهذا العمر الذي ينقضي في هذه الزنزانة بدونكِ!

كلنا نتمسك بالأمل يا أسماء ، وإن بدونا يائسين أحياناً ، انظري حولكِ ستكتشفين أننا جميعاً حالمون ومتأملون أكثر مما ينبغي ، نبني بيوتاً للهدم ، وننجب أولاداً للمقابر ، نزف البنات ليصبحن أرامل ، ونزرع لتحصد الطائرات محاصيلنا ، لو أقلعنا عن الأمل لأقلعنا عن الحياة!

لم تكوني بحاجة إلى أن تسمعي هذا الكلام ، فما قلته يعرفه أطفال غزة فضلاً عن كبارها ، كنتِ تريدين مني أن

أُكذِّب لكِ خبر الحرب ، رغم أني أعرف يقيناً أن كل ما فيكِ يعرف أنها آتية لا محالة ، لهذا أردتُ أن أطوي هذا الحديث الذي بدا لي أن الاستمرار فيه لا طائل منه ، ثم إني آتي إليكِ لأستريح من وعثاء الخنادق ، ورائحة البارود ، وأكياس الرصاص التي تنتظر موعد أزيزها ، لهذا مازحتكِ قائلاً : ألا يوجد ضيافة اليوم؟!

ابتسمتِ تلك الابتسامة الحلوة التي تلد على خدكِ غمازة أذوب لها وقلتِ لي : عيوني لكَ .

- عيونكِ فقط؟

علت حمرة الخجل على محياكِ كأن الشمس في ذلك المساء ضلّت طريقها المعتاد إلى البحر وجاءت لتنام على في وجهكِ وقلتِ لي بصوت خافت يعتريه الخجل : كلي لكَ!

مددتِ إليّ يدكِ لتصحبيني إلى المطبخ كأم تريد أن تعبر بطفلها الشارع ، وأمسكتُ يدكِ وتركتُ خطواتي تمشي على إيقاع خطواتكِ .

وفي المطبخ جلستُ على الطاولة أراقبكِ تُعدين لنا القهوة ، دوماً أتخيل الأشياء تحبكِ كما أحبكِ ، عندما تختارين دلة قهوة من بين الدلال أتخيل سعادة الدلة التي اخترتها ، وأراها تمد لسانها لأخواتها الدلال وكأنها تقول لهنّ : لقد اختارتني هذه الحلوة! وعندما تصبين الماء فيها أتخيل الماء يقول لكِ : اشربي مني قليلاً ، بي عطشٌ إليكِ! وعندما تفتحين درج

الملاعق أتخيلها تتنهد كل واحدة تريد أن تلمسها يدكِ!

وعندما تضعين الدلة على النار لا أرى الماء يغلي بقدر ما أراه واقفاً على رؤوس أصابعه يحاول الوصول لأطراف أصابعكِ، وعندما تغرفين البنَّ وتلقمينه للماء أتخيله يقول لكِ: لا الماء أريد بل أنتِ، فذوبيني فيكِ!

وعندما تضعين الفنجانين وتجلسين أمامي على الطاولة وتملأينها بالقهوة أتخيّل كل فنجان منهما يناديكِ: خذيني أنا!

وعندما ترتشفين أول رشفة أسمعُ فنجان القهوة يقول لكِ: آهٍ من طعم شفتيكِ!

أمسكتُ يدكِ وقلتُ لكِ: غداً عندما نتزوج أُريد أن تنجبي لي بنتاً تُشبهكِ!

ضحكتِ وقلتِ لي: لماذا، لتحبها أكثر مني؟!

- سأحبها لأنها قطعةٌ منكِ.

- لا أريدُ أن ننجب بنتاً تشبهني، أريدُ أن ننجب صبياً يشبهكَ، محارباً قوياً فيه مسحة حنان.

- أأنا حنون؟

- أنتَ حبيبي.

- إذن اسمعي كلامي، ننجبُ بنتاً تُشبهكِ.

- كلا سننجبُ ولداً يشبهكَ.

- البنات أحنُّ من الأولاد يا أسماء.

- هذه ليست قاعدة دائمة، والحنان ككل الأشياء في

الحياة ، كالشر والخير ، والكرم والبخل ، والأمانة والخيانة ، ليست رجلاً أو امرأة ، من الرِّجال من هم أحنُّ من كثير من النساء ، ومن النساء من هُنَّ أحنّ بكثير من الرجال .

- صحيح ، ولكن بشكل عام النساء عاطفيات أكثر من الرجال ، لقد خُلقتن من ضلع قرب القلب يا أسماء ، وأثر الخلقة باقٍ فيكن .

- ربما ، ولكني أرجعُ وأقول لكَ أني أعرف مواقف كثيرة كان الرجال فيها أحنُّ من النساء ، ثم إن البنت تتزوج وتبتعد ، أما الصبي فيبقى سنداً لأهله .

- ما رأيكُ أن جدتي في هذا الأمر في صفي وليست في صفِّكِ .

تضحكين وتقولين لي : الجداتُ إلى جانب الذكور دوماً ظالماً أو مظلوماً ، انظر إلى وجوههن عندما تضع كنّة إحداهن بنتاً ، ستعتقد أن مصيبة قد حدثت ، وعندما تضع الكنة صبياً يطرن من الفرح!

- الجدات لا يكرهن البنات لأنهن بنات ، لو تأملتِ في قولتهن الشهيرة : همُّ البناتِ إلى الممات «ستجدين أنهنَّ يكرهن المواقف التي تضع الحياة فيها البنات ، وليست البنات أنفسهنّ ، نحن شرقيون يا أسماء والبنت عندنا مهيضة الجناح ، لهذا نحن نخاف عليها ولا نخاف منها!

- مجتمع ذكوريٌّ إذاً!

- سأقول لكِ شيئاً ولا تضحكي ، نحن مجتمع ذكوريٌ في الظاهر أنثوي في الخفاء! في بيتنا كما في كل البيوت يمكن أن يقول أبٌ لابنه عن شيء طلبه منه لا ، ولكن لاحظي عندما تطلب البنت شيئاً ، يهبُ الأب من ساعته لتلبيته وكأنه أمر السلطان! كنا ونحن صغار إذا تشاجرنا صبياناً ببعض ، يفصل أبي بيننا ومن النادر أن يهتم بسبب الشجار ، ولكن لو تشاجر أحدنا مع أخته لجُنّ جنونه ، ويصبُ جام غضبه على الصبيّ دون أن يهتم أيضاً لسبب الشجار ، دوماً في حالة كهذه يقول : هؤلاء ضيوف وغداً سيرحلن ، ممنوع أن يقترب أحدكم من إحداهنّ! حتى في قصص الزّواج! لو عرض الأهل على الابن بنتاً ولم تعجبه لقالت الأم على الفور : لا يعجبك العجب ولا الصيام برجب! ولكن لو تقدم شاب مناسب لبنت ورفضت فهذه حياتها ويتفق الكل أن لها الحقّ في أن تختار ، صدقيني نحن مجتمع أنثوي ، أو بتعبير أدقّ مجتمع ذكوريّ سيداته النساء!

- أتعرف . . يُعجبني فيكَ نظرتكَ المختلفة للأشياء ، لا تنطلي عليكَ المظاهر ، ولا تكتفي بما تشاهد ، وهذا تحليل إن لامس مشاعري من حيث أني امرأة ، فلم يغيّر قناعاتي من حيثُ أني ما زلتُ أريدُ أن أنجبَ ولداً يشبهكِ . .

أضحكُ وكلّي تلك النشوة التي تُصيبُ الرجال عندما يعرفون قدرهم ومكانتهم في قلوب نسائهم ، ولكني كعادتي أُكمل معكِ كل حوار ما أمكنني أن أفعل ، وما حدث يوماً أن

زهدتُ في سماعكِ أو الحديثِ إليكِ ، فقلتُ لكِ :

- سأروي لكِ حكاية من حكايا الجدّاتِ اللائي تقولين أنهنّ في صفّ الصبيان ظالمين أو مظلومين ، علّكِ بعدها تُغيّرين موقفكِ من حكايتنا صبي أم بنت ، أو من الجدات ، يُحكى أن امرأة أعجبت رجلاً كان يبحثُ عن زوجة ، فتقدم لخطبتها كما يفعل الرجال إذا وقعوا على ضالتهم من النساء ، وتمّ عقد الزواج ، وزُفّت العروس إلى زوجها ، وصبيحة اليوم التالي نهض الزوجُ ليذهب إلى السوق لشراء اللحم ، وعاد بعد ساعة يحملُ صنفين من اللحوم ، صنف فاخر وآخر رديء ، فسألته : لماذا أحضرت صنفين من اللحوم؟!

فقال لها : الصنفُ الفاخر لي ولكِ ، أما الصنف الرديء فسنطعمه لأهلي إذا جاؤوا اليوم لزيارتنا! فجمعت المرأة ثيابها وعادت على الفور إلى بيت أهلها ، وكم كانت دهشتهم عظيمة عندما رأوها تدخل عليهم في يوم صباحيتها ، فقصّت عليهم القصة ، وقالت لأبيها : أريدكَ أن تطلقني منه ، لا أريدُ أن أنجبَ منه أولاداً مثله ، يشترون لزوجاتهم اللحم الفاخر ولأمهم اللحم الرديء!

- معذورة هذه المرأة فيما طلبت ، ومعذورة أنا فيكَ بما أطلب ، لا تحاول معي ، لكثرة ما أحبكَ أريد للدنيا كلها أن تكون نسخة منكَ!

عدتُ إلى بيتنا يومها أفكرُ في هذا الحبّ الذي تحبيني إياه وأحبكِ إياه ، كانتْ هذه أول مرة أكره فيها الحرب إلى هذه

الدرجة ، لطالما كنتُ ضد الحرب ، أريدُ للناس أن يعيشوا بسلام ، أريدُ للأطفال أن يكبروا ، وللآباء أن لا يحزنوا ، وللأمهات أن لا يثكلوا ، وللزوجات أن لا يُرملوا ، ولكني كنتُ أخوض الحرب واحدة تلو الأخرى لأن حربنا لم تكن يوماً اختيارنا ، لقد كانت قدرنا! ولكني كرهتها هذه المرة أكثر من قبل لأني كنتُ أعرفُ أنها أول حربٍ سأخلِّفُ فيها قلبي وراء ظهري! ونحن كما أخبرتكِ سابقاً لا نخافُ من الذين أمامنا بقدر ما نخاف على الذين تركناهم وراءنا!

بدا لي يا أسماء أن الحرب كبقية الأشياء السيئة في العالم ، انتظار وقوعها أسوأ من وقوعها فعلاً! القلق يُفسد إحساسنا بكل شيء جميل حولنا ، والانتظار مضنٍ إذا كان انتظاراً لأشياء جميلة ، فكيف هو انتظار الأشياء السيئة ، وكلنا كنا ننتظر هذه الحرب ، لقد علمتنا حروبنا أمارات اشتعالها ، وقد أطلّت أماراتها ، فبدأنا نعيشها واقعاً قبل اندلاعها ، بدأ تجار الحروب يرفعون أسعار السِّلع ، لسنا ملائكة يا أسماء ، فينا شياطين أيضاً ، وفينا أناسٌ لا يسترزقون إلا في المصائب ، كبائع الأكفان لو لم يمت أحد لماتَ هو جوعاً ، وكحفار القبور إن لم يحفر قبراً لغيره سيحفر قبراً لنفسه!

بعضنا يُحارب مع أعدائنا وإن لم يحمل بندقية معهم ، فالحربُ لا تُدار بالبنادق فقط ، الحربُ لها أكثر من ميدان ، وفيها أكثر من صراع!

بدأ القلق يظهر على وجوه الآباء ، والخوف يسرقُ اللون الأحمر من وجوه الأمهات ، فتصبح صفراء تحت وطأة الخوف ، بدأت الإشاعات تسري في الناس سريان النار في الهشيم ، وبدأ المقاومون يغيبون عن منازلهم فترة أطول ، بدأت طائراتهم تُلقي المناشير على الناس تحذرهم من الاقتراب من الأماكن التي تُقصف عادة في كل حرب ، هم لا يخافون على حياة الناس بالتأكيد ، ولن أقول لكِ أن موتهم أو حياتهم عندهم سواء ، بل إن الإنسان الجيد عندهم هو الإنسان الميت! ولكنها الحرب النفسية يا أسماء ، يريدون أن يبثوا الخوف في الناس ، وعلى مرِّ التاريخ كان الخوف أعتى جنود الحرب ، من استطاع أن يجنّده في صفه يكسبُ الحرب لا محالة ، كان التتار أيام حملتهم المسعورة علينا يبثون الجواسيس الذين يثيرون الفزع بين الناس في المدن التي يريدون احتلالها ، فيحدثونهم عما فعل التتار في المدن الأخرى ، عن وحشيتهم ، عن انهزام من قاومهم في وقتٍ قصير ، يحدثونهم كيف أعدموا الرجال ، وكيف اغتصبوا النّساء ، وكيف أحرقوا البيوت ، وما أن يصلوا إلى المدينة ليحاربوها حتى تسقط سريعاً لأن الجنديّ خوف كان قد هزم الناس من الداخل قبل أن يأتوا هم فيجدوا المدينة واهية ، وهذا ما فعله أعداؤنا معنا يوم أقاموا دولتهم ، ففي كل قرية احتلوها ثم أقاموا فيها مجزرة ، كدير ياسين ، وكفر قاسم ، كانوا يتعمدون أن يبقوا على بعض الناجين ليهربوا إلى القرية

المجاورة ، ويحدثونها عن إجرامهم ، لقد أحسنوا تجنيد الخوف وأسأنا مقاومته ، لهذا انهزمنا سريعاً بالإضافة إلى أسباب كثيرة تعرفينها!

واندلعتِ الحربُ! وإن شئتِ سمها المجزرة ، بدأوا كالعادة مسعورين ، يقصفون المقرات التي يعرفون مسبقاً أننا أخليناها ، كنا في باطن الأرض ، وكنتم أنتم فوقها ، يعاقبوكم لأنهم فشلوا في النيل منا ، كنا على خطوط التماس كالنمل لا نهدأ ، أرادونا هناك بعيداً ليصطادونا بطائراتهم ، فوجدونا هنا على مقربة منهم نصطادهم برصاصنا ، وككل حرب يحاولون التقدم ، لا يدخلون حياً إلا بعد هدمه ، ثم نخرج إليهم من بين الأنقاض ، نثير جنونهم ورعبهم ، كانوا يقتلونكم بوحشية لأننا كنا نقتلهم ببسالة ، كان عندنا مبدأ واحد في تلك الحرب ، ليس عاراً أن يدخلوا إلى أحيائنا على أرجلهم ولكن العار أن يخرجوا على أرجلهم ، وكما تعرفين أننا لا نقبل عاراً أبداً ، كانت الأحياء المهدمة مصائد ، يدخلون بيتاً فننسفه على رؤوسهم ، يختبؤون خلف دبابة فنلتف عليهم ، كانوا لجبنهم يتراجعون فوراً ، وكنا من فرط استهزائنا بالموت نتبعهم ، لم يكن شيء يؤلمنا إلا أننا كنا نعرف أنكم الحلقة الأضعف في هذه الحرب ، مرّت عليَّ لحظات لم أكن أفكّر فيها بشيء سوى بندقيتي ، الدنيا كلها عندي هذا الخندق ، والهمُّ الوحيد الذي أحمله أن أرى جيفهم منتشرة بين الركام الذي أحدثوه ، وفي

لحظات الترقب التي تخبو بها أتون الحرب كنتُ أتذكركِ ، كنتُ ميتاً من القلقِ عليكِ ، لا أعرفُ أين أنتِ ، وما الذي حدث لكِ ، مرت عليَّ لحظات لم أكن أريد فيها إلا سماع صوتكِ ، أردتكِ فقط أن تخبريني أنكِ بخير ، لأقاتل بشراسة أكبر كي تضع الحرب أوزارها بسرعة ، كنتُ أعرفُ من الحروب السابقة أنه لا شيء يوقف الحرب إلا الجروح التي نحدثها فيهم ، كلما أوجعناهم أسرع كلما هرعوا إلى دبلوماسيتهم ليوقفوها ، مضحك هذا الأمر ومتناقض ، أن تكون الحرب هي الوسيلة الوحيدة للسلام!

كان العالم كله معهم ، ومن لم يكن معهم لم يكن معنا ، فدائماً وقف على الحياد ، الحياد أسوأ موقف عرفته البشرية يوماً ، أكثر المواقف خذلاناً ونفاقاً ، في حرب المظلوم ضد الظالم الوقوف على الحياد ليس حياداً إنه وقوف مع الظالم! ولكن ما هوَّن الأمر علينا هو أننا اعتدنا على حيادهم/خذلانهم ، ليست المرة الأولى التي يتفرَّجُ بها علينا إخوتنا وأعداؤنا ، لهذا أعددنا أنفسنا كي نكون وحيدين!

وكنا إذا سكت الرصاص تكلمنا ، ومرَّة قال لي أبو أحمد -وأبو أحمد في الخامسة والأربعين ولكنه يبدو في الخامسة والخمسين ، شاب باكراً من هول ما رأى- :

- ما بكَ يا حمزة؟

- لا شيء .

- أأنتَ خائف؟!

- بربك هذا سؤال؟ لقد جئتُ إلى هنا برجليَّ مثلك تماماً ، لم يرسلني أحد ، أتيتُ لأن نهايتي برصاصة في صدري أحبُّ إليَّ من الموت في منزل يُهدم سقفه عليَّ!

- لا تفهمني خطأً ، أعرفُ شجاعتكَ يا حمزة ، ولكن ثمة شيء فيكَ لم يكن من قبل ، في عينيكَ قلق لم أعهده . ثم ابتسم ابتسامة أب يمازح ابنه ، وقال لي :

- هل أنتَ قلقٌ على خطيبتك؟

- أنا قلق على الجميع يا أبا أحمد ، على أبي ، وعلى جدتي ، وعلى إخوتي ، ألستَ قلقاً على أهلك؟

- بالتأكيد ، وأنا هنا لأجلهم ، أعرفُ جيداً أن وجودي هنا أنفع لهم من وجودي بينهم ، نحن بشر يا حمزة ، ولسنا آلات قتل ، ولكن البنادق خشبة خلاصنا لهذا رضينا بآلامها ، ولكنك لم تجبني على سؤالي : هل أنتَ قلقٌ على خطيبتك؟

هززتُ رأسي بنعم دون أن أتكلم ، فربت على كتفي بحنو وقال لي :

- سترجعُ إليها يا حمزة لا تقلق ، كلنا عشنا هذه المشاعر قبلك ، نحن أرقُّ مما نبدو عليه ، تخيّل أنا أتشاجر مع زوجتي ككل الأزواج ، وأحياناً أشعر أنها عبء عليّ ، دوماً تريدني لها وحدها وأنا لا أستطيع أن أكون ملكاً لامرأة ، نحن أصحاب

قضية ، تزوَّجناها قبل أن نبلغ الحلم ، أحياناً تبدو لي أم أحمد ضرةً لهذه القضية .

- ألا تريدكَ أن تكون هنا؟

- على العكس تماماً ، هي تعرفُ أنّ مكاني الطبيعيّ هنا ، ولكنها لا تستطيع التوفيق بين حاجتها إليّ وانشغالي الدائم عنها ، نحن في حرب حتى إن لم يكن هناك حرب ، كنا نعدُّ لهذه المعركة قبل أن تقع ، وسنرجع منها لنعدَّ للمعركة القادمة ، النساء قيد يا حمزة .

- قيد جميل .

- هذا لأنكَ ما زلتَ في البداية ، غداً عندما يضع الحب أوزاره ستعرف ما الذي أعنيه .

- ومن قال لكَ أنه من الممكن أن أتوقف يوماً عن حبِّ أسماء؟

- لم أقصد هذا ، ولكن الحبَّ يأخذ بعد الزواج أشكالاً أخرى ، الآن أنتما تعيشان بقلبيكما فقط ، غداً عندما تتزوجان ستأخذ الحياة مجراها ، لن يرضيها الوقت القليل الذي يجمعكما الآن ، هناك أولاد ، ومتطلبات بيوت ، إنها الحياة ، صدقني .

- أعرف هذا جيداً ، ولكن لماذا على مشاعرنا أن تنهزم أمام الحياة؟

- هكذا نحن البشر تقلّ رغبتنا في الأشياء بعد أن نحصل

عليها ، ثم قال لي ضاحكاً :

كنتُ أحياناً أهربُ من كل شيء إليها ، الآن كثيراً ما أهرب منها إلى الأشياء!

- صرتَ تحبها أقل من قبل؟

- أبداً ، أنا أحبها أكثر من قبل ، ولكني على ما يبدو عاجزٌ عن إيصال فكرة كيف يأخذ الحب أشكالاً أخرى .

- أفهمكُ تماماً ، ولكن على ما يبدو أني أنا العاجز عن إيصال فكرة أني سأحب أسماء بذات الشغف طول العمر!

ثم قال لي كمن يُدافع عن نفسه :

- اشتقتُ إليها ، العشرة حبٌ يا حمزة ، لقد اعتدتها إلى الحد الذي أصبحت فيه جزءاً مني ، حتى شجاراتنا ، تبرمها الدائم من انشغالي عنها ، أشياء أشتاق إليها الآن كثيراً ، أريد أن أرجع إليها لأعرف أنها بخير ، أريدُ شجاراً واحداً أعرفُ فيه أنها بخير .

ثم على صوت رشقة رصاص سكتَ الكلامُ!

عشرون يوماً من وقوف الرقاب العارية أمام السيوف بثبات كانت كفيلة أن تنهي هذه الجولة من الحرب ، وعدتُ أدراجي أبحثُ عنكِ ، كنتُ قبلكِ إذا عدتُ من حربٍ أرجعُ رغم كل الدمار والخسائر منتشياً بالنصر ، فنصرنا ليس أن نهزمهم ولكن أن نفسد عليهم نصراً اعتقدوا أن تحقيقه سهل ، ولكن هذه المرة كان الأمر مختلفاً ، كان في هذه الحرب أنتِ ، ويجب أن أجدكِ

سالمة ليكتمل النصر! النصر دونكِ هزيمة مهما حاولت أعراس النصر أن تقنعني بالعكس، كنتُ أشعر بشيء من الأنانية لحظتذاك، ولكن ما هوّن عليّ هذا هو أني أعرف أن كل رفاقي مثلي، كل واحدٍ منهم عاد يبحث عمن تركه خلفه، يريدهم أحياء سالمين ليكتمل نصره، كل نصرٍ لستِ فيه منقوص، وكل عمر لستِ فيه موتٌ على قيد الحياة.

قصدتُ بيتكم فأخبرني أبوكِ أنكِ بخير، وأنكِ ذهبتِ إلى بيت أختك التي فقدت زوجها، ذهبتُ إليك دون أن أفكر كم سأبدو أنانياً حين لا أستطيع أن أكتم سعادتي بنجاتكِ في بيت لم ينجُ صاحبه! وعندما وصلتُ إلى بيت أختكِ انتبهتُ إلى هذا الأمر، فطلبتُ من صبي كنتُ أعرفه أن يدخل ليناديكِ، وخرجتِ إليّ، شاحبة ومنهكة، الدموع على خديكِ، والحزن مقيم فيكِ، ولكنكِ دون وعي ركضتِ إليّ وضممتني، دفنتِ رأسكِ في صدري، وأحطتكِ بذراعيّ فاكتمل النصر!

اشتقتُ إليكِ كثيراً يا أسماء، ليس ذلك الشوق الذي يصيبنا حين يغيب شخص اعتدنا حضوره، بل ذلك الظمأ الذي يصيبنا حين تنقطع بنا سبل الحياة، الشوق الذي يجعل الكلام يتكاثر في صدورنا محدثاً صمتاً هائلاً، لأنّ السمع الذي يليقُ به غارق في الغياب، الشوق الذي يجعلنا عالقين في مصيدة الذكريات، دون أن نملك أدنى فرصة للخلاص،

كنتُ في ذلك الغياب أزداد يقيناً بأني أريدكِ أن تسكني كل جزءٍ من كياني ، وأن تملئي كل دقيقة في حياتي ، وكم كان كربي يزداد كلما راودني هاجس فقدكِ ، كنتُ أشعر أن تلك الفكرة تسحقني تماماً ، وتحوّل كل شيء في عينيّ إلى رماد ، لذلك كنتُ مصمماً على أن نقيم الزّواج بمجرد أن تزول أسباب هذا البعد .

وحين عدتُ إليكِ . .

جندي يهزم الشوق ملامحه ، وعاشق حوّله غيابك إلى مدينة منكوبة .

ضممتكِ . . لا ضمة مشتاق وحسب ، بل ضمة غريق يعانق خشبة نجاته .

كان الموت في كل مكان كعادة المدن التي تستفيق من غيبوبة الحرب ، كانت الحياة عاجزة عن إظهار نفسها في تلك الأماكن التي تحمل بصمة الموت ، وكنتُ أرى في عينيكِ كل ذلك .

قلتُ لكِ ورأسكِ يرتاح على كتفي ويدكِ الصغيرة تختبئ بين يديّ :

- لنتزوج غداً .

- غداً؟

- أجل يا أسماء ، لنقم بهذه المراسيم التي يتوقف اجتماعي بكِ عليها ، لا أملك بعد الآن ذرة صبر تساعدني

على البقاء بدونكِ ، لقد أنهكني بعدكِ أكثر مما فعلت الحرب يا أسماء .

- أنا أيضاً أريد أن أكون معك اليوم قبل الغد يا حمزة ، ولكن الناس في حداد كيف يمكن أن نقيم عرساً ، أختي والكثير ممن كان له فقيد في هذه الحرب ، ألن تكون تلك أنانية منا؟

- نحن ندفع الحياة لتسير فقط يا أسماء ، إن حرماني منكِ لن يعيد فقيداً لأهله ، وإن كان علينا انتظار الحزن لينقضي لنكون معاً ، فلن نجتمع أبداً ، تعرفين أننا نعيش في مدينة تُصدِّر الأحزان لشدة ما تفيض بها .

- لا أعرف يا حمزة ، ولكن إن كنا سنفعل فدعنا لا نقيم احتفالاً ، ليكن شيئاً بسيطاً بين العائلتين ، نذهب بعده إلى منزلنا ، ولنهب ما كنا سننفقه على مراسيم الزفاف لبعض من تضررت بيوتهم ، أو فقدوا مصدر رزقهم ، وهكذا لا تكون سعادتنا محصورة علينا ، أو مؤنبة لنا بشكل ما .

- لا مانع عندي أبداً يا حبيبتي ، هذا القلب الذي لديكِ يجعلني أحسد نفسي أن لي فيه نصيباً .

- أنتَ كل ساكنيه يا حمزة .

- اشتقتُ لاسمي مغموساً بصوتكِ .

- اشتقتُ للأمان الذي لا أجده في مكان آخر غير هذا .

قلتِ ذلك وأنتِ تخبئين رأسكِ بين عنقي وكتفي وتهمسين مضيفة :

- أظن أن على الجغرافيين تصنيف هذه المنطقة كأكثر المناطق أماناً ودفئاً في العالم .

مازحتك قائلاً :

- ألا يضايقكِ أن يرتادها السواح إن عرفوا بها؟

رفعتِ رأسكِ إليّ وقلتِ بابتسامة تدارين بها مشاعر الغيرة التي أثارتها الفكرة فيكِ :

- يبدو أنكَ اشتقت سريعاً للمعارك .

أجبتكِ بنفس النبرة المازحة :

- ينتابني الفضول حول المقاتلة بداخلك .

أطلتِ النظر إليّ قبل أن تقولي :

- لا أنصحكَ بالتعرف عليها .

المسافة القصيرة بين وجهي ووجهك كانت تغريني بالاقتراب أكثر ، ولكن دون أن أقطعها بالكامل ، ثمة متعةٍ خاصة في تأمل وجهكِ من هذا القرب ، من هذه المسافة تبدو عينيك كهاويتين من العتمة ، تغري المرء بالقفز منتحراً ، وما يجعل المقاومة مستحيلة هي تلك النظرة اللذيذة ، والتي هي مزيج بين الغضب والتسلية ، أكاد أشعر أن أنفاسكِ تمر على خدي قبل أن تغادر ، وعلى شفتيكِ يرقص ظِل ابتسامة ، بينما تظهر الأفكار التي تدور في رأسكِ على صفحة وجهكِ بجلاء :

- لمَ لا؟

- قد لا تحبها .

- دعيني أقرر بنفسي .

- هي لا تقبل أن يشاركها فيكَ أحد . .من الممكن أن تموت في سبيل ردع ذلك .

- مقاتلة شرسة إذن؟

- حتى آخر قطرة من دمها .

- إذن أي نوع من الأسلحة تحمل؟

أشرتِ إلى قلبكِ دون أن تحيدي نظرتكِ عن وجهي

ودون أن أفكر أو أقاوم قطعتُ الطريق إلى شفتيكِ واستحوذت عليها بقبلة طويلة ، نفضت من خلالها عن كاهلي أعباء الحرب و الحب .

وتزوجنا . . . بعد عدة أيام وفي اجتماع عائليّ لا جلبة فيه ، صرتِ عروساً لي ، بوجهكِ الملائكي في ثوبكِ الأبيض الذي زاده جمالاً أنكِ ترتديه ، لم يكن ثمة عرس أكبر من ذلك الذي أقامه قلبي عند رؤيتكِ متجهة نحوي ويداكِ تضمان باقة من الورد الأحمر ينافسهما خداكِ المتوردان وشفتاكَ الحمراوان ، لم يكن بوسعي أن أشيح نظري عنكِ أبداً ، أردتُ أن أشبع عينيّ التي اعتادت طويلاً على رؤية الباهت من الألوان ، والمأساوي من المناظر ، أردت لها أن تحظى بهذه الجرعة الكبيرة من الجمال ، جمالكِ الذي كان فريداً بالنسبة لي ، وكثيراً بالنسبة لميزان مشاعري .

لم يكن ثمة الكثير لنقوم به ، لم نرقص ، ولم نغنِ ، ولم نقم الولائم ، ليس لقلة الفرح في قلبينا باجتماعنا ، بل ربما لكثرته ، وكان هذا ما قلته لي حين حاولتُ أن أعتذر لكِ حين غادرنا منزل أهلكِ بهدوء لم تعتده طقوس الزواج .

- أنا لا أشعر بأي نقص يا حمزة لتحاول مواساتي ، أنا أسعد نساء الأرض هذه الليلة ، لا يمكن لشيء في هذا العالم أن يعادل سعادة امرأة زفّت إلى الرجل الذي تحبه ، روحي ترقص ، ومشاعري تغني ، وكأن كنوز الدنيا كلها الآن بين يديّ ، أنا أغنى الناس بكَ ، زفافي هو خطواتي التي دخلتُ بها المنزل الذي يجمعني بكَ ، ما كنتُ لأكون أسعد حالاً مني الآن ، ولا كان همي أن أحصل على ما تحصل عليه النساء من الزواج ، همي أن أبني عالماً معكَ ، أستطيع من خلاله أن أحبكَ كما أرغب ، وأعيش معكَ دون أن يدخل بيننا شيء أو أحد ، أنا لكَ الآن بجسدي كما كنتُ لكَ من قبل بروحي ، وأنتَ لي ، ماذا قد يطلب المرء أكثر؟

- سأطلب منكِ دائماً أكثر ، سأطلب من عينيكِ المزيد من النظرات ، ومن قلبكِ المزيد من المشاعر ، ومن يديكِ المزيد من الحنان ، سأطلبُ منكِ دائماً ، لأنكِ كالسماء ، لديكِ كل ما أحتاجه ، ولا تعطين إلا والدهشة تأتي مع عطاياك ، الآن أصبحت هذه الجدران بيتاً ، وصار هذا السقف مأوى ، الآن يا أسماء لم أعد غريباً ، ولم تعد الحياة منفى . . أريد أن أعدكِ

بالسعادة التي يعد بها الرجال النساء في مثل هذا الموقف ، أن أحدثك عن حياة جميلة ومريحة تنتظركِ معي ، لكني لم أعتد الكذب ، لا سيما عليكِ ، فأنتِ تتزوجين من رجل محارب ، في وطن أقل ما يقال عنه أنه غير آمن ، ولكني أعدكِ بقلبٍ لا يخلو منكِ ، ولا ينبض بغير اسمكِ ، وروحٍ ترخص لأجلكِ ، أعدكِ أني لن أتوقف أبداً عن حبكِ ، فهذا كل ما أملكه لأعدكِ به يا أسماء .

– لا أريدك أن تعدني بالسعادة ولا بالمستقبل المشرق ، لست المرأة التي تنتظر مثل هذه الكلمات الفارغة من المعنى يا حمزة ، أنت لست إلهاً لتملك المستقبل ، فكيف يمكنك أن تعد بما لا تملك؟ كل ما أريده منك هو أن تبقى بجانبي ما أمكن تحقيق ذلك ، أن أجد كتفكَ لأستند عليه حين أحزن ، وعنقك لأطوقه بذراعي حين أفرح ، ويديك لأمسكها حين أخاف ، وصدرك لآوي إليه حين يشتد بي البرد أو التعب ، وكلماتكَ حين يهزمني اليأس ، أريدك أن تحبني كما يأتي من داخلك ، أن تعاملني كما يخبركَ قلبك ، لا أريد أن تؤدي لي دور الزوج الجيد ، أو تفعل ما تظن أنه واجبٌ عليكَ ، أنت تكفيني كما أنت ، لا أحتاج أكثر من أن نكون معاً .

الليلة الأولى التي نقضيها معاً ، لم تكن تشبه بالتأكيد غيرها من الليالي ، الخط الفاصل بين الأشياء لا بد له أن يكون مختلفاً ، وتلك الليلة كانت مختلفة ، في تلك الليلة قتلتُ

وحدتي تماماً لأنكِ معي ، لأن كل الحواجز التي كانت تحول بيني وبينكِ قد تهدمت تماماً ، أنتِ لي ، أنتِ المعنى لكل هذه القوالب التي أعيش فيها ، أنتِ من يجعل سريري صالحاً للنوم ، وأنتِ من يجعل بيتي صالحاً للسكنى ، وأنتِ من يجعل حياتي صالحة للعيش ، أحبكِ يا أسماء ، وسأحبكِ في كل ثانية من حياتي ، وأعرف أنني لن أفتر ، أتدرين لماذا؟ لأني لا أحبك لأجل الحب ، بل أحب الحب لأجلكِ ، الجميع يؤمن أن القرب الدائم يقتل الشغف ، وأنا أفهم هذه الفكرة ، أفهم لأن الحب لديهم حالة يجسدها شخص ما ، دور يمثله الحبيب ، أما أنتِ يا أسماء فالحب يمثل فيكِ دوراً ، والعشق يمثل دوراً ، والشغف يمثل دوراً ، قد تجمعين أدوارهم كلها في داخلي بضحكة واحدة تضحكينها ، وإن تلاشوا من الكون فأنتِ لا تتلاشين ، أنتِ شعور خاص وحدكِ ، اسمه أسماء ، لا يصفه إلا اللحظة التي تجمعني بكِ ، لم أكن أبحث عن الحب حين وجدتكِ ، لقد كنتُ أبحث عنكِ ، لم أكن أحاول أن أكون سعيداً حين تزوجت بكِ ، لقد كنت أحاول أن أكون معكِ ، وها قد نجحت ، نحن الآن معاً ، تفصلنا عن الخارج هذه الأبواب من حولنا ، وهذه المشاعر في داخلنا ، لا أرى سواكِ ، ولا أريد سواكِ ، ولا أعترف بشيء ليس جزءاً منكِ ، لأنكِ الآن كل شيء بالنسبة لي ، كل شيء يا أسماء .

حملتكِ ونحن نخطو خطوتنا الأولى من عتبة بيتنا

الصغير ، في عُرف الشعوب الأخرى يعدُّ حمل العروس تقليداً من تقاليد الزفاف ، ولكن في عرف القلب فأنا أحملكِ لأسباب شعورية بحتة ، لا علاقة لها بالتقليد ، ذلك أنني أريد أن تعرفي أنكِ من الآن وصاعداً سوجودة في كل خطواتي الحياتية ، أنا أحملكِ دائماً وأخطو بكِ دائماً ولو لم تكوني فعلياً بين ذراعيَّ ، وثمة سبب آخر ، هو أنكِ تصبحين لذيذة جديداً وأنتِ تتشبثين بعنقي كالأطفال ، ثم إنك جميلة جداً في ثوب الزفاف هذا ، أشد رقة من الفراشات ، وأكثر نعومة من الياسمين ، شعرك الأسود المعتم ينافس ردائك الأبيض الناصع ، فيبدو لي المشهد كما لو أن الليل والنهار حاضران في اللحظة ذاتها دون أن يلغي أحدهما الآخر .

- أهلاً بكِ في منزلك يا عروسي .

- أهلاً بكِ في حياتي يا حياتي .

- أجدني محتاراً في ما يمكن أن أقوله لكِ ، أشعر أني الآنَ عدتُ ذلك الطفل الذي يتعرف على النطق للمرة الأولى ، كنتُ أجهل معنى أن تعقد الدهشة لساني ، ولكنها الآن تفعل ، أنتِ دهشتي الدائمة في حياة لا تمل من الرتابة .

- لا تقل شيئاً يا حبيبي ، نحن معاً ، هنا يملك الصمت مشروعية أن يكون لغة ، ولغة فصيحة جداً .

- ولكني لن أكتفي بالصمت!

قلتُ هذا مبتسماً وأنا أداعب أرنبة أنفكِ بإصبعي ، وبلهفة

عاشق وجد الفرصة ليأخذ ثأره من الانتظار اجتزت الخطوة الأخيرة التي تفصلني عنكِ ، وأخذتكِ إليَّ .

الآن لديَّ متسع من الوقت لأسأل نفسي يا أسماء ، ما هو سرّكِ؟ هذا السر الذي فيكِ يجعلني غير قادر على البقاء بعيداً عنكِ ، غير غادر على البقاء دون رؤيتكِ ، ذلك أني لم أكن من قبل منقاداً إلى قلبي ، لم أكن ممن يلتفت إلى ما يخسره ويسمح للحسرة أن تنال منه ، لم أكن بهذا الضعف من قبل ، لقد كانت لديَّ دائماً القدرة على المضي قدماً رغم كل ما أفقده ، كنتُ أُربي قلبي على اللامبالاة بما يفقده ، كنتُ أعلمه ألا يعير الأشواق اهتماماً ، وكان يصغي ويطيع دون احتجاج ، أما وقد أحبَّكِ ، فلم يعد كلامي مسموعاً لديه ، ولا عادت الدروس التي قضيت عمراً في تلقينه إياها مجدية عنده ، لقد بات محموماً لا يهذي بغير اسمك يا أسماء ، أحياناً أفكر أن الأمر كله يكمن في عينيك ، نظراتكِ ربما ، أو لعلها رمشيك ، تلك التي حين تخفضينها للأسفل تصنع من وجهك وردة تضم بتلاتها خجلاً ، فتغري بالنظر إليها حتى تتفتح ، ولكنكِ حين ترفعينها يكتمل السحر فأشعر أني تحولت إلى نهر كان للتو جبلاً من جليد ، أو ربما هو صوتكِ ، الذي يجعلني أقسم كلما سمعته أن حنجرتك قصبة ناي ، وحين أفكر في شعركِ أقتنع أنه حبل مشنقتي الذي يجعل الانتحار به ألذ من الحياة ،

ثم أتراجع حين أفكر في ضحكتكِ لأجزم أنها مفتاح اللغز ، ولكنني حين أتخيل يديكِ أشعر أنني لا أحتاج أكثر من أن تكون الآن على خدي لأنسى العالم ، وجهكِ النقي كالماء عندما تعانقه الشمس يتحول الكون في عينيّ إلى قوس قزح ، وجهكِ المنير كالبدر ، كلما جنّ علينا الليل رأيت الكواكب تدور حوله ، أنتِ يا أسماء كل ما يربطني بهذه الحياة ، رائحتكِ ما زالت معي ، صوتكِ لا يغادر سمعي ، كلماتكِ تعيش بي ، أو تساعدني على العيش أكثر .

أتذكر الآن والشمس شحيحة في هذا المكان صباحنا الأول معاً ، حين فتحتُ عينيّ فلم أجدكِ بجانبي ، فظننتُ أن زواجي بكِ كان واحداً من عشرات الأحلام التي بدأتُ أنسجها مذ أحببتكِ ، لكن رائحتكِ في المكان كانت حقيقة ، والشعرة السوداء الطويلة على الوسادة لم تتلاشَ حين لمستها ، والدفء في صدري لم يكن وهماً ، حينها نهضتُ باحثاً عنكِ ، وجدتكِ في المطبخ تعدين الإفطار ، فتسللت خلسة من خلفكِ ، لأفاجئكِ بضمة ، وأنا أؤنبكِ قائلاً :

- من الصباح الأول تركتني وحيداً .

- لم أتركك ، ولكنك كنتَ نائماً كالأطفال ، فلم يُطعني قلبي أن أقطع نومك .

- لا أذكر أني نمتُ من قبل بهذا العمق وهذه الراحة ، كأني طيلة هذا العمر كنتُ أركض ، ولم أسترح إلا حين

اجتمعتُ بكِ .

وضعتِ يدكِ على خدي بحنان قائلة :

- حبيبي .

ثم أمسكتني من يدي كما لو كنتُ طفلاً صغيراً لا يعرف ماذا يفعل إلا من خلال توجيهاتكِ :

- أعددتُ لكَ حماماً دافئاً ، ما أن تفرغ منه حتى يكون الإفطار جاهزاً ، هيا لا تتلكأ .

ثم قلتُ لكِ : أعطني قبلة الصباح أولاً

طبعتِ على خدي قبلة رقيقة .

- خدي الآخر يريد واحدة .

أعطيتني إياها دون تردد وهمستِ لي :

- هيا

-أظن أنني لا أفضل فكرة أن نكون في مكانين منفصلين ، ألا يمكن أن يساعد كل منا الآخر في عمله على التوالي .

هززت رأسكِ ضاحكة ومضيتِ إلى المطبخ ، وتركتني أقف متذمراً حيث أردتِ .

كان حبي لكِ ينمو في قلبي بشكل هائل ، كنتُ سعيداً وممتلئاً بالحياة كما لم أكن في يوم من الأيام ، لم يكن ينقصني شيء ، ولم يكن يزعجني شيء ، تخليتُ عن الكثير من أفكاري المعتمة منذ عرفتكِ ، حتى أني نسيتُ فكرة الموت التي

كانت تعشش في رأسي ، أصبحت الحياة أكثر إغراءً بالنسبة لي ، لأن الحياة تعني أسماء ، غير أن هاجساً ينغص عليّ راحتي بين الفينة والأخرى ، أصبح الآن لديّ ما أخسره ، في السابق كنتُ قادراً على المضي قدماً تجاه المخاطر دون أن ألتفت خلفي ، كان قلبي نائماً لا يوقظه قلق ، ولا يزعجه خوف ، ولكن بوجودكِ اختلف كل شيء ، قلبي الآن جمرة ، لا شيء يُهدّئ لظاها سواكِ ، في أيامنا الأولى كان البيت جنتنا ، لم نكن نحب كثيراً أن نغادره ، حتى حين كنتُ أقترح عليكِ الخروج لمكانٍ ما كنتِ تقولين لي :

- أفضّل أن آخذ جولة في عينيكَ ، وأستكين بهدوء على شاطئ صدرك ، هذا مكاني المفضل .

لم أكن أعترض على رغبتكِ لأنها رغبتي أيضاً ، فالأماكن تكتسب جمالها من جمال من يرافقنا فيها وليس العكس .

- إذن سأعدُّ لكِ العشاء أنا هذه الليلة .

- تجيد الطبخ؟

- تقريباً ، لن تنامي جائعة لا تقلقي .

- لستُ قلقه ، يكفي أن أراكَ لأشبع .

- أما أنا فجائع لكِ دائماً ، لا أكتفي حتى بأكلكِ .

- هل أفهم من كلامك أنني سأكون وجبتنا للعشاء .

قلتُ لكِ بنفس طريقتكِ الساخرة :

- أظن أني سأكتفي بطهو قلبكِ هذه الليلة .

- مجرم .

- أحبكِ .

حين كنتُ أجلس على الشرفة معكِ تحت سماء غزة الهادئة ، كانت الحياة تبدو لي كلوحة رائعة ، منسجمة الألوان ، مكتملة الجمال ، النجوم في السماء وعيناكِ كانتا تكفيان لتصنعا الدهشة التي تحتاجها روحي ، كنتُ أكثر من يعرف أن قسوة العيش في غزة ليس ذنبها ، بل ذنب من جعلوها سجناً ضيقاً علينا ، كنتُ أشعر بحنانها في لحظات النضال الصعبة ، حين كانت تُخبئنا جيداً كي لا ينالوا منا ، في داخلي كنتُ أريد أن أصدق لأجعلكِ تصدقين أيضاً أن هذه الأوضاع الصعبة التي تخنق الحياة هنا ، مجرد مرحلة سنصنع نهايتها مهما طالت . . أرحتِ رأسكِ على كتفي لتنتزعيني من أفكاري ، أو لتؤكديها ، ثم سألتني :

- فيمَ تفكر؟

- في مقولة رسول حمزاتوف : «شيئان في هذه الحياة يستحقان الصراع : وطن حنون ، وامرأة رائعة» ... يبدو وكأنه يلخص أولوياتي في الحياة .

- الإثنان نفس الشيء .

- أجل من ناحية ما ، أحدهما لا بد أن يؤدي للآخر ، الحب والوطن ، يحملان ذات الشعور بالانتماء ، ويشكلان جزءاً من كيان الإنسان .

- يقال أن وطنك حيث حبيبك ، لأنك حينها تكون فعلياً تعيش في قلبه .

- هذا صحيح ، نحن نؤمن بهذا لأننا بلغنا هذه المرحلة من العشق ، ولكنها ليست صحيحة بالنسبة للأغلبية ، أزمة غياب الوطن تسرق حياة الكثير من الناس يا أسماء ، لأنها فكرة أساسية في ذهن الكائن البشري ، فكرة الانتماء للأرض جزء من تكوينه النفسي ، وهم بحاجة للأرض أولاً ليعيشوا على ظهرها الحب ، وقليل جداً من تسمو أرواحهم إلى الدرجة التي تجعلهم يعيشون الحب دون أن يشعروا بضرورة الانتماء إلى الأماكن .

- قضيتنا مختلفة أيضاً ، الأرض هنا ليست كسائر البلاد التي تكون مخيراً في هجرها أو تبديلها ، القضية هنا تمس العدالة ، والكرامة الإنسانية ، نحن هنا لا نقاتل من أجل حفنة التراب ، بل من أجل مبدأ دفع الظلم ، وإيقاف الغاصب عند حده ، لذا حتى العشق الذي يحرر الروح من هويتها ، يقف في صف الوطن ويقاتل لأجله .

- أجل يا أسماء ، الحب هنا سلاح أكثر منه شعور عاطفي ، الحب وسيلتنا للتشبث بالحياة ، نوع من أنواع المقاومة التي تتسم بها حياتنا بالمجمل ، حبي لكِ يجعلني أقوى وإن كان يضعفني من جهة خوفي عليكِ ، ولكنه يبقيني صامداً أطول فترة ممكنة .

اقتربت مني أكثر دون أن تقولي شيئاً ، كان ذراعي يشتد حول كتفيكِ ورأسكَ يجتاز كتفي ليتكوم كعصفور صغير عند عنقي ، أحب رائحة شعركِ ، لم يكن ثمة رائحة في هذا الوجود تشبهها ، عندما أدفن رأسي بين خصلاته الحريرية ، وأشعر وكأني سقطت في حديقة تجمع كل النباتات العطرية على هذه الأرض .

بعد أسبوعنا الأول قررنا أن نخرج لزيارة عائلتينا ، متعة المشي في الشارع بصحبتكِ تجعل الطريق الذي عبرته طيلة عمري على غير ما عهدته ، وكأن الأطفال الذين يلعبون الكرة في الشارع أصبحوا أكثر لطفاً وأقل شغباً ، وكأني أنا من أصبح أقل امتعاضاً من احتلالهم للطريق ورميهم الكرة باتجاهي كلما مررتُ بهم ، ربما كانت ابتسامتكِ عاملاً مساعداً في هذا المرح الشديد الذي أشعر به ، لذا علقتُ عليكِ مداعباً حين ركلتِ لهم الكرة التي رموها باتجاهنا متعمدين :

- هل تريدين أن نلعب معهم شوطاً؟

- لا مانع عندي إذا كنتُ ستجازف بالخسارة .

- لا شيء تكونين ضمنه ويعتبر خسارة .

- لن تقول نفس الكلام حين يسخر منا الصبيان .

- لا تحكمي قبل أن تجربي .

- عائلتكَ بانتظارنا ، هل تود أن تأتيهم بعروس تلعب الكرة مع الصبيان في الشارع؟

- إذا كانت عروسي ترغب في ذلك فلا مانع .

- أستطيع تأجيل رغباتي حتى يصبح لدينا أطفال ، حينها سنشكل فريقاً .

- هذا يعني أنكِ ترغبين أن تنجبي لي أحد عشر طفلاً .

- لا بأس بذلك إن كنت راغباً .

قلتِ ذلك وأنت تقاومين ضحكتكِ بتلك الطريقة التي لا تقاوم ، فأجبتكِ :

- هل تريدين أن آكلكِ الآن في الشارع؟

- لماذا؟

- ألا تعلمين كم تصبحين لذيذة حين تعضين شفتيكِ لتمنعي ضحكتكِ ، أطلقي سراحها قبل أن أفقد السيطرة .

- هل هذا تهديد؟

- وسيعقبه تنفيذ .

- لنعد إلى مسألة الفريق .

- أنا مستعد أن أنجب منكِ جيشاً ، لا مانع عندي .

- يكفي أن يكون لديّ طفل أنت والده ، ويكفي أن يكون شبيهاً بك .

- ولكني أريد بنتاً أيضاً ، وأريدها جميلة مثلك .

- أرجو أن يتسع بنا العمر لنحصل على الاثنين معاً ، وأن تسمح لنا هذه المدينة التي يظللها الموت أكثر مما تفعل سحب الشتاء برؤيتهم يكبرون .

- سنفعل ما يقع على عاتقنا ونترك الباقي للقدر ، ربما تنتصر أحلامنا في نهاية المطاف ، حين نعامل الخوف كحقيقة فإننا لا بد أن ننهزم ، لأن تلك الهزيمة قادمة من داخلنا أولاً ، ولكن حين نعامله كعرض جانبي من أعراض الحياة ، فإننا سنتمكن في النهاية من تحويله إلى شجاعة . أطفالنا الذين سننجبهم أمل هذا الوطن وخلاصه ، قبل أن يكونوا أملنا وحلمنا ، ورغم أن فقدهم سيكون وجعنا بمفردنا ، ولكنه لن يكون نهاية قضيتنا ، يجب ألا يكون ، يجب أن نأتي بغيرهم ، أن يكون هنالك دائماً من يحمل الراية قبل أن تسقط ، ليكمل المعركة .

- أي عدل هذا أن نفكر بالخسارة قبل الكسب؟ يبدو لي أن وضع الأطفال مع الموت في جملة واحدة من أقسى ما يمكن أن يقع على مسامع إنسان ، رغم أن هذا ما نعايشه فعلياً ، ولكن تقبله بالنسبة لامرأة ورجل هما مشروع أم وأب يبدو من الغرابة والإجحاف بشكل لا يمكن احتماله .

- هذا هو الواقع يا أسماء ، تجنب الحديث فيه لا ينفي وجوده ، كلانا يعلم أننا لا ننجب أطفالنا للحياة كسائر الأمهات والآباء ، بل ننجبهم للموت ، وثمة فرق ، إننا ننجبهم مدفوعين بغريزة البقاء والاستمرار ، أكثر منا مدفوعين بغريزة الأمومة والأبوّة ، لا نربيهم بآمال الآباء وطموحات الأمهات المعتادة ، لا ننتظر أن يكبروا ليحملوا شهادات المدارس

والجامعات ، بل لينالوا شهادة في سبيل الوطن ، أطفالنا محكومين بأن يكونوا مقاتلين حتى قبل أن ترى أعينهم النور ، لأننا جميعاً هنا نقف أمام الموت بصدور عارية ، كل طفل هو مشروع شهيد أو مقاوم ، وكل طفلة هي مشروع لأم شهيد أو مقاوم ، أدوارنا على مسرح الحياة محدودة بحتمية القدر الذي حوصرنا به ، فالطريقة الوحيدة التي نهزم بها الموت المستمر هي الولادة المستمرة .

الألم الذي ظهر على ملامحكِ بعد كلماتي الأخيرة كان يشبه كثيراً ذلك الذي في قلبي ، كنتُ أدرك أنكِ تعلمين كل هذا ، وأنكِ ترغبين فقط في تجنبه ، ليس لأنكِ تنكرين وجوده ، ولكن لأنكِ تريدين الحد من الألم الناتج عنه ، تريدين أن تعيشي ما تستطيعين من المشاعر الطبيعة لأي امرأة تنتظر أن تكون أماً لأطفال رجلٍ تحبه ، وكنتُ أدركُ أيضاً أن الحقائق التي جعلت كلماتي تبدو قاسية حين جهرتُ بها ، هي نفسها الحقائق التي تحملينها بداخلكِ دون أن تسمحي لها أن تهدمكِ ، أو تمنعكِ من عيش لحظاتكِ ، كنتُ أعرف يا أسماء أن المرأة التي أحبها قوية كفاية لتحمل آلامها وآلامي وآلام الوطن دون أن تفقد ابتسامتها شيئاً من رونقها ، لهذا أمسكتُ يديكِ بإحدى يديّ ، ورفعتُ بالأخرى وجهكِ الذي أحنيته لتداري عني الألم الذي بدا عليه ، واغتصبتُ ابتسامة لأقول مازحاً :

- لنكمل مسيرنا إذا كنتِ لا ترغبين أن تُغضبي حماتكِ البديلة من الزيارة الأولى ، فهي كحفيدها لا تحب الانتظار كثيراً .

لم أقبل ابتسامتكِ الشاحبة كجواب لذلك أحطتُ كتفيكِ بذراعي وأكملنا ما تبقى من الطريق باحتواءٍ صامت لبعضنا .

حين وصلنا كان أبي في استقبالنا ، عرفتُ من حفاوته في الترحيب بنا كم اشتاق إليّ ، وعرفتُ من مناداته لي يا «دب» أن الفراغ الذي خلفته لم يكن قليلاً ، فعادةً لا يخاطبني بهذا اللقب إلا حين أغيب عنه طويلاً فيشتاق ، أو أمرض كثيراً فيقلق ، ولكن حفاوته بكِ كانت أكبر ، كعادة الآباء مع بناتهم ، ذلك أن الحنان هو اللغة المستخدمة بين البنات وآبائهم في الغالب ، وأنتِ الآن ابنته .

أما جدتي فكانت كعادتها معي أيضاً تجهر بحنانها وشوقها كاملاً ، وتحتويني كأني غبتُ عن عينيها دهراً ، كما تستخدم سؤالها المعتاد للدلالة على اهتمامها بي :

- «كأنكَ نحفتَ قليلاً»

وكالعادة أجيبها أن الطعام الذي ينقصه حنان يديها لا يؤكل ، غير أن نظرة التوبيخ التي رمقتني بها كانت كافية لتجعلني أستوعب ما اقترفته من خطأ ، والابتسامة الخجولة التي مزجتها بها جعلتني أدرك أو آمل تفهمكِ ، ورغم هذا فقد أتى جواب جدتي في صالحكِ حين قالت :

- الآن عندكَ أسماء ، لن تجد أحن عليكَ منها .

- أنتِ الخير والبركة يا جدتي ، لا غنى لنا عنكِ .

قلتِ ذلك وأنتِ ترمين إليّ نظرة مفادها أن السحر انقلب على الساحر ، فهمستُ لكِ بصوتٍ منخفض :

- ألا يكفي أنكِ سرقتِ قلبي ، والآن تسرقين جدتي؟

- لا يكفي .

- طماعة .

- سأسرق بصماتها أيضاً لتأكل ما أعده من طعام .

حينها أدركتُ أن جبهة نسائية تشكلت في الجهة المقابلة ، لذلك آثرت أن أخوض أحاديثي مع والدي ، فأحاديث الرجال الصريحة لا تحمل في طياتها مقاصد خفية ، ولا مصائد يصبح فيها المرء طريدة من حيث يظن أنه صياد ، ولم تكتفِ جدتي بالوقوف إلى جانبكِ بل جعلتني مادة للتندر حين بدأت بسرد حكايات طفولتي وقصص مراهقتي دون أن تتنازل عن حس المبالغة الذي تتميز به ، فجعلت من جرائمي الصغيرة والبريئة جرائمَ كاملة ، غير أن أجمل ما في هذا أنه بدد السحب الحزينة التي كانت تخيم على عينيكِ ، وجعلتكِ تستغرقين في الضحكِ كأنكِ تشاهدين تلك الحكايا لا تسمعينها ، فقد كانت جدتي كمعظم الجدات ، بارعة في الوصف ، تستحوذ على كامل الانتباه ، ولا يخلو حديثها من متعة .

خرجنا من منزل العائلة بعد أن تناولنا معهم طعام الغداء ،

ولم أكن أرغب في العودة إلى بيتنا دون أن أصطحبكِ إلى الشاطىء ، فالتجول على الشاطئ مع امرأة مثلكِ -مليئة بالشوق كالموانئ- يجعل المشي هناك أشبه بعناق عاشقين جمعتهما اليابسة أخيراً بعد أن سرقهما البحر من بعضهما طويلاً ، كنتُ أحب كثيراً أن أراقب وجهكِ ونظراتكِ معلقة في الأفق ، بينما تتشبثين بذراعي كما لو كانت طوق نجاة ، وكل أفكاركِ وانفعالاتكِ تمر على وجهكِ الشفاف كالماء ، ومن وسط غرقي في تأملكِ انتشلني صوتكِ الذي جاء متسائلاً :

- لماذا تظن أن الناس لا يشعرون بحجم الحب حتى يفقدوه؟ لماذا ينتظرون حدوث شيء مأساوي كهذا ليستيقظوا؟

- ربما لأن الشبع يعطّل إدراكهم لمشاعرهم مؤقتاً ، فالجوع أكثر صخباً في التعبير عن حضوره ، ذلك أنه يُضعف عادة كل ما عداه من شعور ، ويسرق القوة في مجابهة أي شيء ، كما أن الفراغ مدوٍ ، لاحظي أن الصوت في الأماكن الفارغة يصبح مضاعفاً ، وهكذا المشاعر ، حين يخلو مكان إنسانٍ في حياتنا ندركُ حجم مشاعرنا تجاهه ، إضافة إلى صدى تلك المشاعر ، وهو الشوق .

- كلامكَ منطقي ، ولكن برأيي أن سبب ذلك هو حماقة الإنسان وقصر نظره ، الحب جدير بأن يُعاش في لحظته ، حال حضوره ، أقصد الحب الحقيقي والمتبادل ، الذي يخلق بداخلنا عواصف مستمرة تقتل ركودنا ، من الحمق الغفلة عنه ، وتركه

يذبل تحت مظلة العادة والإهمال ، هذا حب جديد بأن نعرف قيمته في حينه ، أن نتدفأ بناره طالما هي متقدة فينا ، ألا ننتظر أن تصبح رماداً لنشكو بردنا بعدها ، ألا ننتظر الخسارة لندرك مشاعرنا ، إن ما نشعر به حال غياب الحب عنا ليس حباً في الحقيقة ، إنه مجرد حسرة ، حسرة الخسران لا أكثر ، الحب يعني أن يبقى القلب يقظاً ، إن القلب العاشق لا يستطيع أن ينام ، أو يهدأ ، لمجرد أن المكان جمع بينه وبين من يحب ، القلب العاشق ينبض بالحب في الحضور ، أما في الغياب فيفقد قدرة النبض ، وبالتالي الحياة ، لا العكس .

كان جوابي واضحاً حين وضعتُ رأسكِ على صدري لتدركي أن قلبي حي ومتوقد ولا يكف عن النبض باسمكِ .

كان الصباح أكثر الأوقات التي أشعر فيها أنني أسعد خلق الله في أرضه بعد زواجي بكِ ، كان ثمة متعة خاصة حين أفتح عينيّ فتكونين بجانبي ، وأتأكد أن تلك الأيام التي قضيناها معاً ليست حلماً ، وأن الحياة لم تقم بلعبة ما لتفقدني عقلي ، وأني لم أكن أتخيلكِ ، وكانت متعتي الأكبر حين أستيقظ قبلكِ ، فأراقبكِ وأنتِ نائمة ، عيناكِ مسدلتا الستار ، رمشاكِ يلامسان أعلى وجنتكِ ، وثمة انفراجة بسيطة بين شفتيكِ ، تجعلني أرغب بوضع قبلة بينهما ، أنفاسكِ تعطر غرفتنا ، شعركِ متناثر حول وجهكِ وعلى وسادتنا ، أشعر حينها

أن عينيَّ تحصلان على تغذية بصرية كافية بتأملك ، ثم أوقظكِ ، بقبلة ، بكلمة ، وأحياناً إن سمح لي قلبي بالنهوض من جانبكِ ، أيقظتكِ بياسمينة ، ولم يحدث أبداً أن فتحتِ عينيكِ دون أن تهمسي اسمي مبتسمة ، كان هذا أكثر الطقوس تعذيباً لي في بُعدكِ ، وأكثرها إلحاحاً حين يأتي الصباح معلناً عن نفسه من تلك الكوة الصغيرة في الجدار ، المدعوة زوراً «نافذة» .

ونعدُّ إفطارنا معاً ، أشهى ما في تلك المائدة كان جلوسكِ معي حولها ، صوتكِ الذي يصبح أكثر بحة من أثر النوم ، وحديثكِ عما تفكرين أن نقوم به معاً اليوم ، وأنت تضعين حبّة الزيتون في فمي ، وتخبرينني أنكِ تفضلين المربى بنكهة المشمش ، وتصرين على أن تقطعي الخبز بالسكين ، فأفسد عليكِ عملكِ وأقطِّعه بيدي ، ثم تعلنين استسلامكِ بتلك الابتسامة التي تعلمين أنها إفطاري المفضل .

عند الباب تودعينني بقبلة ، وعنده أيضاً تستقبلينني بعناق ، وكنتِ تفسرين ذلك دائماً بقولكِ :

- حين تكون خارجاً أمنحكَ قبلة لترافقكَ في طريقكَ وتحرس قلبكَ ، أما حين تعود فإني أحتضنكِ لتعلم أن صدري بيتكَ لا هذه الحيطان .

كنتُ أحبُّ تفسيراتكِ الحلوة للأشياء ، وكنتُ مدمناً على كل تصرفاتكِ ، كنتُ أعشق طريقتكِ في الكلام ، طريقة

ترتيبكِ للمنزل ، طريقة تصفيفكِ لشعركِ ، طريقة إعدادكِ للقهوة ، طريقة أكلكِ ، طريقة مشيكِ ، صوتكِ حين تتحدثين بحماسة الفرح فتضيع بعض الأحرف من الكلمات ، أما حين تتحدثين بثقل الحزن فإن كل حرف يخرج وكأنه أخذ من صوتكِ جرعة كافية فتضاعف مكانه في الكلمة ، أحفظ كل تفاصيلكِ الصغيرة ، لأنها كلها تبدو في نظري كبيرة ومهمة ، وهي أنيستي في هذه الغربة التي لستِ فيها .

أتذكر الآن حين تعطل أحد مصابيح المنزل ، كنتُ منهمكاً في إصلاحه في اللحظة التي شعرتُ فيها بذراعيكِ تحيطان خصري وبرأسكِ يرتاح على ظهري ، ثم قلتِ لي ضاحكة :

- ماذا نفعل بالمصباح دون كهرباء ، دعنا نكتفي بالشموع كعادتنا كل ليلة وغداً تصلحه إن عادت الكهرباء .

- لا أحب أن أترك عملاً أستطيع إنجازه الآن للغد ، وإن لم يكن ثمة ما يدعو إلى إصلاحه سوى تعطله لكفى ، غير أن امرأة جميلة قد حضرت الآن وشتت حضورها كل تركيزي ، فمن الصعب التركيز على أمر آخر سواكِ حين تكونين في المكان .

- انتبه لي قليلاً إذاً .

- هل اشتقتِ إليّ؟

- أجل .

- كثيراً .

- أجل .

- بمقدار ماذا؟

- بمقدار عتمة الليل .

- فقط؟

- حسناً بمقدار ما تنقطع الكهرباء في غزة .

- أووه ، هذا كثير جداً .

- أرأيت؟

- أحب أن أرى أكثر .

- أصلح المصباح إذن .

- اضحكي هكذا دائماً ، وسنحصل على ما نحتاجه من ضوء ، يا قمري .

- كن معي دائماً ، ولن تذبل ضحكتي ، أنتَ ماء القلب .

- وهل يمكنني إلا أن أكون معكِ؟ لا يمكنني أن أبتعد عنكِ شبراً واحداً حتى .

- إذن دع المصباح للغد ، لدينا من الحب ما يكفي هذه الليلة لنحصل على نورنا الخاص .

- أنتِ تعيقين عملي كربٌ أسرة ، أرجو ألا تقومي بلومي على تقصيري لاحقاً .

- سألومكَ إن قصرتَ في اهتمامكِ بربة الأسرة .

- لن تجدي ما تلوميني عليه في هذه النقطة ، أنا مريض بربة الأسرة هذه .

- تعال لأزيدك مرضاً .
- ألن تداويني؟
- وهل تريد الشفاء مني؟
- أنتِ المرض وأنتِ الشفاء .
- أنا أحبكَ .

بعد أُسبوعين من زواجنا أردتُ أن أقدّم لكِ هدية كنتُ أفكر بتقديمها لكِ منذ وقتٍ طويل ، وقد حان وقتها ، قلتُ لكِ في ذلك الصباح :

- استعدي سنخرج بعد قليل .
- أين سنذهب في هذا الوقت؟
- الأسئلة ممنوعة هذا اليوم .
- سمعاً وطاعة ، ولكن لأعدّ لكَ الإفطار أولاً .
- الاعتراض ممنوع أيضاً ، استعدي سنفطر في الخارج .
- كما تشاء يا سيدي .

بعد عدة دقائق خرجنا من المنزل ، كنتُ أراقبُ وجهكِ وأنتِ تحاولين التكهن بالمكان الذي نقصده ، غير أنكِ لم تسألي أبداً ، لستِ امرأة تميل إلى الثرثرة أو تعاني من الفضول ، أُحبُ فيكِ سيطرتكِ المدهشة على نفسكِ ، قدرتكِ على البقاء ساكنة مهما كان ما يعتمل في صدركِ ، رغم أني أعرف جيداً ما تفكرين به من نظرة واحدة إليكِ ، لكن تظلين محافظة على

مظهركِ الهادئ عموماً ، ما لم يكن ثمة قوة قادرة على إخراجكِ من طوركِ ، وقلما تحدث .

تناولنا إفطاراً خفيفاً في مطعم على الطريق ، وأكملنا طريقنا بعدها إلى الجامعة ، حين دخلنا نظرتِ إليّ متسائلة دون أن تقولي شيئاً ، فابتسمتُ لكِ وأمسكتك من يدكِ لنواصل طريقنا ، ثم قلتُ لكِ :

- هل أخبرتكِ من قبل أني كنتُ أحلم أن تكون زوجتي محامية؟

- لم تخبرني ، وأعرف أن هذا لم يكن حلمك .

- حسناً ، كان حلمكِ أنتِ ، وأنا أنتِ ، لذلك وبدءاً من هذا اليوم ستعملين على تحقيق حلمنا .

- ماذا تقول يا حمزة؟

- الأسئلة ممنوعة كما اتفقنا ، لا أقبل جواباً غير نعم كما تعرفين يا حلوتي .

- نعم ، ولكن عليكَ أن تشرح لي الأمر .

- لا يحتاج الأمر شرحاً ، أوراقكِ معي أخذتها من منزل أهلكِ ، وسندخل بعد قليل لنجعلكِ طالبة حقوق ، وبعد خمس سنوات تسلميني وثيقة تخرجك مع مرتبة الشرف .

- حمزة ، أنا لا أعرف حقاً ما أقول .

- لا تقولي شيئاً لننتهي من الإجراءاتَ حتى نعود إلى منزلنا باكراً . . اشتقتُ إلى الانفراد بكِ .

كنتُ أعشق تلك النظرة في عينيكِ ، مزيج من الفرح الذي يضفي عليكِ طفولة لذيذة ، والدهشة التي تجعل عيناكِ تتسعان ، والحب الذي يضفي على سوادهما الحالك لمعة فتحولها إلى قطعة من السماء المزينة بالنجوم ، ضغطتِ بيدكِ على يدي قائلة :

- شكراً يا حبيبي ، أحبكَ ملء هذا الكون كله .

- هيا إذن ابدئي أول الخطوات في الطريق إلى حلمكِ .

- سأفعل ذلك معكَ يا حقيقتي .

كنتُ أشعر أن مهمتي الأولى هي إسعادكِ ، كان الحزن الذي يجرؤ على مسّكِ عدواً بالنسبة لي ، أغار على قلبكِ من أي شعور يمكن أن يبدد سكينكِ أو يطفئ إشراقة الشمس في داخلكِ ، بالنسبة لي كانت أسماء أولاً ثم العالم ، ليضحك وجه أسماء أولاً ثم يمكن حل أي مشكلة بعدها ، أغضب منكِ أحياناً فأغضب من نفسي لأنها غضبت منكِ ، تغضبين مني فلا يهدأ خاطري حتى تلين نظرة عينيكِ وتعود تنظر إليّ بذات الحب الذي اعتدته ، أحب كثيراً أن أراكِ مبتهجة ، كأن حياتي تستمد مزاجها من مزاجكِ ، كنتُ أعيش معكِ كل يوم كما لو أنه يومنا الأخير معاً ، بداخلي كان ثمة هاجس يقول لي دائماً لا تؤجل مشاعرك ، عش أيامكَ الجميلة هذه ملء قلبك ، لأنك قد تفقدها في أي لحظة ، حين أخبرتكِ ذات مساء بهاجسي هذا ، قلتِ لي بحزن :

- أتصدق أنني أعاني ذات الهاجس يا حمزة ، ذات الشعور الغريب بأن خطباً ما سينتزعك مني ، كأنه خنجر في خاصرة سعادتي .

- ربما لأننا نخشى السعادة ، ولا نصدق أننا نستحقها .

- وربما لأننا نولد من رحم الفقدان ، في مدينة مشيّدة من الخوف يصبح الشعور بالأمان مجرد دعابة سخيفة .

- أنا أشعر بالأمان كلما رأيتكِ ، كلما سمعتُ صوتكِ ، كلما لمستكُ ، أشعر بالأمان لذلكِ أخاف أن أفقده .

- لن تفقده ، لن نفقده .

قلتِ ذلك وأنتِ تلمسين بأصابعكِ خطوط وجهي ، وتنظرين بحنو إلى عينيّ ، تحاولين الوصول إلى أعمق نقطة فيهما لتبثي الأمان هناك ، ثم قبّلتِ وجهي شبراً شبراً ، وهمستِ في أذني :

- الحب يهزم كل شيء ، الحب سلاحنا الذي لا يمكن لأحد أن يسلبه منا ، نحن الأقوى لأننا ورغم كل شيء نملك القدرة على أن نعشق ونتخطى المسافات مهما طالت أو صعبت ، الضعفاء وحدهم يعجزون عن الحب ، الجبناء وحدهم يخشون أصوات قلوبهم ، نحن أقوياء .

- أنتِ قوّتي يا أسماء ، لو فقدتكِ لتهاويت .

- لن تفقدني ، لا تفكر في هذا حتى ، نحن معاً ، وسنظل معاً ، لن ننحني أمام أي عاصفة مهما اشتدت .

- لا تتركي يدي .

- لا يمكنني أن أتركها .

- لا تتوقفي عن حبي .

- لا يمكنني أن أعيش لو فعلت .

- ليكن وجهكِ كل صباح في حياتي ، ولتكن عينيكِ كل ليل في عمري .

- ليكن قلبك وطني .

- لا يكون قلباً إلا بكِ ، أرأيتِ قلباً دون نبض .

- حين نشيخ ويجلس أحفادنا حولنا سأحكي لهم كم كان جدهم مجنوناً .

- لا تنسي أن تحكي لهم كم كانت جدتهم فاتنة ليفهموا سر جنونه .

- ستحكي لهم ذلك بنفسك .

- سأكون مشغولاً حينها بالنظر إليكِ .

- لن تحب النظر إليّ في ذلك الوقت .

- سأحب ذلك حتى آخر ثانية في عمري .

- حتى والتجاعيد تملأ وجهي؟

- سأعشق تجاعيدك تلك ، فكل تجعيدة تدل على ضحكة ضحكتها معي ، أو تقطيبة قطبتها لحظة غضب مني ، التجاعيد توثيق اللحظات على وجوهنا يا أسماء ، وكم هي غالية لحظاتي معكِ على قلبي .

- ما الذي فعلته لأحظى برجل جميل مثلك؟

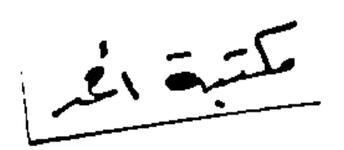
- جمالكِ ذنبكِ الوحيد في هذا .

وذات مساء طلبني الرفاق بشكل عاجل لعملٍ طرأ لنا في الأنفاق ، كان يُصعب عليّ كثيراً أن أتركك وأذهب ، ولكن لم يكن بوسعي إلا الذهاب ، لذلك قلتُ لكِ أن تتهيئي لأوصلك إلى منزل أهلكِ ، لأني قد أتأخر ولا أرغب أن تبقي وحدكِ هنا .

فرفضتِ مصرة على انتظاري في المنزل ، وقد كان عنادكِ هذا يجعلني في كثير من الأحيان أغضب منكِ ، ولكني أستسلم لأني أعرف أن لا شيء يمكن أن يغير رأيكِ .

- قد أتأخر .

- لا بأس .



- لكني سأقلق عليكِ .

- أنا أيضاً سأقلق عليكَ يا حمزة ، أرجو أن تتوخى الحذر ، وتنتبه لنفسك .

- سأفعل ، أغلقي الباب جيداً ، ولا تفتحي لأي طارق حتى تعرفي من يكون .

- لا تقلق .

- أحبكِ يا أسماء .

ضممتني بقوة وأنتِ ترددين بضعف : وأنا أيضاً . . وأنا أحبك يا حمزة .

- هل هذا يعني أني سأصطحب منزلي معي؟
- أجل ، لا أسمح أن تبقى في الليل خارج المنزل .
- سيبقيني هذا الحضن دافئاً ، وسأعود إليك سريعاً .
- افعل ذلك .

طال عملي كما توقعت ، استغرقت الليل كله خارجاً ، فكانت تلك الليلة من أطول ليالي حياتي قبل السجن ، لم أكن قادراً على الاتصال بكِ من تحت الأرض لأطمئن ، ولم أكن قادراً أيضاً على إسكات عقلي الذي يثرثر بكِ ، وقلبي الذي يعتصره القلق عليكِ ، ولكن لم يكن لديّ خيار سوى أن أكون مشتتاً بين مثلث العقل والقلب والعمل ، حين خرجتُ كانت الشمس قد ملأت الأرض بضوئها ، والناس قد دبوا على وجه الأرض كلٌ إلى عمله ، وكنتُ أحثُّ الخطى لأصل إليكِ بأسرع ما يمكن ، دخلتُ المنزل فوجدتكِ في المكان الذي تركتكِ فيه ، تجلسين على الأريكة وبيدكِ كتاب ، أغلب الظن أنكِ لم تقلبي صفحته طيلة الليل ، فعقلكِ كان لديّ كما كان عقلي لديكِ ، حين رأيتني نهضتِ إليّ مسرعة ، ودون أن تقولي كلمة واحدة طوقتِ عنقي بذراعيكِ ، لم تسأليني لماذا تأخرت ، ولا ماذا فعلت ، كنتِ فقط تنظرين إليّ نظرة فاحصة وتتحسسين وجهي بيدكِ ، وكأنكِ تطمئنين أن شيئاً لم ينقص مني ، أمسكتُ يديكِ ، قبّلت كل واحدة منهما على حدة ، وكل إصبع من أصابعك ، وكل مفصل فيها ، ثم ضممتُ

وجهكِ الجميل بين راحتيّ ، وهمستُ لكِ :

- أنا بخير غير أني ميّت من الشوق إليكِ .

- تعال ، لا بد أنكَ مُتعب وجائع .

- أنا بخير يا أسماء ، أنتِ المتعبة ، أرى في عينيكِ آثار السهر والبكاء ، لمَ لمْ تنامي حتى أعود ، أنا معتاد على العمل ليلاً يا حبيبتي ، لماذا ترهقين نفسكِ هكذا وتعذبيني .

- لا أقصد أن أعذبكَ يا حمزة ، لكني لم أستطع النوم ، كيف أنام وقلبي يقظ ، وعقلي تُضيئه آلاف الأسئلة ، ثم هذا السرير لا يمكن النوم عليه بدونكِ ، يصبح كالشوك في غيابكِ .

كنتُ أضمكِ إليّ وكأني أريد أن أدخلكِ في صدري كي أمنع أي تعب أن ينال منكِ ، وكنتِ تلتصقين بي كما يلتصق الصغير بأمه .

- ماذا سأفعل بكِ هكذا أيتها الشقيّة ، هل آخذكِ معي تعملين في النفق لترتاحي؟

- فكرة حسنة .

- مجنونة .

- لأني أحببتُ مجنوناً .

- هذا المجنون لا يريد من الدنيا الآن سوى أن ينام في حضنكِ .

ثم وضعتُ رأسي على صدركِ فتساقطت متاعبي كلها دفعة واحدة ، وكانت أصابعكِ في شعري تجعل هموم الحياة

التي تثقلني كلها تتلاشى كأن لم تكن ، الآن من هذا البعد المخيف تبدو لي تلك اللحظة مثل باب الجنة بالنسبة لشخص غارق في الجحيم .

ولم تكن تلك الليلة الوحيدة التي اضطررت فيها للخروج للعمل وقضاء الليل بعيداً عنكِ ، ولكنها كانت البداية فقط ، كنتُ أعرف أنكِ تعانين من قلقكِ عليّ ، رغم أنكِ ما كنتِ تتذمرين ، لكن نبرة صوتكِ والنظرة الشاردة في عينيكِ تشرح كلّ شيء ، قلتِ لي ذات مرّة :

- ما يزعجني يا حمزة ليس قضاء الليل بدونكَ رغم صعوبته ، ولكنني أخشى كثيراً أن يصيبكِ مكروه ، كلما حاولتُ أن أطمئن نفسي هزمتني مخاوفي .

- أتمنى لو كان بوسعي أن أقول ما يجعلكِ تشعرين بالراحة ، ولكنني أعرف جيداً أن كل الكلام لا يمكن أن يسد ثغرة الخوف في قلبكِ ، هذا قدرنا يا حبيبتي ، وكل ما يسعنا عمله هو التعايش معه بشكل ما ، ثم أنا في هذا العمل منذ أعوام ، لستُ مبتدئاً أو قليل الخبرة ، سأحافظ عليّ لأجلكِ وأعيدني إليكِ ، ثقي بي .

- ثقتي بكِ لا حدود لها ، لكني لا أثق بالحياة .

كنتُ أعرف ما تفكرين به ، وأعذر مخاوفكِ لأنها ليست وهماً ، فقد كان عملي خطراً ، في مدينة كل بقعة فيها تشبه الفخ ، وعدو لا يفوّت فرصة لاصطيادنا ، وكنتُ خائفاً أيضاً ،

لا من الموت أو السجن ، بل من أن أكون سبباً في حزنكِ ، أو أضطر إلى فقدكِ ، لكن لم يكن أمامي الكثير من الخيارات ، حتى الموت هنا يمارس مهامه على غير ما اعتاد ، فيحضر في أول العمر لا في آخره ، إن الموت هنا يسمى قتلاً أكثر منه موتاً ، حين سمينا أمواتنا شهداء كنا بذلك نوثّق كفاءتهم في مغادرة الحياة بطريقة لائقة بهم ، ونعترف أن هذه المدينة إن كانت ما تزال قائمه فلأنها تستند على أرواحهم ، لذلك لم تكن الرصاصة تنجح إلا في قتل الجسد ، بينما تبقى الروح لتصنع لغزة كيانها المنفرد ، قلة أولئك الذين ماتوا هنا موتاً طبيعياً ، لأن الحياة هنا غير طبيعية أبداً .

.

.

وأخيراً حانت اللحظة التي تقف وراء كل هذا الكلام!

كانت جدتي بحاجة لإجراء عملية لا يمكن إجراؤها في غزة ، وكان معبر رفح مغلقاً دون أفق واضح بموعد إعادة فتحه ، حين يغلقُ أخوكَ بابه في وجهك تطرق باب عدوك المفتوح!

قررنا إجراء العملية لها في الضفة الغربيّة وكان لزاماً كما تعرفين أن نمرَّ على المعبر الإسرائيليّ ، لقد قطعوا أوصال هذه الأرض وجلسوا عند كل مفصل من مفاصلها ، يراقبون حتى الهواء الداخل إلينا ، ولم يكن لجدتي مرافق سواي ، أبدى أبي استعداده أول الأمر ولكني خشيتُ عليه وعثاء الطريق ومشقة

المعابر ، فأصررتُ على الذهاب برفقتها ، وحاول هو أن يثنيني عن رفقتها متذرعاً أنَّ المعبر ليس آمناً لي ، وحاولتُ إقناعه أن لا أحد هناك يعرفني ، نحن رجال الخنادق لا رجال الإعلام والصحف والتصريحات ، يعرفنا باطن الأرض أكثر مما يعرفنا ظهرها ، وكنتُ شخصياً حريصاً أن لا يعرف أحد هوية عملي ، من الخندق إلى البيت ومن البيت إلى الخندق ، حتى رفقتي كانت صحبة دراسة وبعضهم لم يكن له في هذا الأمر ناقة ولا جمل ، لهذا كنتُ مطمئناً أني مجهول لديهم ، مجرد إنسان يعيش في هذا السجن الكبير المسمى غزة بلا عمل ولا أمل ، ولكني كنتُ مخطئاً كما لم أكن هكذا من قبل ، عندما وصلنا إلى المعبر أجلستُ جدتي في مكان ظليل خوفاً عليها من ضربة شمس ، وأخذتُ أوراقي وأوراقها لأحصل لي ولها على إذن مغادرة ، وعندما ناولتُ الجندي الأوراق ، كتب الأسماء في جهاز الكمبيوتر ، ثم نظر إليَّ بدهشة ، وأعاد النظر في جواز سفري ، وبطاقة هويتي ، ثم رفع سماعة الهاتف وتكلم بالعبرية كلاماً لم أفهمه ، وما هي إلا لحظات حتى جاء أربعة جنود واقتادوني ، اثنان منهم أمسكوني من ذراعي ، واثنان صوبوا إليَّ بنادقهما ، فمشيتُ إلى هذا المصير الذي تعرفينه .

كانت المسافة الفاصلة بين شباك التذاكر والغرفة التي اقتادوني إليها مئة متر تقريباً ، وكانت هذه هي أطول مئة متر مشيتها في حياتي!

استرجعتُ شريط حياتي كله وأنا أمشي ، وعرفتُ أننا لسنا ملائكة ، منا شياطين أيضاً ، وبيننا جواسيس لولاهم ما كان لهؤلاء أن يعرفوا عني شيئاً ، هؤلاء المرضى الذين باعونا لأعدائنا بالمال ، عرفتُ وأنا أمشي يا أسماء صدق المقولة : القلاع الحصينة لا تسقط إلا من الداخل!

ونحن لم نكن قلعة حصينة بقدر ما كنا قلعة محاصرة ، فإذا كانت القلاع الحصينة لا تصمد على خيانة الداخل ، فكيف بالقلاع الجائعة!

تذكرتُ أثناء سيري وتفكيري في حقارة هؤلاء حرب طروادة وإسبارطة ، لم يخطر ببالي غير الحصان الخشبيّ الذي تركه الإسبارطيون على مداخل طروادة بعدما دسوا فيه جنودهم الأشداء وأوهموا الطرواديين أنهم سئموا من حصار المدينة وانسحبوا ، فجاء الطرواديون وأدخلوا الحصان الخشبي إلى المدينة معتبرين أنه غنيمة حرب ، وأقاموا الأفراح والليالي الملاح ، وشربوا حتى ثملوا ، عندها فرح الجنود وفتحوا أبواب المدينة ودخلها الإسبارطيون ، لقد كان هؤلاء الخونة حصان أعدائنا ، مع فارق بسيط أن الجنود الذين أسقطوا طروادة لم يكونوا من أهلها ، أما هؤلاء فمنا ، لهم نفس الوجوه التي لنا ، ونفس اللغة التي نحكيها ، في شرايينهم دمنا الذي هان عندهم!

تذكرتُ وأنا أمشي يا أسماء مدى خسّة هؤلاء في عيوننا وفي عيون أعدائنا وإن عملوا كلاب صيد عندهم ، وخطرت لي

قصة نابليون مع الضابط النمساويِّ التي قصصتها عليَّ مرة ، أتذكرينها!

تلك القصة التي تحكي رغبة نابليون الجامحة في احتلال النمسا ، وعندما رأى مقاومة أهلها الشرسة وعرف أنها قلعة حصينة ، عرف أنه لا بد من سُمٍّ يقضي عليها من داخلها ، فجنّد ضابطاً نمساوياً مريضاً كالمرضى الذين عندنا ، وأغراه بالمال والجاه ، وعندما سقطت النمسا ، جاء نابليون على حصانه ، وعندما صار بمحاذاة الضابط ألقى إليه كيساً من الذهب ، فقال له الضابط :

- أريد أن أتشرف بمصافحة الإمبراطور!

فقال له نابليون : الذهب لأمثالك ، أما يدي فلا تصافح من خان وطنه!

وعندما انتهى شريط الذكريات وهذه الوقائع كانت المئة متر قد انتهت أيضاً ، وصلنا إلى غرفة ، وعندما أدخلوني أفلتوني ، وضربني أحدهم بكعب بندقيته على ظهري ، ثم ضربني آخر على رأسي ، فأغمي عليَّ ، ولم أستفق إلا وأنا معصوب العينين ، مكبل بالسلاسل إلى وراء ظهري ، وجالس على كرسيٍّ كانوا قد كبلوا رجليَّ إليها أيضاً!

مضى ما يقارب الساعة وأنا على هذه الحالة ، لا أعرف شيئاً عن الغرفة التي أنا فيها ، ولا أرى أحداً ، ثم بعد ذلك جاء الجنود وفكوا رجليَّ المقيدتين بالكرسي ، واقتادوني خارج

الغرفة ، ثم أركبوني في جيب ، لم أكن بحاجة لأن أراه لأعرف أنه جيب عسكري ، ولم أكن بحاجة إلى كثير ذكاء لأعرف أنهم ينقلوني إلى مكان آخر ، يبدو أنهم تثبتوا من هويتي ، وعرفوا أني فعلاً المذكور في التقارير التي وصلتهم من جواسيسهم!

مشى الجيب العسكري ما يُقارب الساعة من الوقت ، ثم وصلنا إلى جهنَّم ، لم يكن ما قبل هذا الوصول إلا تحمية لما كان بعده ، عندما أنزلوني لم أعرف من أين تنزل عليَّ اللكمات ، مقيد إلى ظهري ومكشوف تماماً ومغمض العينين ، تخيلي هذا الموقف يا أسماء ، كنتُ ككيس الملاكمة الذي وقع تحت ضربات ملاكم ذات تدريب شاق ، وبعد عدة لكمات وشتائم وقعتُ أرضاً ، كنتُ أظن أن الأمر انتهى عند هذا الحد ، ولكنهم استمروا يركلوني بأحذيتهم العسكرية القاسية في كل أنحاء جسدي ، ثم سحبوني مسافة قصيرة على الأرض ، بعدها شدني أحدهم من شعري يوقفني حتى بدا لي أن فروة رأسي ستنخلع في يده ، وأخيراً من صرير الباب عرفتُ أننا وصلنا إلى غرفة ، أجلسوني على كرسي وقيدوا رجليَّ إليه كما كنتُ في الغرفة التي أوقفوني فيها عند المعبر ، بقيتُ هناك وقتاً لا أعرف ، فقدتُ إحساسي بالوقت يومها ، كنتُ أريد من أحد أن يكلمني ، أن يخبرني أنهم يعرفونني وسيعدمونني رمياً بالرصاص ، أردتُ أن ينتهي كل هذا ، وبعد كل هذا الوقت

سمعتُ صرير الباب مجدداً ، وعرفتُ من صوت الخطوات على الأرض أن جنوداً قد حضروا ، ثم سمعتُ صوت كرسيّ ينزاح فعرفتُ من حديث رفاقي الذين سبق أن اعتقلوا أنه حان وقت التحقيق ، وبالفعل لم يطل الأمر كثيراً .

كان المحقق يتكلم العربيّة بشكل جيد ولكن في لهجته لكنة عرفتُ من خلالها أنه ليس عربياً ، وكان أول ما قال لي :

- اسمع يا حمزة ، نحن نعرف عنك كل شيء ، لهذا لا تحاول أن تكذب وإلا سأجعلك تندم على اليوم الذي ولدت فيه ، ما اسم قائد مجموعتك وما اسم الذين معك .

- ما دمتَ تعرف كل شيء فلم تسألني؟

وما كدتُ أنهي جملتي هذه حتى كان كعب البندقية ينزل على رقبتي كالمطرقة ، وقتها عرفتُ بخبرتي الأمنية التي حصلتها من دورات الأمن الكثيرة التي درستها أنهم لا يعرفون الكثير ، إنهم لا يعرفون إلا الخطوط العريضة ، يعرفون هويتي وعملي فقط ، وهذا ليس بالشيء الكثير ، وعرفتُ أيضاً أن التعذيب الأشد قادم ، فالمحققون لا يعذبون إلا من لا يعرفون عنه الكثير!

ثم قال لي المحقق :

- ستعترف بكل شيء صدقني ، سأجعل ليلك نهاراً ، ونهارك ليلاً ، يمكنك أن توفر عليك وعلينا كل هذا العناء ، أخبرني بكل شيء وسأعيدك الليلة إلى منزلك .

- ليس عندي شيء أخبرك به .

ومرة أخرى سقطت أعقاب البنادق على كتفي ، ثم تركوني مقيداً على الحال التي أنا فيها ، وانصرفوا ، وبقيتُ هكذا حتى جنَّ الليل الذي لم أره ولكنني توقعته قياساً للوقت الذي مضى ، ثم جاء الجنود وفكوا رجليَّ واقتادوني ، فظننتُ لحسن ظني أنهم سيضعوني في زنزانة لأنام ، وكان هذا كل ما أريده في تلك اللحظة ، ولكنهم أوثقوني مرة أخرى واقفاً إلى عامود ، حتى النوم واقفاً حرموني إياه ، فكلما مرَّت ساعة سكبوا عليَّ دلواً من الماء البارد وتركوني أرتجف بانتظار الدلو الذي بعده!

كانت ليلة بطول العمر يا أسماء ، لا أعرف كيف احتملتها ، وفي الصباح حضر الجنود وفكوني ثم اقتادوني إلى غرفة التحقيق مرة أخرى ، لم يسألني أحد إن كنتُ أريد طعاماً أو شراباً ، وكان آخر طعام ذقته في إفطاري الأخير معكِ قبل أن أخرج برفقة جدتي!

في غرفة التحقيق الجديدة ، أوثقوا رجليّ إلى الكرسي كالعادة ثم تركوني وانصرفوا ، بعد قليل حضر محقق عرفتُ من صوته أنه غير المحقق الأول ، نزع العصابة عن عينيَّ ، ثم استدار وجلس وراء مكتبه الذي لم يكن يفصل بيني وبينه غيره ، حاول أن يكون لطيفاً معي ، طبعاً هذا أسلوب آخر في التحقيق درسته وحانَ الوقت كي أطبقه!

ثم قال لي المحقق :

- هل تريد سيجارة؟

- أنا لا أدخن .

- غريب ، مع أن رجال الأنفاق أغلبهم يدخنون .

- وهل كنتَ رجل أنفاق؟

- لا ، ولكنك كذلك ، أخبرني هل يدخنون؟

- لا أعرف

ثم قال لي بلطف :

- لا أخفي عليك يا حمزة أن وضعك صعب ، التقارير التي وصلتنا تكفي لسجنك مدة طويلة حتى لو لم تخبرني بشيء ، لماذا لا تعمل معنا ، فكّر في الأمر ، لن تستطيعوا هزيمتنا ، أنتم تخوضون معركة خاسرة وحدكم ، ونحن كما تعرف كل العالم معنا .

حاولت أن أضبط أعصابي ، وفكرت للحظة أن لا أرد عليه ، ولكني عرفت أني سواءً تكلمتُ أو لا فسيسجنونني على أية حال فقلتُ له :

- اسمع ، نحن لا نقاتل لننتصر وإنما نقاتل لنبقى وهذا هو الفرق بيننا وبينكم ، نحن نستطيع أن نحتمل الهزيمة تلو الأخرى ، أما أنتم فهزيمتكم نهايتكم ، هذا هو الفرق بين المحتل و صاحب الدار .

- لماذا لا تتعاون معنا كي نعيش بسلام على هذه الأرض معاً؟

- كيف أتعاون معكم؟ أخبركم بأسماء المقاومين لتغتالوهم؟ وأرشدكم إلى المقرات لتقصفوها؟ هذا هو سلامكم، سبيلكم إلى السلام يمر عبر طريق الدم، أنتم قتلة مهما حاولتم أن تبدوا في كلامكم غير هذا، أنت الذي تحدثني عن السلام لو عثرت عليَّ في معركة كنتَ ستقتلني.

- وأنتَ ألن تقتلني؟

- بالطبع سأفعل.

- أنتَ إذاً مثلي

- أبداً نحن لا نشبهكم ولن نشبهكم، فلا يوجد وجه مقارنة بين من يقتل اعتداءً على حق غيره، وبين من يقتل دفاعاً عن حقه!

- أنتَ لا تفكر بعقلكَ يا حمزة، لقد غسلوا دماغكَ، فكر بنفسكَ قليلاً، بزوجتكَ، بأبيكَ، بجدتكَ المريضة، تعاون معنا وسأعيد إليكَ كل هذا، مع راتب ضخم لا يحصله أكبر تاجر في غزة.

- أنا هنا لأجل زوجتي وأبي وجدتي، لا تتعب نفسك معي، وهذا الوجه البريء الذي تحاول أن تظهر فيه لا يخدعني، أنتَ قاتل مثلهم، كلكم كذلك.

رشقني بفنجان القهوة الذي أمامه قائلاً: كلكم حيوانات.

ثم وضعوني في زنزانة انفرادية إن اتسعت لن تزيد عن مترين كأنها قبر على مقاسي تماماً، قضيتُ فيها شهرين كانت

أطول من العمر الذي قضيته على هذه الأرض ، ثم شكلوا لي محكمة عسكرية ، مسرحية هزلية ، الكل ضدي حتى المحامي الذي عينوه لي كان ضابطاً في الجيش ، وعرض عليَّ أن أتعاون معهم وهو يتعهد بإخراجي من هنا ، وعندما رفضت كما كان يجب أن أفعل ، قال لي :

- أنت حر ، ابق في السجن حتى تتعفن!

وكانت نتيجة المهزلة التي أسموها محكمة أن أعطوني حكماً يقضي بسجني ثماني سنوات!

وأخيراً نقلوني من زنزانتي الانفرادية إلى زنزانةٍ مع النَّاس يا أسماء ، شعرتُ أنهم أطلقوني لا نقلوني من زنزانةٍ إلى أخرى! في تلك الكوَّةِ الصغيرة كنت أحسُّ كأني أتنفسُ من خرم إبرة ، وكأنَّ جبال الأرضِ كلها جاثمة على صدري ، أما الآن فالفضاء كله لي ، وتلك الجبال صارت قاعاً صفصفاً!

العزلة قاسية يا أسماء ، وحدكِ بمواجهة الوقت الذي لا يمضي! لا تعرفين أنَّ النهار قد طلع إلا من صرير أبوابِ الزَّنازين المجاورة ، ولا تعرفين أنَّ الليل قد حلَّ إلا من خطوات السَّجانين التي خفتتْ ، هكذا كنتُ أحسب الزمن ، بالأصوات ، أصوات الأبواب ، وأصوات الأحذية!

عندما يعزلونكِ لا يأخذونكِ من العالم ، يأخذونكِ من نفسكِ ، تصبحين كآدم يوم أُنزلَ إلى الأرض بعيداً عن حواء ، وكحواء يوم أنزلتْ بعيداً عن آدم ، أحسستُ بهما في لحظاتي تلك ، تخيلتُ كم الأرض ضيقة على اتساعها ، ماذا يفعل امرؤ على ظهر الأرض وحده ، فكيف بي وقد كنتُ في مترين من الاسمنت وحدي!

لا حواء أنقِّبُ الأرض عنها وأتعزى أني سألتقيها ، ولقد كنتِ أنتِ حوائي التي سمَّروني مكاني وحرموني البحث عنها ، فبمَ أتعزى يا أسماء؟!

في الزنزانةِ الجديدةِ الضيقة بالمساحة ، الواسعة بالرِّفاق ، صار لي صحبة ، كنا مختلفين ، منا الإسلاميّ ، ومنا الليبراليّ ، ومنا اليساريّ ، ومنا من ليس له معتقد غير حُبٍّ هذه الأرض ، ولعل هذا كان معتقدنا جميعاً ، فرقتنا الأفكار ووحدتنا هي ، كلّنا متهمون بحبها ، ولكن كل واحد منا دخل هذا السجن من طريق حسبها تؤدي إليها!

كنا نختلف كثيراً ونتفق قليلاً كزيت وماء في كوب واحد لا يختلطان إلا للحظات إثر تحريكٍ شديد ، ولكن بعد أن يهدأ هذا المزيج ننفصل ، الماء في الأسفل والزيت في الأعلى ، وكلنا داخل هذا الكوب!

في الزنزانة الجديدة تعلمتُ أضعاف ما تعلمته على مقاعد الدراسة في الجامعة ، وخضتُ سجالات فكرية ونقاشات

سياسية أضعاف ما خضتُ خارجها ، واستمعتُ لحوارات ما كان لي أن أسمعها لو أني لم أكن هنا ، ولقد كان هذا هو الشيء الوحيد الجميل في السجن ، إن كان فيه شيئاً جميلاً!

عندما كنا نخرج من ثياب أفكارنا ومعتقداتنا كنا نبدو كرفقة مقهى ، وعندما كنا نتجادل كنا نبدو كالمجالدين في روما أيام الرومان ، أعداء متقابلون لا وسيلة لأحدهم ليعيش إلا أن يقتل الآخر! وهكذا قضينا وقتنا كله ، تارة أحبة وتارة خصوماً ، لا الوفاق يدوم ولا الخصام يستمر! في لحظات الوفاق تتكشف الجوانب اللينة فينا كأننا غزلان نمرح ، وفي لحظات الفراق تنكشف أنيابنا كأننا أسود نصطاد ، ولا أعرف حتى الآن أي لحظات السجن أحبها إليّ ، تلك اللحظات التي يمتزج فيها الزيت بالماء حتى يظن الرائي أن ما في الكوب سائل واحد ، أم تلك اللحظات التي يفك فيها الزيت والماء عناقهما فيبدوان للعيان عدوين متجاورين ، ولكني أجزم لكِ لو أنَّ حياتنا كانت عناقاً تاماً لكانت جحيماً لا يُطاق ، تماماً كما لو أنها كانت دوماً طلاقاً بائناً!

كان أول دخولي على الرفقة الجديدة نقاشاً حاداً كأغلب ما دار بعد ذلك هناك ، لهذا لم يأبهوا لي كثيراً إذ فتح الجندي الباب ودفعني بعنف إلى الداخل كمن يريد أن يُدخل جملاً في سمِّ خياط!

بطلا هذا النقاش كانا الدكتور سامي الذي أصبح فيما بعد أقرب السجناء إليَّ ، في الحادية والخمسين من العمر ، كان

محاضراً في الجامعة في مادة الفكر الإسلاميّ المعاصر ، مثقف حتى النخاع ، يعرف كثيراً كأنه مكتبة ، نموذج فريد للإنسان المتدين ، يعرف في فكر ماركس أكثر مما يعرف الشيوعيون ، ويعرف عن فرويد أكثر مما يعرف مختصو علم النفس ، يُشرِّح لكِ الديمقراطية خلية خلية كأنه كان واقفاً على أقلام الذين صاغوا مبادئها ، كان ذكياً جداً ، أكسبته سنوات تدريسه مهارة فذة في خوض النقاشات ، يأخذ محاوره حيث يريد هو لا حيث يريد محاوره ، لا يقفز عن فكرة إلى أخرى إلا وقد أشبعها آراءً مختلفة ، يضرب الآية القرآنية في سياق كلامه كأنها أُنزلت لتستخدم في كلامه ، ويسوق بيت الشعر ليستدل على مفردة وكأن الشاعر يوم قرض بيته كان يعمل لحسابه ، يستدل على فساد فكرة من كتب أصحابها ، وإذا ما أراد أن يثبت فكرة تتعلق بالدين بدأ بالتاريخ ، فسلسل الظاهرة من أول نشوئها ، ثم جرى معها في الزمن حيث نضجت وأخذت صورتها الحالية ، ثم جاء بعلم الاجتماع له دليلاً ، وبعلم النفس له نصيراً ، وإذا تهيأت العقول لفكرته طرح رأي الدين فيها ، في علم الاجتماع كأنه بقية ابن خلدون ، وفي علم النفس كأنه كان مع فرويد ويونغ ، وفي التاريخ كأنه شهد الوقيعة ، وفي الأديان كأنه اعتنقها كلها!

أما محاوره فكان فراس ، يساريٌّ حتى العظم ، يردد دوماً أنه ليس عنده مشكلة مع الإسلام ، وإنما مع الإسلاميين ، كان

هو الآخر مثقفاً ، ويظهر أنه كان قارئاً نهماً ، ولكنه كان ينهزم في كل نقاش يخوضه مع الدكتور سامي لأنه لم يكن يقرأ إلا في موضوع واحد! كان يعرف عن أفكاره كثيراً وعن أفكار الآخرين قليلاً ، يعرف المأخذ على فكرة ما مما قرأه واعتقده ولكنه لم يكلف نفسه عناء تتبع هذه الفكرة في كتب وعقول أصحابها ، ويُخيَّل إليَّ أنه لو فعل لكانت كثيرة هي النقاشات التي لم يخضها ، ولكني سعيد أنه لم يفعل!

كانت أول جملة سمعتها من فم فراس يوجهها إلى الدكتور سامي قائلاً : أنتم تريدون تطبيق الشريعة ، تريدون أن تقطعوا أيدينا في زمن الصواريخ العابرة للقارات ، وتريدون أن تجلدوا ظهورنا بالسياط في زمن الأقمار الاصطناعية وغزو الفضاء ، وتريدون أن ترجمونا بالحجارة في زمن ثورة الاتصالات!

توقعت رداً عنيفاً من الدكتور سامي فلم أكن أعرفه بعد ، ولكنه خيَّب توقعاتي كما كان يفعل دوماً ، هو الرجل الذي لا يمكن التّنبؤُ به!

قال بكل هدوء : ما يندى له الجبين أنَّ الناس حين يسمعون بتطبيق الشريعة يضعون أيديهم على قلوبهم هلعاً ، ذلك أن ثمة من زرع في عقولهم أن تطبيق الشريعة يعني قطع يد السارق ، وجلد ظهر شارب الخمر ، ورجم الزاني المحصن وجلد غير المحصن ، وكأن الله أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم جلاداً ، ولم يرسله رحمة للعالمين!

وما يندى له الجبين أكثر يا فراس أن كثيراً ممن ينادون بتطبيق الشريعة هم أنفسهم يحسبون أنَّ الشريعة هي الجلد والرجم والقطع!

الناس يخلطون بين نظام العقوبات في الشريعة وبين الشريعة نفسها ، ويحسبون أن الحدود مقصد من مقاصد الشريعة ، وغاية من غاياتها ، هذا لأنهم لم يفهموا الإسلام بعد ، ولم يعرفوه حقَّ المعرفة ، لقد أخذوه من الذين شوهوا صورته في أذهانهم .

الحدود ليست إلا وسيلة لردع الناس عن انتهاك الشريعة وليست الشريعة بحد ذاتها ، لهذا كانت الحدود آخر ما يُطبق في الإسلام وأوّل ما يُعطل! وقد أوقف عمر بن الخطاب قطع أيدي السارقين عام الرمادة ، لأن الإسلام العظيم لا يعاقب الناس على الخطأ إلا إذا أزال من طريقهم أسباب وقوعهم فيه ، لم يكن الإسلام يرضى أن تُقطع أيدي الجياع الذين لو شبعوا ما سرقوا! ولأن الحدود ليست إلا وسيلة في الإسلام والغاية من الإسلام هي حفظ الإنسان ليكمل خلافته على هذه الأرض ، ضحَّى بالوسيلة في سبيل حفظ الغاية ، ولو كانت الحدود أهم من الناس لقطع عمر الأيدي وقتذاك دون رحمة وهو الشديد في الحق الذي لا تأخذه في الله لومة لائم ، ولكن ذاك الحازم في يده كان أحزم منه في عقله ، لهذا غلب عقله يده!

- إذاً أنتَ لا تنادي بتطبيق نظام العقوبات الآن؟!

- طبعاً لا أنادي بتطبيقها الآن ، ولكني أستميتُ في المطالبة بتطبيقها متى تهيأت الظروف لذلك! لأن الحدود في الإسلام إذا تعطلت بسبب ظروف طارئة فإنها تُطبق فور إزالة تلك الظروف ، تماماً كما أعاد عمر إعمال حد القطع بعد أن زال الجوع ، لقد طبق هذا الحد قبل المجاعة وبعدها لأنه لم يكن هناك عائق لتطبيقها ، أما عندما وقعت المجاعة فقد أوقف العمل بها ، وهذا ليس تعطيلاً للإسلام بالمناسبة وإنما هو مفهوم عميق لغاياته ومقاصده! تماماً كما ردَّ عمر بن عبد العزيز جزية نصارى الشام وقد كان يقبلها من قبل ، لأنه فهم أن الجزية ليست إتاوة تؤخذ من أهل الكتاب وتُودع في بيت المال ، ولكنها مقابل الحماية والرعاية والإكرام ، ولما كانت بلادهم محطة لغارات الروم وقتذاك اعتبر ابن عبد العزيز أنه مقصِّر في حمايتهم فلا نصيب له من أموالهم! لهذا علينا قبل أن تنادي بتطبيق الحدود أن نُطبِّق أولاً جزءاً من الإسلام يُهيئ الظروف لتطبيقها ، فقبل أن نسأل أين هي الحدود في الإسلام ، علينا أن نسأل أولاً أين هو الإسلام ، وإلا كيف لعاقل أن يطالب بجلد شارب الخمر في بلد تحصل فيه محلات بيع الخمور على تراخيص من الدولة ، وكيف لعاقل أن يطالب بإقامة الحد على الزاني إذا كانت بيوت الدعارة تعمل بعلم السلطة ، والمومسات يحصلن على رعاية وزارة الصحة! تطبيق العقوبات في الإسلام يلزمه مجتمع

مسلم ، أو بالأصح سلطة مسلمة ، تزيل كل العوائق التي تدفع الناس للوقوع في الحدود ثم تحاسبهم إذا انتهكوها ، أما المناداة بتطبيق الحدود في هذه الظروف فهي كالمناداة بتحويل المدن إلى مسالخ!

- ألا تلاحظ يا دكتور أنكَ تتحدث عن ظروف تطبيق الحدود ، في حين أني ليس لديّ ملاحظات فقط على ظروف تطبيقها ، وإنما ملاحظاتي على الحدود نفسها ، ألا ترى في الأمر همجية وتخلفاً ، نحن في القرن الواحد والعشرين يا رجل! وأنت تريد أن تقطع الأيدي ، وتجلد الظهور ، وترجم الناس بالحجارة ، أين نحن من العالم المتحضر لو استطعنا تهيئة الظروف لتطبيق هذه الحدود الوحشية؟!

- عن أي عالم متحضر تتحدث؟

عن أمريكا مثلاً ، عن إبادة ملايين الهنود الحمر؟

عن هيروشيما وناكازاكي اللتان ضربتا بالقنابل الذرية فتحول في لحظات مئة وخمسون ألف إنسان إلى مئة وخمسين ألف جثة؟

عن القنابل الذكية التي بعثرت أطفال العراق تحت شماعة أسلحة الدمار الشامل ، لنكتشف لاحقاً أنَّ كل هذا كان لأجل النفط ، فعرفنا أقبح مقايضة في التاريخ وهي النفط مقابل الغذاء؟!

عن مذبحة جنود البحرية في الدومينكان لأنهم رفضوا أن يسكتوا عن احتلال بلادهم

عن قصف الطائرات الأمريكية لمدينة درسدن الألمانية في الحرب العالمية الثانية حيث دُمر ستون بالمئة من المدينة وسقط ضحية ذلك القصف ما يزيد عن مئة ألف إنسان أعزل

عن فيتنام وإبادة الفلاحين البسطاء على أيدي جنود المارينز المدربين

عن الانقلابات العسكرية التي تدعمها هنا وهناك!

عن السود الذين كان يحرم عليهم ركوب الحافلات مع البيض

أو لعلك تقصد أوروبا . . .

فعن أي حضارة تريد أن أحدثك؟

عن القوم الذين يأكلون بالشوكة والسكين ، ويسجنون إنساناً إذا اعتدى على قطة ، ويبكون طويلاً إذا دهست سيارة كلباً ، إذا كنت ترى أن هذه حضارة فتمهل ، الإنسان المتحضر يجب أن يكون متحضراً في كل أحواله ، أما أن يأكل بالشوكة والسكين في بلده ثم يشرب دماء الأبرياء بعيداً ، فهذا دراكولا في ثياب إنسان متحضر!

ماذا فعلت فرنسا بالجزائر ، صدقني حين أقول لك أنها ليست بلد المليون شهيد ، هذا المليون هو الذي استطاعت البشرية توثيقه فقط ، وإلا فالرقم أكبر من هذا!

عن سايكس وبيكو ، وتقسيم عالمنا إلى دويلات ، يغرون هذا بحرب ذاك ، وذاك بقتال هذا!

أم عن أفريقيا التي نهبوا خيراتها وحملوا أهلها ليباعوا في شوارع مدنهم كالعبيد!

أهذا هو العالم المتحضر الذي تريدني أن أقلده

أو لعلك تريدني أن أقلد رفاقك اليساريين ، سأفعل إذا أخبرتني عن عدد الجثث التي خلفها ستالين وماوتسي تونغ ، وعن الخيول التي كانت تغوص في دماء المسلمين ، هؤلاء الذين تنعتهم بالمتحضرين ليسوا إلا مغولاً جداً ، وإن لبسوا البذلات الأنيقة وزينوا صدورهم بربطات العنق!

- وهل همجية الآخرين مبرر لأكون أنا همجياً؟! فإذا كانوا هم متوحشين حيث يخرجون عن القوانين التي يدعون إليها فأنت أيضاً متوحش بالحدّ الذي تدعو إليه!

- لتفهم نظرية الإسلام في الحدود عليكَ أن تفهم أولاً نظرية الإسلام في الثواب والعقاب! في هذا العالم ثلاث حضارات ، الحضارة الرأسمالية ، والحضارة الشيوعية ، والحضارة الإسلامية ، ولكل واحدة من هذه الثلاث نظرتها لمفهوم الثواب والعقاب ، فدعكَ الآن من نظرة الإسلام ، ودعنا نتوقف عند نظرة الرأسمالية والشيوعية ثم نقارنها بنظرة الإسلام لنرى أيها أكثر عدالة ومنطقية يا صاحبي .

الحضارة الرأسمالية قائمة على مبدأ الحرية ، في حين أنَّ

الحضارة الشيوعية قائمة على مبدأ المساواة ، بينما يقوم الإسلام على مبدأ العدل ، وهو المبدأ الأسمى في هذا الكون ، فالحرية المطلقة تجعل من المجتمعات غابات يأكل فيها القوي الضعيف ، وقد انتبه الرأسماليون لهذا ، ولهذا هم دوماً يشرعون قوانين تحد من هذه الحرية ، وهذا هو الصحيح ولكنه يتنافى مع المبدأ الذي قامت عليه الحضارة الرأسمالية ، في حين وعى الإسلام هذه البديهية منذ البداية فجعل الإنسان حراً بمقدار ما يكفي لتحقيق إنسانيته دون الإضرار بغيره ، فلا وجود للحرية المطلقة لأنه يستحيل أثناء وجودها قيام مجتمع إنسانيّ سويّ!

وأما الشيوعية التي قامت على المساواة فلم تتنبّه إلى أن المساواة المطلقة هي ظلم مطلق! وغاب عنها أنَّ العدل أسمى من المساواة! على أية حال حتى المساواة التي نادت بها الشيوعية لم تستطع تطبيقها فلا أحد يمكنه أن يدعي أن المساواة المطلقة قد حدثت فعلاً ، كل ما استطاعت أن تفعله أنها قضت على طبقيّة ما وأنشأت مكانها أخرى ، وقضت على برجوازية وأحلّت مكانها أخرى ، وفشلها في إحلال المساواة كان متوقعاً ، بل هو النتيجة الطبيعية في أي مجتمع بشري ، سمة الحياة التفاوت ، وهذا ما وعاه الإسلام منذ البداية ، فهو يساوي بين الناس في الحقوق والواجبات والكرامة الإنسانية وهذه قمة الفضائل ، ولكنه حين فاوت في أشياء أخرى فلم يكن يميِّز بل يمارس أعلى درجات العدل ، فعلى سبيل المثال ؛ حين لم يساوِ

في قضية الميراث بين الرجل والمرأة فلأن المساواة هنا ظلم ، والإسلام لا يظلم ولا يحابي ، وعندما جعل الرجل هو الذي يدفع مهراً للمرأة ، وجعل الإنفاق على الزوجة واجباً على الرجل ولو ملكت هي مال الدنيا فكان من العدل لما أوجب عليه نفقات أكثر أن يعطيه أموالاً أكثر!

- أنت تستطرد كثيراً يا دكتور ، وأرى أنك تخرج عن الموضوع محل النقاش .

- أبداً يا صديقي ، إنما أردتُ أن أمهِّد الطريق لما سأقوله لكَ ، وقد كان ضرورياً أن أسوق لكَ هذه المقدمة لما سيأتي ، عموماً أرجع بكَ حيث كنا ، تحديداً عند مبدأ الثواب والعقاب والحدود ، فالحضارة الرأسمالية تُعلي من شأن الفرد إلى درجة القداسة ، وهذه القداسة ليست تقديس حياته وحقوقه وإلا لكان هذا أمراً محموداً ولكنها قداسة من نوع آخر هي تحريره عن كل قيد يقف في وجه حريته ، ولأنها قائمة بالأساس على فكرة الفردية فإن فلسفتها في الثواب والعقاب منحازة إلى الفرد ، لهذا نجد أن الجاني ليس إلا ضحية أوضاع اجتماعية صعبة ، أو عقد نفسية ، أو اضطرابات عصبية ، فيغدقون عليه العطف إلى درجة تجدهم معها يكادون يُطالبون القتيل أن يقوم ويعتذر من قاتله لأنه هو الضحية الحقيقية ، فإن كان القتيل مات مرة على يد قاتله ، فإن هذا القاتل مات آلاف المرات وهو يكابد ما عاناه ، وقد لعب علم النفس دوراً بارزاً في هذه النظرة

إلى الجاني ، إذ قلب فرويد الطاولة رأساً على عقب في النظرة إلى الجناة ، فالجاني عند فرويد هو ضحية العقد الجنسية التي نتجت من كبت المجتمع والدين والتقاليد لطاقته الجنسية فلم تجد هذه الطاقة المكبوتة تصريفاً إلا من خلال الجريمة! وفي هذا تنحية لإنسانية الإنسان إذ هو بهذا المفهوم كائن سلبي لا حول له ولا قوة ، وليس مسؤولاً عما يفعل ، رُفع القلم عنه تماماً ما دام مكبوتاً ، تماماً كمن يمشي أثناء النوم ، كيف تعاقب إنساناً نائماً غير مدرك لما يفعل ، هكذا هي الأمور ببساطة ربط الجنس بكل شيء ، إشباع مسعور لهذه الغريزة المستعرة وإلا الويل والثبور لمن يقف في وجه رغبة الجنس هذه ، فإنها ستنتج إنساناً من حقه أن ينتقم من المجتمع ، وبهذا لا تصبح الجريمة عملاً قبيحاً بقدر ما هي عارض من أعراض هذا الكبت ، ولو صحّت هذه الفرضية لوجب أن نجد الجرائم متفشية في المجتمعات المحافظة ، أو على الأقل أن لا نجدها في المجتمعات المتحررة ، فإذا قتل ابن المجتمع المحافظ أو سرق أو اغتصب فمبرره معه ، إنه إنسان مكبوت ولكن ما هو مبرر ابن المجتمع المتحرر؟ ونظرة واحدة في أرقام الجرائم في مجتمعات الغرب المتحرر تظهر تفاوتاً هائلاً بينها وبين المجتمعات المحافظة ، كما ترى يا صاحبي إن في هذا عبط فكريّ واضح ، إذ أننا نضع أسباباً للجرائم موجودة على نطاق ضيق بحكم تحرر المجتمع ، ثم نحصد نتائج من المفترض أن تظهر في مجتمع مكبوت ، نحن في المقابل لا نجدها فيه!

وإذا كانت الرأسمالية مجتمعاً فردياً بامتياز فإن الشيوعية مجتمع اجتماعي بامتياز ، فالقدسية للمجتمع وليست للفرد! لهذا لا نجد في تلك الأنظمة رأفة على الفرد الخارج على المجتمع ، ولا أدنى محاولات التفهم التي نجدها عند الرأسماليين . وإذا كان سبب الجريمة في العالم الرأسمالي هو الكبت الجنسي ففي النظرة الشيوعية سبب الجرائم هو اختلال الاقتصاد! هكذا بكل بساطة ، كل جريمة وراءها سبب اقتصادي ، وكل ثورة تحصل يجب أن يسبقها ثورة في الإنتاج ، وكأن الناس كائنات مقتاتة ، تثور لرغيف وتهدأ إذ تشبع ، مع أن مشاكل العالم سببها ليست الدول الجائعة ، بل الدول المتخمة التي تحصل على كمالياتها من سلب أساسيات الآخرين! وقد صدق علي عزّت بيغوفيتش حين قال : «يصبح الحيوان خطيراً عندما يجوع ، أما الإنسان فيصبح خطيراً عندما يشبع»!

أما الإسلام فشأنه شأن آخر ، فلا الفرد أعلى من المجتمع ، ولا المجتمع سيد الفرد ، إن للفرد حقوقاً ممنوع على المجتمع أن يحرمه إياها ، وإن للمجتمع ضوابط ممنوع على الفرد أن يتخطاها ، يأخذ الفرد حقه كاملاً بما يُشبع حاجاته وغرائزه ويحقق إنسانيته ، ويأخذ المجتمع حقه في أن يكون معافى دون أن يكون ثمن هذه العافية افتراس الفرد!

طبعاً الإسلام لا ينكر أثر ماضي الإنسان في سلوكه ، ولا ينكر بالتالي أثر الوضع الاقتصادي على السلوك ، ولكنه لا

يجعل من ظروف الإنسان تفضي إلى نتيجة محتومة ، إذ أن للفرد عقلاً وإرادة ، فإن قتل شخص لم يحصل على إشباع جنسي كافٍ فملايين العزّاب المتعففين لم يقترفوا إثماً ولا جريرة ، وحين يسرق فقير أو يغتصب نتيجة وضعه الاقتصادي فإنه لا يُعدُّ شيئاً أمام ملايين الفقراء الذين نجدهم في أغلب المجتمعات أكثر نبلاً وأخلاقاً من الأغنياء! ولطالما كان الفقراء ضحايا الأغنياء لا العكس!

صحيح أن الحدود قد تبدو قاسية في ظاهرها ، أنا أعلم أن قطع اليد ليس أمراً يسيراً ، وجلد إنسان على مرأى من الناس ليس أمراً سهلاً ، ووضع حد لحياة إنسان رجماً بالحجارة ليس أمراً هيناً ، ولكنك حين تنظر بعقلك إلى فلسفة الإسلام في الحدود ستجده رحيماً إلى أبعد حد ، إن الإسلام وهو يطبق هذه الحدود فلا يطبق حداً بشبهة! وقد أمر سيِّد الشريعة أن تُدرأ الحدود بالشبهات ، فالإسلام لا يقطع يداً إذا انتشرت المجاعة ، ولكنه يقطعها إن كانت أمام السارق آلاف الأبواب إلى الكسب الحلال فاختار طواعية الحرام ، وإن الإسلام إذ يرجم الزاني ، فإنه يشترط أن يكون هذا الزاني محصناً ، أي عنده وسيلة من الحلال لإفراغ شهوته ولكنه اختار برجليه أن يذهب إلى الحرام ، وإذا كنت ترى في الجاني ضحية فماذا عن المجني عليه؟

ماذا عن مالٍ أفنى صاحبه عمره يجمعه وينميه ليستعين به على كبره ، ويعين أولاده وقد بلغوا أشدهم في الحياة ، ليأتي

إنسان كسول ذميم ليسرق شقاء عمره .

إذا كنتُ ترى في الزاني ضحية ، فماذا في الزوج الذي يُنتهك عرضه وقد تُدخل عليه امرأته ولداً ليس له؟

ثم إن كنت لا تعرف فاعرف أن الذين طُبِّق عليهم حدُّ الرجم جاؤوا طواعية إلى القصاص ، لأن إدانة الزنا لا تثبت إلا برؤيا أربعة شهود عدول ثقات لم يُعرف عنهم الكذب ولا التجني ، من أين ستحصل على أربعة أشخاص يسيرون معاً فيرون رجلاً واقعاً على امرأة غيره؟

بالمقابل ، ماذا لو كان هؤلاء الشهود ثلاثة ، وذهبوا إلى القاضي وشهدوا أنهم رأوا فلاناً يقع على فلانة ، أتعرف ما حكم الشرع فيهم؟

حكمهم أن يُجلدوا ثلاثتهم بتهمة القذف!

هذا لأن الإسلام ستّير ، ولأن أعراض الناس ليست لعبة ، يقرر أحدهم أن يقع في شرف امرأة فيؤتى بها لتوثق وتُرجم!

ثم عليكَ أن تعرف أن الإسلام قبل أن يُنزل بالناس قصاصه فإنه يكون أولاً قد أزال من أمام الناس كل ما ييسر وقوعهم في الحدود ، وعندما وصل الإسلام إلى أوج العدالة المالية والتوزيع العادل للثروة كان عمر بن عبد العزيز لا يجد فقيراً يأخذ مال الزكاة ، فإذا كان الإسلام قد أوصل الناس إلى عدم حاجتهم لأخذ مال الزكاة وهو حلال ، أيوصلهم للسرقة وهي حرام؟!

وكذلك في قضية الجنس ، فقد حثَّ على الزواج المبكر ، واشترط على الحاكم إن وجد المال أن يعين الشباب عليه ، وحثَّ أولياء الأمور إلى عدم المغالاة في المهور ، كل هذا يكفل أن يُشبع الناس غرائزهم بصورة طبيعية بالحلال ، ولكن مشكلتكَ أنكَ تفترض أن حدود الإسلام ستطبق على المسلمين في غياب الإسلام!

دعكِ من ذلك الآن يا أسماء ، هناك متسع من الوقت كي نرجع إليه مرة أخرى ، ولكن لم يعد هناك متسع من الشوق بي ، صرتُ كلي أنتِ ، لا أريد من هذه الحياة سوى أن تجمعني بكِ مجدداً ، أريد أن آخذكِ إلى صدري كيوم فعلتُ ، وأنا عائد من الحرب فشعرتُ أن تلك الحرب كانت جديرة بخوضها .

أريد أن أتأملكِ تعدّين لي القهوة .

أريد أن نجلس معاً حول مائدة الطعام فأطعمكِ بيدي لقمة وأشعر أنها أشهى ما ذقتُ في حياتي رغم أني لم آكلها .

أريد أن أدخل عليكِ في المطبخ فأجدكِ غارقة تعدين حلوى المساء ، فتأخذين بإصبعك ، شيئاً من المزيج قبل خبزه ، وتقولين لي : ذُق ، أتحتاج سُكراً أكثر .

فأجيبكِ : كيف لشيء مس إصبعكِ أن ينقصه سكّر؟

أريد ما تبقى من ماء في الكوب بعدما شربتِ ، وأتعمد أن أضع شفتيَّ حيث وضعتِ شفتيكِ .

أريد اللحظة الأخيرة قبل النوم حيث كنتِ تريحين

وسادتكِ جانباً وتضعين رأسكِ على صدري ، فأداعب شعركِ حتى ننام .

أريد أن أفتح عينيَّ فأجدكِ جانبي ، فأقبلكِ حتى تفتحين عينيكِ وتعانقيني .

أريد يدكِ في يدي ترافقيني إلى باب البيت وأودعكِ قبل الخروج بقبلة .

أريد أن أهاتفكِ لأخبركِ أن الدقائق طويلة في غيابكِ ، ثم اختلق حوارات كثيرة لا تهمني كي أسمع صوتكِ أكثر .

أريد أن أعودَ في الظهيرة لتركضي إليَّ وتلفين ذراعيكِ حول عنقي ، فأنظر في عينيكِ من مسافة صفر ، فأسكر!

أريد أن أشم عطركِ من رقبتكِ .

أريد أن أمسك يدكِ في الأزقة ذاهبين في زيارة .

أريد أن أضع يدي على ظهركِ عابراً بكِ الشارع .

أريد أن أسمع ضحكتكِ ، اشتقتُ للغنج الكامن فيها .

أريد أن أمازحكِ لترتسم غمازة صغيرة على خدكِ فأسرقُ منه قبلة .

اشتقت إليكِ يا أسماء ، اشتقتُ كما لم يحدث لي أن اشتقت من قبل ، وكما لن يحدث أن أشتاق من بعد!

اشتقتُ لأشيائنا الصغيرة التي اكتشفتُ أنها كانت أشياءنا الكبيرة .

اشتقتُ أن تغضبي مني قليلاً لأراضيك .

اشتقتُ أن تمرضي لأداويكِ
اشتقتُ أن تحزني لأعزيكِ
اشتقتُ أن تضجري لأسليكِ
اشتقتُ لقلم الكحل يعيثُ جمالاً على جفنيكِ
ولأحمر الشفاه يزيد فتنة على شفتيكِ
اشتقتُ لصابونتكِ ، استعملها خلسة عنكِ
اشتقتُ لمعجون أسنانكِ ، آخذ بعضاً منه في غفلةٍ منكِ .
اشتقتُ للشعر الذي سرقته فرشاتكِ من رأسكِ
اشتقتُ لمفكرتكِ ومذكراتكِ ، كنتُ أقرأها خلسة عنكِ ، وكنتُ أطير فرحاً إذ أقرأ ما تكتبين عني ، وأنتشي حين أعرفُ أني أسعدكِ ، طرتُ غبطة حين قرأتكِ مرة قد كتبتِ : اليوم أهداني حمزة العالم كله من خلال وردة!
أنتِ سيدة الأضداد يا أسماء وأنا العاشق لتناقضاتكِ
تشعليني بقبلة وتُطفئيني بضمة
أنتِ البسيطة كماء المطر ، المركبة كقوس قزح
أنتِ الهادئة كفُلة ، الصاخبة كأقحوانة
أنتِ المُرْوية كنهر ، المُحرقة كبركان

أنتِ الحلوة كعسل ، المُرة كقهوة
أنتِ القريبة كنبضة ، البعيدة كطفولة
أنتِ المبتلة كوضوء ، الجافة كتيمم
أنتِ التي يجتمع فيكِ ما لا يجتمع في غيركِ ، لهذا

أحبكِ ، لأنكِ نموذج فريد يستحيل أن يتكرر ، أحببتكِ في فرادتكِ هذه ، وسأبقى أحبكِ حتى آخر يوم في عمري!

أعود بكِ إلى رفاق السجن يا أسماء ، يا لهم من صحبة حلوة ، كلهم متشابهون على ما فيهم من اختلاف ، معادنهم طيبة ، وطينتهم أصيلة ، أحرار في أرواحهم كأنهم خلقوا في فضاء لا في أرض ، ولكن العقول لا تتساوى ، والأفهام تختلف ، والحكم على الأمور يكون تبعاً للمعايير التي نحاكم فيها المسألة ، ومن هنا جاء الاختلاف ، ولعل هذا الاختلاف هو الذي أضاف للسجن نكهة ، وللحديث مذاقاً حلواً ، ومنظراً مهيباً من الجمال ، كباقة الورد التي فيها من كل لون ، تأخذكِ الحيرة أي ورودها أجمل ، فإذا كدتِ تحكمين للوردة الحمراء أنها أجمل ، أفردتْ لكِ الوردة الصفراء رقتها فكدتِ تنحازين إليها ، فإذا بالوردة البيضاء تُطل عليكِ بنقائها ، فتكادين تقسمين أنها الأجمل ، حتى قبل قسمكِ بلحظة تنشر وردة خمرية عبيرها فتأخذكِ الحيرة مجدداً ، وهكذا كان الرفاق ، ألوان شتى ، وروائح مختلفة ، وعقول ترعى فتطرح لبنَ الأفكار وفقاً لما رعت!

خرجنا ذات يوم إلى الشمس ، وخروج السجين إلى الشمس رفاهية يحبوها السجان على السجين ، لقد أرادوا أن يشمسونا كي لا نتعفن! وكي نعيش أكثر ليسجنونا أكثر! وعلى مقعد في باحة السجن كان يجلس الدكتور سامي الذي حدثتكِ عنه آنفاً إلى جانب محمود ، ومحمود هذا طيّب

القلب كأنه طفل ، وهادئ كأنه قسط من نوم ، لم يكن شرساً إلا في ليبراليته! كان له نظرة مختلفة إلى الأمور ، نظرة حلوة أحياناً . يعجبني أولئك الذين يرفضون أن يكونوا شياهاً في قطيع ، ولكن الذي لم يعجبني فيه أنه لم يكن لشيء عنده قداسة ، والحياة دون قداسة لا تُعاش ، ثمة أشياء يحوطها هالة من طهر ينبغي ألا نقربها ، ولكن محمود لم يكن يرى هذه الهالة في شيء ، وإذا ما جرد كل شيء من قدسيته كنتُ أتفهم وجهة نظره وإن خالفته في بعضها ، ولكنه حين كان ينظر إلى الإسلام على أنه فكرة أرضية ذات أحكام وقوانين جغرافية ، كنتُ أقفُ بكليتي ضده ، وكان الدكتور سامي دوماً يشفي غليلي منه!

حين رأيتهما من بعيد ، عرفتُ من حركات يديهما وتعابير وجهيهما أنهما في نقاش لا في جلسة عادية كما هي أغلب الأحوال ، ولطالما كنتُ شغوفاً بالعقول إذ تتبارز ، وقد حملني شغفي هذا أن آتي إليهما ، فلم أكن لأفوت جلسة كهذه .

وكالعادة لم أكن أشهد مبارزة عقلين منذ البداية ، وحتى اللحظة لا أعرف ما الذي فاتني أول النزال ، ولكني عندما وصلتُ إليهما عرفتُ أن النقاش كان عن المرأة في الإسلام .

كان محمود محملاً بعشرات الأسئلة ليوجهها إلى الدكتور سامي طمعاً أن لا يجد عنده إجابات فيقيم عليه الحجة ،

ولكن سامي كان دوماً حاضراً ، ولقد استعد جيداً لهذه النقاشات وكأنه كان يعرف أنها ستقع لا محالة!

أول سؤال حضرته منذ البداية وجهه محمود إلى سامي قائلاً : أنتم تزعمون أن الإسلام أعطى المرأة حقوقاً في حين أنها في ثقافتكم وأدبياتكم ليست إلا تابعاً تدور في فلك الرجل في أحسن الأحوال ، وفي أسوئها ليست إلا أثاثاً في البيت ، فعن أي حقوق تتحدث؟!

قال له الدكتور سامي مبتسماً : أنتَ تسأل ماذا أعطى الإسلام المرأة من حقوق لأنك لا تعرف كيف كانت المرأة قبل الإسلام أولاً ، ولأنكَ تعتقد أنَّ ما أخذته المرأة من حقوق في الغرب اليوم متوافق مع فطرتها ثانياً ، ومن هنا وقع اللبس لديكَ ، لا توجد فكرة أعطت المرأة ما أعطاها الإسلام ، لا في الشرق ولا في الغرب .

نظرة سريعة على حال المرأة قبل الإسلام ستريك أين كانت المرأة وأين صارت على يدي هذا الإسلام العظيم ، أنتَ تعرف بلا شك أنها عند أجدادنا الجاهليين لم تكن تملك حق الحياة حتى ، كانت إذا وُلدت أمسكها أبوها قطعة لحم طرية ، وهو لا يعرف ماذا يفعل بهذا العار الذي لحق به! أيقبلها على هُون وذل وخزي ، أم يدسها في التراب ويغسل عاره؟

فجاء الإسلام ليخبر هؤلاء الحمقى أنها إنسان لها روح يجبُ ألا تُمس ، وجسد يجب ألا يُنتهك ، فدافع عن حق

المرأة قبل أن تصير امرأة ، منذ اللحظة الأولى لها في الحياة وقف في صفها ومنحها حق الحياة التي كانت محرومة منه ، فحرَّم الوأد ، وشنَّع الوائدين ، وتوعدهم بمحاكمة عادلة يوم القيامة ، ستأتي فيه هذه الموؤدة مظلومة تأخذ حقها من ظالمها ، وعبَّر القرآن عن ذلك اليوم متوعداً قائلاً : «وإذا الموؤدة سُئلت بأي ذنب قُتلت» .

وحتى النساء اللائي نجون من الموت كيف كانت حياتهن ، أتعرف شيئاً عن ضروب الزواج قبل الإسلام؟!

أسمعت عن زواج الاستبضاع ، حيث يأخذ الرجل زوجته إلى أحد أشراف القوم المشهود لهم بالفصاحة والبلاغة والذكاء ، ويتركها عنده يطأها كيفما شاء حتى تحبل ، فإذا هي حملت جاء زوجها وأخذها وعاد ، تماماً كما يفعل مربو الحيوانات اليوم ، يسمع أحدهم أن عند فلان حصاناً أصيلاً فيأخذ فرسه طمعاً أن يحصل منه على لقاح! فهل رضي الإسلام بهذا ، أم دافع عن شرف المرأة بشراسة ، وجعل شرفها بيدها لا بيد الأحمق الذي هي تحته ، يأخذها عنوة إلى الرجال!

هل سمعت بزواج الشغار؟ حيث يجتمع جماعة من الرجال ، يكون عددهم عادة بين الخمسة والسبعة ، فيعمدون إلى امرأة ويدفعون لها المال ، ويأخذونها إلى الصّحراء وينصبون لها خيمة ، ثم ينصبون لأنفسهم أخرى ، ويبقون يتناوبون عليها

واحداً تلو آخر ، حتى يتبين حملها ، فإذا هي حملت عادوا بها ، ثم لما يحين وقت ولادتها تدعوهم جميعاً ، فيحضرون ، وتقول : يا فلان هذا ابنك ، وتسمي أيهم شاءت ، وما عليه إلا أن يأخذه ، ويعطيه اسمه ونسبه!

فهل راعى أحد الأنساب كما راعاها الإسلام ، وهل سبق أحد الإسلام في إعطاء المرأة إنسانيتها وقد كانت من قبل آلة للجنس ، ومحطاً لتفريغ الشهوة!

وإذا كنت ستخبرني أن هؤلاء أهل أوثان ، وقوم همج ، فعلى رِسلكَ ولا تستعجل ، فإني سأثبت لك أن الجميع كانوا ضد المرأة ، وشرقهم وغربهم في الأمر سواء ، «متدينوهم» بين قوسين طبعاً ، وملحدوهم أيضاً ، أتعرف يا محمود ما هي المرأة عند اليهود؟ أتعرف أنهم في تلمودهم يقرأون «المرأة حقيبة مملوءة بالغائط!» . أبعد هذا الاحتقار احتقار ، وبعد هذا الإسفاف إسفاف؟ ولكن للأسف إن بعده وأكثر منه أيضاً! أتعرف أنهم في التلمود أيضاً يقرأون «يجب على الرجل ألا يمر بين امرأتين أو كلبين أو خنزيرين»! هكذا بكل جرأة ونذالة يضعونها في مرتبة الكلاب والخنازير! فأين انتقص الإسلام من إنسانية المرأة ، وأخرجها من قفص بشريتها وألحقها بالدواب والبهائم؟!

هل سمعت بالدعاء الذي يتلونه كل صباح كما نتلو نحن أذكار الصباح؟!

يقول الرجل منهم : «مباركٌ أنتَ أيها الرب لأنكَ خلقتني بحسب مشيئتك»!

وإذا حاضت المرأة عند اليهود عزلوها في غرفة ، فلا يأكلون معها ، ولا يتحدثون إليها حتى تطهر فتخرج من هذا العزل ، بينما كان النبي صلى الله عليه وسلم يضع رأسه في حجر عائشة وهي حائض ، ويفعل ما يفعل الرجل مع امرأته إلا العلاقة الكاملة لأن في هذا أذى للرجل والمرأة معاً ، وهذا ما يؤكده الطب ، ويثبت أن الإسلام كان سابقاً في العلم أيضاً!

وبعد هذا تسألني ما الذي أعطاه الإسلام للمرأة؟

وحتى الغرب ما كانوا أفضل حالاً لا من أجدادنا الجاهليين ، ولا من اليهود ، لقد قضى الفلاسفة قروناً يستعرُ النقاش فيما بينهم عن المرأة ، أتعرف يا محمود بِمَ كان يتناقش القوم عنها؟ كانوا يتناقشون إن كان للمرأة روح أم لا! وكانوا يتناقشون في حال التسليم بروح المرأة ، ما هي طبيعة هذه الروح ، أهي روح إنسانية كما روح الرجل ، أم هي روح حيوانية كما البهائم والدواب التي خُلقت لقضاء حوائج الناس ، ولم تكن المرأة وقتذاك إلا لقضاء الحوائج! وقد افترضوا -وانتبه معي لكلمة افترضوا- أنَّ لها روحاً إنسانية ، وهذا الافتراض لم يأتِ لإعطائها حقوق الإنسان ، وإنما لفتح باب نقاش آخر ، كتلك النقاشات العقيمة ، - «أيهما أسبق البيضة أم الدجاجة؟! وكيف يمكن للإنسان أن يميز وجه حبة العدس من مؤخرتها؟»

- وبعد الافتراض أن لها روح إنسانية جاء النقاش المنتظر ، والأسئلة العظيمة التي أشغلت العقول وسعت سعياً محموماً للإجابة عنها ، لقد كان القوم يتساءلون : إذا كانت المرأة ذات روح إنسانية فما هو وضعها الاجتماعي والإنساني بالنسبة إلى الرجل ، هل هي في مرتبة الرقيق والعبيد ، أم أنها أرفع من هذا درجة أو أقل من الرجل بكل الأحوال؟!

وبعد هذا تسألني يا محمود : ما الذي أعطاه الإسلام للمرأة؟!

- ولكن بعض النساء حصلن على حقوق لم تحصل عليها المرأة اليوم ، وكان هذا في عهد أسبق من عهد الإسلام بكثير ، فلماذا تدّعي أن الإسلام أول من أعطى الحقوق للمرأة؟!

- كلامك فيه نوع من المعرفة بالتاريخ يا محمود ، ولكنه بالمقابل فيه كثير من الجهل! لا تغضب مني لم أجد مفردة أخرى ، وإني لا أقصد الإساءة لشخصك وإنما أقصد أنَّ الأمور اختلطت عليك ، وأنك تقرأ في التاريخ جانباً واحداً فقط ، فحين تقول لي أن بعض النساء حصلن على حقوق قبل الإسلام أكثر مما حصلت عليه المرأة الأوروبية اليوم ، فكلامك صحيح إلى حدٍّ ما ، وهذا شيء لا يمكن إنكاره ، لقد حكمت بلقيس مملكة سبأ ، وحكمت إليسار قرطاجة ، وحكمت زنوبيا تدمر ، وحكمت حتشبسوت مصر ، وحكمت ووتمه تيان الصين ، ولكن هؤلاء كما أسميتهم بعض النساء ولسن كلهنَّ!

أنتَ تحدثني أنَّ امرأة حكمت وأنا أسألكَ بالمقابل : ماذا عن باقي النساء؟

أنت تتحدث عن امرأة وأنا أحدثك عن النوع!

إذا نال أحد أفراد النوع حقاً فهذا لا يعني أنَّ النوع كله حاز حقوقه ، إذا داوينا مريضاً واحداً فهذا لا يعني أننا قمنا بواجبنا تجاه كل المرضى!

وإذا أنقذنا جائعاً من مجاعة لا يعني أننا قد قمنا بواجبنا تجاه كل الجوعى!

إحضار حيوان مهدد بالانقراض إلى محمية لا يعني أن هذا النوع بخير ولم يعد مهدداً بالانقراض!

لقد وصلت امرأة إلى سُدة السلطة بينما بقيت بقية النساء يرزحن تحت ما هم فيه ، بقينَ نوعاً أقل من الرجل ، لا يملكنَ حق الحياة ، وحق اختيار الزوج ، وحق العمل ، وحق التملك ، وهذا هو الفرق بين الإسلام وغيره ، الإسلام لم يعطِ حقاً لامرأة بعينها وإنما أعطى حقاً بعينه لكل النساء ، فالحقوق التي كانت لعائشة وحفصة وزينب ومارية وهُنَّ بمفهوم اليوم يُعتبرن السيدات الأُول ، لأنهن زوجات الرجل الأول في الدولة ، هي ذاتها الحقوق التي حصلت عليها جميع النساء ، والأشياء التي مُنعت النساء من فعلها مُنعت السيدات الأُول من فعلها ، لهذا قال الرّجل الأول في الدولة : «وأيمُ الله ، لو أن فاطمة بنتُ محمد سرقت لقطعتُ يدها»!

هذا هو الإسلام يا صديقي ينتصر لإنسانية النوع لا لإنسانية امرأة واحدة ، وحين تستشهد أنتَ ببعض النساء إنما تستشهد بالشواذ وليس بالقاعدة ، وحين أتكلم عن المرأة في الإسلام فأنا أستشهد بالقاعدة!

- إذاً أنت تدّعي أن الإسلام ساوى بين الرجل والمرأة؟

- أبداً! إن الإسلام العظيم ما كان له أن يساوي بين الرجل والمرأة في كل شيء ، لأن المساواة المطلقة بين الجنسين ظلم للجنسين ، ظلم للمرأة وظلم للرجل ، لقد ميّز الإسلام بين الرجل والمرأة وهذه قمة العبقرية ، فساوى بينهما حين كانت المساواة ممكنة بسبب طبيعة الجنسين ، وميّز بينهما حين اقتضت طبيعة الجنسين أن يكون هناك تمييز! وأنا هنا أسألك قبل أن أكمل كلامي! هل المرأة والرجل جنس واحد أم جنسان؟ وهل لهما وظيفة واحدة في هذه الحياة أم وظيفتان؟ أتركيب الرجل الجسمانيّ هو ذاته تركيب المرأة الجسماني؟ هل بناؤهما النفسي متشابه بحيث يتطابقان تماماً في المشاعر والأحاسيس والانفعالات أم أنَّ لكل منهما تركيب جسمي ونفسيّ يجعل لكل منهما طريقته في الإحساس والشعور؟

فإن أجبت أنهما متطابقان فسيصبح حوارنا عقيماً ، ولكنك أعقل من أن تجيب بهذا ، لهذا سأفترض أنكَ أجبت بلا كي أكمل معك هذا الحوار .

لقد ساوى الإسلام بين الرجل والمرأة في الكرامة

الإنسانية ، وفي حق الحياة ، وحق التملك ، وحمى المرأة كما حمى الرجل ، فالمرءُ الذي يقتلُ رجلاً يُقتل به ، وكذلك إن قتل امرأة! لأن حق الحياة مقدس ، ولأن لها روحاً لها ذات قدسية روح الرجل! ولو سرق امرؤ مال رجل لقطعت يده ، وهذا الذي يحصل إذا سرق مال امرأة ، لأن ملكيتها للأشياء لها ذات المكانة في القانون لملكية الرجل!

ولكنَّ الإسلام حين ميَّز بين الرجل والمرأة فلأن الإسلام شريعة رب هو الذي خلق الرجل والمرأة ، ويعرف ما يُصلح الرجل وما يُصلح المرأة ، وليس شريعة إنسان أعمل عقله في الأشياء ، فيستحسن من القانون والتشريع بحسب ما يفهم بفكره وعقله المحدودين!

عندما ميَّز الخالق بين وظائف المرأة ووظائف الرجل في الحياة منح لكل منهما حقوقاً ، وألقى عليه واجبات تتلاءم وهذا التمييز في الخلق ، فإذا كان التمييز سمة الخليقة فكيف تستغرب التمييز في بعض الحقوق وبعض الواجبات!

كون المرأة تحبل وترضع فليست تقوم في الحياة بأكثر من الدور البيولوجي الذي أوكله خالقها لها ، لماذا لا تُطالب بحقك في الحمل والإنجاب مساواة بالمرأة ، لماذا ترضى أن تكون أقل منزلة منها ومنزلة الأمومة أرفع منازل الحياة ، وهل هناك أعلى شأناً من منح الحياة! ولكنك لو فعلت لشككتُ في عقلك ولكنتَ أنتَ أسرع شكاً مني في هذا! وحين اختص الله أحد

الجنسين بالحمل والإنجاب والإرضاع أليس من البداهة أن يختصه بمشاعر وعواطف ونفسية تُهيئة للقيام بهذه المهمة العظيمة؟؟

إذا عثرت الشرطة على هيكل عظمي لإنسان على الفور يعرف العاملون في الطبِّ الجنائيِّ إن كان هذا الهيكل العظمي عائداً لرجل أو لامرأة من مقاس الحوض، فحوض المرأة أوسع من حوض الرجل، ليعينها على الحمل والإنجاب! والذي ميّز في بناء الحوض ما كان له أن يساوي بالمشاعر عند من يملكه ومن لا يملكه. إن الأمومة، هذه العاطفة النبيلة والفياضة، هذه الرقة في الشعور، وهذا الانفعال الجياش في الوجدان، هذه الثورة المستعرة في المشاعر، هي التي جعلت الجانب العاطفي يطغى على الجانب الفكري لدى المرأة، فحاجات الطفل بحاجة إلى قلب لا إلى عقل، فهي لا تفكر بعقلها أن تنزع عنها غطاءها في ألذ ساعات نومها لتقوم إلى طفلها الباكي أم لا، إنها تنزعه على الفور بقلبها، لهذا حين حرم الإسلام المرأة بعض الحقوق التي تتدخل فيها عاطفتها الجياشة وقلبها الرقيق إنما كان يحميها ويحمي الجنس البشري كله، يحميها أن تستخدم شيئاً لم تُخلق له، ويحمي النوع كله أن يهلك على يد من أُعطي حقاً تفرض طبيعته البشرية الرقيقة أنه لن يستخدمه بكفاءة لأنه لم يخلق له.

بينما للرجل وظيفة أخرى في الحياة، فوظيفته أن يصارع

الحياة ، سواءً كان هذا الصراع ضد الوحوش المفترسة كما حال الرجال قديماً ، أو صراع قوى الطبيعة وكوارثها كما كان يحصل في كل مراحل التاريخ ، أو صراع النظم السياسية والقوانين ، وهذا يتطلب أن يطغى عقله على عاطفته!

المرأة قلب يا صديقي والرجل عقل! وحين أقول لك أن المرأة قلب لا أعني أنه لا عقل لها ، وحين أقول لك أن الرجل عقل فلا أعني أن لا قلب لديه ، وإنما أحدثك بالسمة الغالبة على النوع ، هذه فطرة الله ، فليس مديحاً إذا قلنا أن المرأة قلب ، وليس مذمة إن قلنا أن الرجل عقل! وإنما المذمة أن تخرج المرأة عن فطرتها ويخرج الرجل عن فطرته ، حين تنقلب الأدوار ونقرر أن نعيش الحياة وفق ما ارتضينا لا وفق ما ارتضاه لنا خالقنا!

- كلام جميل يا دكتور ، سأقلّبه في رأسي كما أفعل مع كل فكرة جديدة أتلقاها ، أو كل رأي نازل رأيي ، ولكني قبل تقليب كلامك في ذهني ، أسلّم لك أن الإسلام أعطى المرأة حقوقاً لم تُعطها من قبل ، ولكن هل تستطيع أن تنفي أنه دين ذكوريّ بامتياز؟ خذ عندكَ مثلاً قضية الميراث ، لماذا على الرجل أن يأخذ ضعفي نصيب المرأة من التركة؟ أليس هذا تشريعاً موغلاً في الذكورية؟ ولماذا شهادة المرأة كميراثها نصف نصيب الرجل ، بحيث أن شهادة امرأتين تعادل شهادة رجل واحد؟ أليس هذا تشريعاً موغلاً في الذكورية أيضاً؟ وماذا عن القوامة والطلاق لماذا هي لجنس الرجال وليس لجنس النساء ،

وقد تكون المرأة أعقل من الرجل؟ ولماذا إذا أراد الرجل زوجته إلى فراشه عليها أن تأتيه صاغرة وإلا لعنتها الملائكة حتى تصبح؟ حتى الملائكة جعلتوهم في صف الرجال!

- اسمع يا محمود، لقد طرحت أسئلة يطول نقاشها، ولو أردنا كتابة إجابات لها لما كفتنا الصفحات الطوال، ولو أردنا نقاشها ما كفت الساعات، ولكني سأحاول أن أجيبك على تساؤلاتك مبسطاً ومختصراً قدر الإمكان، وإني أثق بعقلك وطيب معدنك أن يردك إلى الحق، فما سألت ليست أسئلة تبحث عن إجابات بقدر ما تتمنى ألا تجد عندي جواباً!

- لا تحكم على نواياي يا دكتور لأنك لم تشقّ عن قلبي، ولكن أجب على أسئلتي بمنطقية إن كان عندك إجابات!

- حسناً سأجيبك ولكن ليكن صدرك رحباً، ولا تكن ملولاً، ولا تقاطعني فقد سألت كثيراً، وسأجيب طويلاً، فإن كان عندك ملاحظات أو نقد قله بعد أن أتم كلامي.

- اتفقنا، تفضّل كلي آذان صاغية.

- أسئلتك كلها نابعة من مفهوم واحد وهو أن الإسلام دين ذكوريّ، وهذا تصور خاطئ، واعتقاد يهضم الإسلام عدله، وينزله منزلة المحابي الذي يقف في صف الرجال ضد النساء!

لنبدأ بموضوع الميراث، كون الإسلام جعل للذكر مثل حظ الانثيين فهو لا يحابي الرجل ولا يهضم حق المرأة، دعنا لا

نكون عاطفيين ، لنكن عقلانيين ونحسب التركة بالأرقام ، ولنرَ من يحصل على نصيب أكثر من التركة ، المرأة أم الرجل ، ظاهر الأمر أن الرجل له ضعفي نصيب المرأة ، ولكن الأمر في باطنه أن المرأة تحصل على مال أكثر مما يحصل عليه الرجل ، ولا تستغرب ، سأشرح لك الأمر!

يأخذ الرجل ضعف ما تأخذه المرأة لأن الإنفاق من واجب الرجل لا من واجب المرأة ، فالمرأة لا تنفق على بيتها وزوجها وأولادها إلا برضاها ، وإن ملكت مالاً ورفضت أن تنفق على زوجها منه فلا تُعتبر مقصرة وليس له أن يقاضيها أو يغصبها أن تعطيه من مالها ، بينما إذا قصَّر الرجل في نفقته عليها فلها أن تقاضيه وتتهمه بالتقصير بل وأن تأخذ دون علمه من ماله ما يكفي حاجتها وحاجة أولادها دون إسراف ولا تبذير!

ومن العدل إذا تكلف أحد بالنفقة أن يحصل من التركة على نصيب أكبر ، وإلا فمن الظلم أن يتساوى الرجال والنساء في الميراث فيحصل النساء على النصف والرجال على النصف ثم ينفق الرجال نصفه على من أخذ النصف وليس عليه أن ينفقه!

والرجل أيضاً هو الذي يدفع المهر للزوجة لا هي التي تدفع المهر له ، وهذا يندرج تحت المبدأ السابق ، إذا زاد التكليف قضى العدل أن يزيد نصيبه! يأخذ النساء مجتمعات ثلث التركة فينفقنها على أنفسهن ولسنَ مطالبات بالإنفاق على الرجال إلا ما كان عن طيب خاطر منهن ، بينما يحصل الرجال مجتمعون

على ثلثي التركة وينفقون هذا المال على أزواجهن وبناتهن وأمهاتهن وعماتهن إن لم يكن لهن معيل ، وبالأرقام يكون ما يحصل عليه النساء مباشرة عبر نصيبهن ، أو غير مباشرة من حقهن في إنفاق الرجال عليهن يبلغ النصف أو يزيد ، فأين يقع الظلم عليهن ، وكيف يقف الإسلام في صف الرجال ضد النساء بناءً على هذا؟

أما في موضوع الشهادة فصحيح أن الإسلام جعل شهادة امرأتين تعدل شهادة رجل واحد ، ولكن هذا ليس عائداً إلى أن المرأة نصف الرجل ، ولا أنهـا من جنس أدنى ، ولا من نوع أرذل ، وإنما هذا عائد إلى مراعاة الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وهذا الإجراء القانونيّ إنما وجد لضمان حق الشاهد والمشهود عليه في آن ، المرأة عاطفية يحكمها قلبها ، والقضاء والقانون أبعد ما يكون عن القلوب ، فمن الممكن أن تشهد بناءً على حكم من القلب وليس من العين ، والشهادات ليست دوماً في الرؤية ، فقد يطلب القاضي شهادة جارة في تعامل زوج مع زوجته ، والبيوت أسرار وقد لا ترى هذه الجارة إلا موقفاً سيئاً من زوج جارتها فتعمم أنه سيء بالمطلق ، فأي احتقار وإقلال من شأن المرأة إذا طلب الإسلام أن تعزز الشهادة بشهادة أخرى ، ففي هذا حماية للمرأة أن تُلحق ظلماً بمتهم ، وحماية لمتهم قد يكون امرأة أيضاً ، من أن يصدر عليه حكم بناءً على شهادة خامرتها العاطفة!

أضف إلى أن المرأة نسَّاءة بالفطرة ، همومها كثيرة ومشاغلها أكثر ، بين حمل وإرضاع وتدبير شؤون البيت والزوج والأولاد ، فقد تنسى أن ما حدث قد حدث ، فما المانع أن تُذكِّر امرأة أخرى بواقعة شهدتاها معاً ، ثم قد تشهد امرأة واحدة بما رأت ، ولا يأتِ رجل لينقض شهادتها ، فيأخذ القاضي بشهادتها ملزماً ، إذ لا مانع من أخذ شهادتها ، أما أن تكون شهادتها نصف شهادة الرجل فهي عندما تتضارب الشهادات ، ويكثر الشهود ، وإن لم يكن في القضية إلا شاهدة واحدة فلا يغلق القاضي القضية ويتركها دون حكم لأن ما بين يديه نصف شهادة!

أما عن مسألة القوامة والطلاق ، فلماذا وضعها الإسلام بيد الرجل لا بيد المرأة؟

وقد سألتني بعده قد تكون المرأة أعقل من الرجل فلماذا له القوامة عليها ، وهذا سؤال جميل وفي موضعه ، ولكن سبق أن أخبرتك أن الإسلام إذ يُشرِّع فإنما يُشرِّع للنوع ولا يجعل لكل فرد في النوع شريعة خاصّة به! وإذا ما كانت المرأة أحسن تدبيراً وارتضى الزوج عقلها وفهمها فمن ذا الذي سيدخل بين رجل وامرأته ويقول له : لا تسمح لها أن تدير هذا أو تترك ذاك ، وقد يكون الرجل كامل العقل والرجولة ويرى في زوجته فهماً ونضجاً ويكل إليها تدبير جانب من حياتهما ، فأين المانع في هذا؟!

أما بالنسبة للقوامة فلا يوجد تجمّع بشري قام يوماً لم يكن فيه شكل من أشكال السلطة ، بحيث يكون البعض حاكماً والآخر محكوماً ، انظر إلى المجتمعات من حولك ، هل يأخذ الناس جميعهم تدبير أمور هذه المجتمعات؟ أيسنُّ الجميع القوانين؟ أيحكم كل الناس بين المتخاصمين؟ أم أنّ في كل مجتمع نخبة ارتضت البقية أن توكل إليها أمر السلطة ، انظر إلى الشركات من حولك ، أيوجد شركة ليس فيها مجلس إدارة ، وليس له مدير يرأس هذا المجلس ، انظر إلى هذا السجن الذي نحن فيه ، هل جميع سجانينا برتب واحدة ، ألا يوجد جنود وضباط وآمر لهذا السجن؟! والبيت هو تجمّع إنساني ولا بد له من قائد ، والقيادة تعني بالضرورة اتخاذ القرارات ، والقرارات النابعة من عقل فيه شيء من العاطفة إنما هي أصوب من قرارات نابعة من قلب فيه شيء من العقل ، وقد أثبت علم النفس ، واصطلح الناس أن المرأة عاطفية ، سريعة الانفعال ، سريعة التأثر- تثور في لحظة وتهدأ في لحظة ، بينما الرجل أملك لقراره ، وأحزم لنفسه ، فلأجل صلاح المرأة ، وصلاح الرجل ، واستمرار البيوت جعل الإسلام القوامة بيد الرجل ، والذي جعل هذه القوامة بيد الرجل هو الله وليس الرجال المسلمون أنفسهم ، والله هو صانع هذا الجنس الذي ننتمي إليه ، وهو الأعرف بما يصلحه وما يفسده ، لماذا إذا اشتريت تلفازاً تسارع على الفور لتقرأ كُتيب الاستخدام الذي

أودعه فيه صانعه؟ أليس لأنه أعلم منك بأمثل استخدام له ، فلماذا نثق بالصانع الإنسان ولا نثق بالصانع الله؟!

وما ينطبق على القوامة ينطبق على الطلاق ، وذات الأسباب التي جعل الله لأجلها القوامة بيد الرجل ، هي التي جعل لأجلها قرار الطلاق بيد الرجل أيضاً ، وإني لأقسم لك بالله غير حانث أنه لو كان قرار الطلاق بيد المرأة ما أمضت امرأة سنة تحت زوجها!

ثم من قال أن المرأة إذا أرادت أن تحصل على الطلاق فلا سبيل لها إلا عن طريق الزوج ، على العكس تماماً ، بإمكانها أن ترفع شكواها إلى القاضي إذا كان التعايش بينهما مستحيلاً وكان ظالماً لها ، وبإمكان القاضي أن يطلقها منه ، بل وأعطى الإسلام المرأة حق خلع الزوج ، حتى ومن غير بأس وإن كان شنّع على استخدام هذا الحق لضمان استمرار البيوت وصلاح المجتمع ، وهذا حدث في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ جاءت امرأة ثابت بن قيس كما في البخاريّ إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقالت له : يا رسول الله إني لا أُعيبُ على ثابتٍ في دين ولا خلق ولكني لا أطيقه! فقال لها : فتردين عليه حديقته؟ -وهو المهر الذي دفعه لها- فقالت : نعم ، فأمره أن يطلقها ، وقد حصلت هذه الزوجة على الطلاق من زوج شهدت هي أنه صاحب خلق ودين ولكنها لا تحبه ، فما غصبها أن تبقى تحته وإن حسنت أخلاقه!

وتسألني لماذا نستقوي بالملائكة على النساء ، ونخبرهنّ إن لم يأتين إلى فراش أزواجهن بعد أن يطلبوا منهن فستلعنهن الملائكة حتى يصبحن!

هذا أكثر أسئلتك شغباً وأشدها طرافة ، وما كنتُ أحسب أن يصدر منك ، أما وقد سألت فالأمر لا يُجاب عنه دفعة واحدة ، ولا يُعالج من زاوية واحدة ، وإلا كان حكمنا حكماً قاصراً ، ولكن عليك أن تعرف أيها العزيز أن الإسلام ما أعطى أحداً حقاً إلا جعل له في مقابله واجباً ، وإن لم يكن هذا الواجب فرضاً نجد أن الإسلام قد حثّ عليه كسلوك أخلاقيّ ، وسأضرب لك مثلين كيف يقابل الحق الواجب ، وكيف يكون الحث الأخلاقي أيضاً .

الإسلام حين جعل من حق الرجل الحصول على المرأة في الفراش ، وجعل من واجبها تمكينه من نفسها ألقى في وجه هذا الحق الذي منحه للرجل واجباً أيضاً ، ذكره ربنا تعالى في القرآن الكريم بقوله : «وعاشروهن بالمعروف»!

وهذا أمر صريح للرجل بحسن صحبة المرأة ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم «خيركم خيركم لأهله»! والعشرة بالمعروف يدخل ضمنها أن يتفهم الرجل ظروف زوجته النفسية والجسدية ، فإذا وجد فيها عزوفاً طبيعياً عن الأمر أن لا يطلبه ما دام هذا العزوف شأن ليلة ، ولكن الإسلام إذ هدد و توعد فهو عندما تمنع المرأة نفسها من الرجل دون مبرر ، ثم إني

أستغرب منكَ أن تعرض العلاقة في الفراش كأنها حق وواجب ، لماذا نصور هذه العلاقة على أنها حيوانية محضة خالية من المشاعر والأحاسيس ، وكأن الرجل يسعد إذا كانت المرأة بين يديه قطعة من اللحم البارد لا تبادله الأحاسيس والمشاعر ، ثم لماذا نصور الأمر على أنه متعة للرجل وحده ، من قال أن المرأة لا تسعد بالجنس ، ولا تطلبه من الرجل كما يطلبه الرجل منها ، لماذا نصوره على أنه خدمة من شخص لآخر وليس علاقة متبادلة يجني بها الطرفان سعادة ويحققان لذة ، منذ متى كانت البيوت قائمة على الحق والواجب ، إن الحق والواجب لا يلجأ الناس إليهما إلا إذا وقع الخلاف والشقاق ، أما في لحظات الوئام فالزوج المُحب يتفهم عزوف زوجته وتعبها نفسياً وجسدياً وإن كان به رغبة للجنس ، والزوجة المحبة تأتي إلى زوجها وتنزل له عن نفسها إذا شعرت أن لديه رغبة بها وإن لم تكن هي ممتلئة بالرغبة عن آخرها ، وهذا ما على الرجل أن يفعله ، فقد ترغب المرأة في العلاقة ولا يرغب بها الرجل ، فكما هي تنزل عند رغبته بدافع الحب ، ينزل هو عند رغبتها بدافع الحب أيضاً ، الأمر علاقة حميمة ، لماذا تصر على عرضه على أنه علاقة جلد ، كأن المرأة ستوثق وسيحمل الرجل سوطاً ويضربها!

أما التربية الأخلاقية في مقابل الحق ، فخذ مثلاً عندك قصة الدَين ، لو استدان رجل من آخر مبلغاً من المال وحان

وقت السداد وعجز المدين عن وفاء الدين لدائنه ، من حق هذا الدائن أن يلجأ للقانون كما في كل القوانين والشرائع من حولنا ، ولكن الإسلام يخبرنا عن رجل يجيء يوم القيامة ليس له حسنة إلا أنه كان يعطي من يستدينون منه مدة أخرى بعد أن انقضت الأولى فيتجاوز الله عنه لما كان يتجاوز عن الناس ، فإذا كان الإسلام يحرص على التعامل بود وأخلاق بين الذين يعيشون في مجتمع واحد ، ألا يكون أحرص على هذا بين الذين يعيشون في بيت واحد؟!

وعندما نقول أنه لا يحق للمرأة أن تمنع نفسها من زوجها دون سبب ، فبالمقابل ليس للرجل أن يمنع نفسه منها دون سبب ، وكون النص جاء للنساء فلا يُعفى منه الرجال! وقد رفض الإسلام الانشغال عن حق الزوجة في الفراش بالعبادة ، وقال النبي للصوام القوام : إن لأهلك عليكَ حقاً!

وعندما جاءت امرأة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقالت له : إنّ زوجي يصوم النهار ويقوم الليل ، وأنا أكره أن أشكوه وهو يعمل بطاعة الله عزّ وجل .

فقال لها عمر : نعم الرجل زوجك .

فجعلت تكرر قولها وعمر يكرر عليها قوله ، إلى أن قال له كعب الأسدي : يا أمير المؤمنين إن هذه المرأة تشكو زوجها في أمر مباعدته إيّاها في الفراش .

فقال له عمر : كما فهمت كلامها فاقضِ بينهما

فقال كعب : عليّ بزوجها

ولما جيء به فقال له : إن امرأتك هذه تشكوك .

قال : أفي أمر طعام أو شراب؟

قال كعب : لا

فقالت المرأة :

نهاره وليله ما يرقده

ولستُ في أمر النساء أحمده

فقال زوجها :

زهدني في فراشها وفي الحلل

أني امرؤ أذهلني ما قد نزل

في سورة النحل وفي السبع الُطول

وفي كتاب الله تخويف يجل

فقال كعب :

إنّ لها عليكَ حقا يا رجل

تُصيبها في أربع لمن عقل

فأعطها حقها ودع عنك العلل

ثم قال : إن الله قد أحلّ لكَ من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فلك ثلاثة أيام والرابع لزوجتك .

فقال عمر : والله ما أدري من أي الأمرين أعجب ، أمن فهمك أمرها ، أم من حكمك بينهما؟ اذهب فقد وليتك قضاء البصرة!

فأين جنَّد الإسلام الملائكة في صف الرجال ضدَّ النساء!

أما الوعيد في الحديث فلأن الجنس حاجة بشرية مُلحة ، لا يستطيع الإنسان الانصراف إلى شؤون حياته دون إشباعها ، وإن لم يشبعها بالطرق الحلال لجأ إلى الحرام! وليس على وجه الأرض إنسان طبيعي إلا وفيه هذه الرغبة ، والإسلام إنما شرع الزواج لإعفاف الناس ، الرجل والمرأة معاً ، وكان من الطبيعي أن يقف ضد كل سلوك يقف حجر عثرة أمام تحقيق الناس لعفتهم ، وما لم يقبله من المرأة لم يتهاون فيه مع الرجل!

وما كاد الدكتور سامي يتم كلامه ، حتى جاء السجانون يدفعوننا إلى زنازيننا معلنين انتهاء هذه الفسحة!

مرة أخرى أقول لكِ : دعكِ منهم ، وتعالي إليَّ ، لقد اشتقتُ إليكِ يا أسماء ، هدَّني هذا الشوق ، صرتُ كبيوتِ غزة التي أصابتها الصواريخ فلم تهدمها بالكامل ، فلا هي واقفة على قدميها ، ولا هي مسوَّاة بالأرض ، أطلال بيوت ، وهكذا أنا بدونكِ أطلال إنسان ، لربما أنتِ في غيابي ينقصكِ شيء ، أما أنا في غيابكِ ينقصني أنا .

تعالي إليَّ ليصير هذا السجن حديقة ، وتصير قضبان الزنزانة باقات ورد ، والجدران قصائد .

هاتي يدكِ لأفكَّ عزلتي ، هاتي شعركِ لأزيح عن كاهلي هذا الليل ، هاتي شفتيكِ لتصير مرارة السجن شهداً ، هاتي ضحكة لينزاح الجبل الجاثم على صدري ، هاتي غمازة من

خدكِ لتشرق الشمس في الثلث الأخير من الليل ، هاتي رائحتكِ إني أختنقُ بدونكِ!

تأخر الوقت يا أسماء ونام الجميع ، حتى السجّان نام ، وأنا السجين الوحيد الذي أيقظه حبكِ . في النهار يشغلوني عنكِ ، وأتسلى بهم من هذا الشوق ، أما في الليل فيتركوني لكِ تستفردين بي . تأخر الوقت حبيبتي وأنا لا أريد إلا أن أطبع قبلة على جبينك قبل النوم .

تصبحين على خير حبيبتي ، أما أنا فسأدعو لنفسي أن أصبح عليكِ!

لم تكن الزنزانة جامعة يا أسماء ، لم يكن الكل على ثقافة واحدة ، كان بينهم من ذكرتُ لكِ ، والآن أنتِ على موعد مع رجل لم تخرجه مقاعد الجامعات ، ولا عرف طريقاً إلى المكتبات ، هذا الرجل خرّجته الحياة ، وصقلته التجارب ، وصنعه الزمن الذي حوّل الفحم إلى ألماس!

كان أبو خالد أكبرنا سناً ، وأطولنا سجناً!

لهذا لم يكن أحد غيري يناديه بأبي خالد ، كانوا ينادونه بالعميد ، كان عميد المساجين ، سُجن في الخامسة والأربعين من العمر ، وهو الآن في الخامسة والستين ، ومدة محكوميته لا أفق لها ، ولا حد ، مسجون مدى الحياة ، فدمهم غالٍ جداً من يقربه يُحكم بالمؤبد ، وليس كدمنا رخيص يُسفك على مرأى من العالم ، ومن يسفكونه يعودون إلى ثكناتهم ليحصلوا على

أوسمة يضعونها على صدورهم! الطريقة الوحيدة ليخرج العميد من سجنه هي أن يموت ، تخيلي سجناً لا يفكه إلا الموت!

ولد العميد يتيماً ، فقد تفرّق دم أبيه بين الهاغانا والأرغون وهو جنين في بطن أمه! ربّته أمه وجدتُه لهذا هو يعرف عن هذه الأرض وتراثها أكثر مما يعرف جبل الكرمل! ويحكي قصصاً عن البلاد أكثر مما تحكيه أسوار القدس! كان لي في السجن عزاءً ولا يمكنني أن أشرح لكِ كيف يمكن لسجين أن يجد عزاءً في سجين مثله ، هذا شيء يُحسُّ ولا يُحكى ، تماماً كحبكِ يا أسماء ، وكان فيه شيء من الأب الذي حالت قضبان السجن بيني وبينه ، وكان فيه شيء من جدتي التي حرمني السجّان حكاياها! كان يحكي لي كل يوم حكاية قبل النوم ، كأني طفل وكأنه أبي ، بل كأنه شهرزاد تقص لشهريار كل ليلة وتتركه معلقاً على حبال اللهفة إذ تسكت كل صباح عن الكلام المباح!

لكل حدث عنده قصة ، ولكل موقف عنده حكاية ، لا ينضب أبداً ، نهر من الرواية ينبع من الكلام ليصبَّ في الكلام ، وبين منبعه ومصبه شُربت من صوته أروع القصص!

أول حكاية قصها كانت في ليلتي الأولى في السجن ، أتذكرين ذاك الحوار المحتدم بين الدكتور سامي وفراس حول الحدود في الإسلام؟ في تلك الليلة وقبل أن يخلد إلى النوم ، قال لي

كلاماً بدا لي أنه استمر يقلبه في رأسه منذ أن انتهى حوارهما حتى لحظته تلك ، قال لي : أتعرف يا حمزة ، أنا لا أحترم أولئك الذين يتعرضون للدين ويشككون فيه ، ولكني أتفهم!

أتعرف لمَ؟

- لمَ؟

- لأن رجال الدين تغيَّروا عن «أيام زمان» لقد ابتعدوا عن الناس ، صاروا موظفين يا حمزة بعد أن كانوا دعاة! قديماً كان الدين مسؤولية ، وكان رجاله على قدر هذه المسؤولية ، يحببون الله إلى خلقه ، لأنهم كانوا يطبقون في الحياة ما تعلموه من الكتب ، أما اليوم فصاروا يعرفون كثيراً ويعملون مع الناس قليلاً ، لهذا نفر منهم الناس!

- هذا صحيح ، ولكن إذا أخطأ رجال الدين فما ذنب الدين؟

- الدين لا ذنب له ، وحتى الناس ليسوا معذورين في موقفهم هذا ، ولكن الناس ليسوا سواء ، عندما رأوا أن رجال الدين في واد وهم في وادٍ نفروا منهم ثم نفروا من الدين لأنهم الدين عند أغلب الناس!

- ولكن النفور ليس تصرفاً صائباً ، إذا أخطأ طبيب فليس الحل أن نهدم المستشفيات ، الخطأ وقتذاك شأن الطبيب وليس شأن الطب ، وامتناع الناس عن إتيان ذلك الطبيب مبرر ، ولكن امتناعهم عن التداوي لا مبرر له!

- كلامك صحيح يا حمزة ، ولكن كما أخبرتك عندما تُشعر الآخرين بأن هناك فجوة بينك وبينهم لا يمكنك أن تلومهم إذا ابتعدوا عن كل ما يمت إليك بصلة ، الناس تحب الله يا حمزة ولكنها تحتاج إلى من يأخذ بأيديهم إليه ، لا لمن يقف بينهم وبينه! قديماً يا حمزة إذا تشاجر مزارعان على متر أرض كانوا يذهبون إلى رجال الدين لا إلى المحاكم ، لأنهم كانوا يرون في رجال الدين حرصاً حقيقياً على إصلاح ذات البين! وإذا لم يذهب المتخاصمان بنفسيهما إلى الشيخ جاء هو إليهما إذا ما تناهى إلى مسمعه خبر خصامهما ، فكان الناس يجلونهم! اليوم الدين عندهم خطبة الجمعة وإمامة الناس ، جعلوا الدين سجيناً في المسجد بينما كان الدين قبلهم طليقاً في الحياة .

وقبل أن أعقب على كلامه . . .

تابع قائلاً : كانوا قديماً يسعون إلى الأَجر ، أما اليوم فيلهثون إلى الأُجرة ، اسمع يا حمزة ، سأحكي لك حكاية وأريك إلى أي مدى كانوا يعملون مع الناس لما عند الله ، على عكس اليوم لا يعملون مع الناس إلا طمعاً بما عند الناس!

تشاجرت امرأة مع زوجها ، ورغم كل مساعي الصلح عزمت هذه المرأة على الطلاق ، تدخل الأهل والجيران والمرأة متشبثة بالطلاق ، وعندما وصل الخبر إلى شيخ القرية ، حمل إبريق وضوئه وتوجه فوراً إلى بيت الزوجين ، وعندما وصل إليهما ، رحبا به ، ثم جلسا بين يديه يحكي كل منهما ما لقيَ

من الآخر ، وحاول الشيخ أن يثني المرأة عن طلب الطلاق ، إلا أنها ظلّت على طلبها . . .

عندها قال لها : لو سمحتِ املئي لي هذه الإبريق فإني أريد أن أدخل الخلاء لأتوضأ

فقالت له : ولم أحضرت إبريقكَ ، أيوجد بيت ليس فيه إبريق يا شيخ!

فقال لها : لقد انكشفت على هذا الإبريق ، ورأى عورتي ، وأنا أخجل أن أخلع ملابسي كل يوم على إبريق جديد!

عندها عرفت المرأة مراد الشيخ ، وفهمت المغزى من فعلته هذه ، وأنه أراد منها أن تمسك عليها زوجها ، فليس هيناً على الحرة أن تنكشف كل يوم أمام رجل ، تطلب الطلاق من هذا لتتزوج من ذاك!

فقلتُ له وأنا في غمرة نشوة الحكاية : حكاية جميلة يا أبا خالد .

فقال لي : الأجمل من الحكاية أبطالها يا حمزة ، أما رأيت كيف أن الشيخ هبَّ من فوره يصلح مشاكل الناس ، ولم يقل في نفسه : ما لي وللنّاس ، وأي أجرة سأنالها من هذا الوقت الذي سأضيعه ، كان يبحث عن الأجر يا حمزة ، ثم انظر إلى المرأة ، رغم عنادها أول الأمر إلا أن درسه وقع بليغاً في نفسها ، لأنها كانت على يقين أنه لا يريد لها إلا الخير ، وعندما كان درسه قاسياً أخذت العبرة منه ، لأنه غلب على ظنها أن هذا

الرجل لن يصدر منه إلا الحق!

وعلى طلب سجين معنا بخفض صوتينا لأنه يريد أن ينام، انقطع تلك الليلة حبل الكلام!

كانت هذه الحكاية الأولى يا أسماء، وتبعها حكايا أحاول جاهداً أن لا أنساها، هذه الحكايا على بساطة أحداثها وسردها، إلا أنها تحمل في طياتها الكثير، نص قصصي ليس له مؤلف، اشترك في صياغته شعب كامل، كل جيل يزيد في النص الأول مجهول المؤلف ويحذف منه، لهذا لا تستقر الحكايا الشّعبية على حال، إلا أن الحدث الرئيس قلما يتغير، وقد يحصل أن يعبث الرواة فيه، ولو وقعنا على النص الأول وقارناه مع الشكل الأخير الذي استقر عليه هذا النص الحكائي لوجدنا عبثاً من النوع الحلو هو الذي كفل له عمراً طويلاً! هذه الحكايا أشبه بعجين بين أيدي الرواة يصنعون منه أرغفة الكلام بما يتلاءم مع العصر والسامعين، أو هو كقماش يقصونه ويفصلونه على مقاس الزمن الذي يُحكى فيه، على أنه مهما تغيّر يبقى محتفظاً بعنصرين لا يتخلى عنهما، هما التشويق والعبرة، لهذا تقع الحكايا عميقاً في النفوس.

كانت أمتع لحظات سجني هي التي يقول فيها أبو خالد: أتعرف يا حمزة!

عندها أعرف أن في صدره كلاماً يتحشرج ويريد أن يتخلص منه، وفي رأسه فكرة يريد أن يلقيها عليَّ وقد تعب

من حملها ، كعتّال أرهقه كيس ثقيل على عاتقه ، وقد أزِفت اللحظة التي سيلقيه فيها عنه!

ذات ليلة قال لي كعادته : أتعرف يا حمزة؟

فتنبه كل شيء بي ، وقبل أن أقول له ماذا يا أبا خالد ، سارع قائلاً : يُخيل إليَّ أن الناس بإمكانهم أن يتغيروا .

- يتغيروا؟ كيف؟

- حدث يقع يقلبهم رأساً على عقب ، فيصبحون أشخاصاً جُدداً ماكان لكَ أن تتصور أن بإمكانهم أن يصبحوا هكذا .

- قلة من الناس يا أبا خالد ينقلبون رأساً على عقب ، وفي الغالب يمثل الأشخاص ذات الدور على مسرح الحياة ، ولكني لا أنكر أن الإنسان مذهل ، وأنه يصعب التنبؤ به ، ولكن هذه حالات نادرة ، وإن كنتُ أعرف أحداثاً تغير فيها الناس تغيراً جذرياً ، وهذه الأحداث إن كانت كثيرة في عددها إلا أنها تبقى قليلة قياساً بالرتابة التي تحكم أغلب الناس!

- إذن تؤمن أنَّ شيئاً كهذا قد يقع؟

- أجل أؤمن أن هذا ممكن الحدوث ، أساساً لا سبيل لإنكاره ، لأنه وقع فعلاً ، ولكن هذا الانقلاب المذهل كان دوماً مرتبطاً بحدث استثنائي شكّل لهم ولادة جديدة ، دون هذا الحدث كان من الممكن أن يبقوا كما هم ، ويموتوا بالشكل الذي عاشوا عليه .

- أخبرني يا حمزة عن حدث كان سبباً في تغيّر البعض ،

وانتقالهم من النقيض إلى النقيض .

- لا ، أخبرني أنت أولاً ، لأني على يقين أنكَ ما فتحت هذا الحديث إلا لحكاية في رأسك ، أعرفك جيداً يا أبا خالد .

قال لي وهو يبتسم :

فعلاً : كنتُ سأحكي لكَ حكاية تتعلق بهذا الأمر ، ولكن أخبرني أنتَ أولاً ، وسأخبرك أنا لاحقاً .

- ماذا إن نعست كالعادة ، وحرمتني حكايتك؟!

- لا لن أنعس ، أعدك

- حسناً ، تعرف قصة موسى عليه السلام مع فرعون لا شك ، لهذا لا داعي للحديث عما تعرفه ، ولكني سأقف على الحدث الذي يعنينا ، عندما جاء موسى إلى فرعون يبلغه ما أمره الله به ، استكبر فرعون كعادة الطغاة مع أنبيائهم ، وكان فرعون غبياً وقد استدرجه موسى لنزال على مرأى من الناس ومسمع ، وكان موسى حذقاً ذكياً ، فقد حدد هو مكان وزمان النزال ، فقد اختار يوم الزينة ، وهو يوم عيد عند الفراعنة ، وفيه يجتمع الناس ، وقد أراد موسى أن يبلغ رسالته إلى أكبر عدد ممكن ، فاختار حدثاً اجتماعياً يشهده الناس ، وطلب فرعون من سحرته أن يحضروا لنزال موسى ، وطلب فرعون السحرة دوناً عن زبانيته وساعديه لأنه اعتقد أن ما جاء به موسى ليس إلا سحراً ، فقد سبق أن ألقى موسى عصاه أمام فرعون فصارت ثعباناً كما تعرف ، وعندما كان اليوم المشهود ، السحرة في جهة

وموسى في جهة ، والناس على رأسهم فرعون شهوداً ، فألقوا حبالهم وعصيهم ، وكانوا سحرة ماهرين ، حتى موسى ظنَّ الحبال والعصيَّ صارت حيات فعلاً ، فأوجس خيفة ، ولكن الله ربط على قلبه ، وأمره أن يلقي عصاه ، فلما ألقاها صارت ثعباناً أكل ثعابينهم ، عندها عرف السحرة بخبرتهم أن هذا ليس سحراً ، فسجدوا من فورهم مؤمنين برب هارون وموسى ، ولكن فرعون هددهم وتوعدهم بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وبصلبهم على جذوع النخل ، ولكن هذا التهديد والوعيد ما كان له أن يثنيهم ، فنفَّذ فرعون وعيده وثبتوا حتى ماتوا! تخيل إلى أي مدى يمكن لحدث أن يُغير الناس يا أبا خالد ، جاؤوا ليظهروا للناس كذب موسى ، فإذا بهم يشهدون بصدقه! كانوا في الصباح سحرة وفي المساء شهداء!

- يا الله ، فعلاً بإمكان الناس أن يتغيروا ، ولكن لماذا قلت أن فرعون كان غبياً ، ليس بالضرورة ، قد يكون مكابراً فقط .

- أشياء كثيرة قام بها فرعون تُثبت غباءه يا أبا خالد .

- أشياء مثل ماذا؟

- خُذ عندك مثلاً : عندما رأى رؤياه الشهيرة قبل ميلاد موسى بسنوات ، رأى في قصره ناراً عظيمة تلاحقه ، وهو يركض فاراً منها ، إلى أن التهمت القصر ، فلما أفاق دعا المعبرين إليه ، فأخبروه أن زوال ملكه سيكون على يد وليد من بني إسرائيل ، فأمر فرعون بذبح كل مولود ذكر يولد لهم ، هذا

يعني أن فرعون صدّق تعبيرهم لرؤياه ، وبما أنه صدقه فهو لا محالة واقع ، وبما أنه صار عنده قدراً لا يمكن رده فلماذا عمد إلى ذبح الأطفال؟ فما دام قد صدقهم فإن هذا الطفل سينجو من الذبح ويهلكه ، وهذا ما حدث فعلاً ، فقد قتل آلاف الأطفال كي لا يأتي موسى ، وعندما جاء رباه في بيته!

- الناس العاديون لا يستسلمون بسهولة يا حمزة إذا ما تعلق الأمر بالحياة والموت ، فكيف بالملوك؟ لعله كان مقاتلاً شرساً وأراد أن يحارب حتى النهاية ، وليس بالضرورة أن يكون غبياً وإن كان طاغية!

- يكفي بالمرء أن يكون طاغية ليكون غبياً يا أبا خالد ، ولكن هناك أمر آخر يظهر مدى غبائه .

- وما هو؟

- لقد طلب من هامان أن يبني له صرحاً عظيماً يصعد عليه ليرى ربَّ موسى في السماء! ألا يكفي أن يكون غبياً أن يعتقد أن حجارة الأرض كلها ممكن أن تصطف فوق بعضها لتصل إلى السماء فضلاً عن حجارة مصر وحدها!

- ممكن!

- المهم ، لا تتركني هكذا مشتاقاً لحكايتك

- أي حكاية؟

قلتُ له بنبرة حادة : أبا خالد!

فضحك وقال لي : حسناً حسناً

ثم أردف قائلاً : حكايتي تشبه إلى حد بعيد حكايتك وإن اختلف أبطالها ، فتشبهها في ما تسميه حدثاً يمكن أن يكون ولادة جديدة للناس ، كان يا ما كان ، في قديم الزمان ، ملك جائر ظالم ، سخّر الناس لخدمته ، وفرض عليهم الضرائب والأتاوات ، حتى ضاق الناس به ذرعاً ، ولكن الخوف كبّلهم أن يقفوا في وجه ظلمه ، أو أن يمتنعوا عن دفع أموالهم إليه ، وحدث في أحد الأيام أن قام شاب بنبش قبر والده الملك ، فقد ورث صاحبنا المُلكَ من أبيه ، وكان من عادة الناس في ذلك الوقت أن يضعوا أموالاً مع موتاهم معتقدين أنهم سيحتاجونها إذا وقع البعث ، وأخذ هذا الشاب الذهب الذي كان مدفوناً مع الملك الأب ، وعندما وقف الملك الابن أمام قبر والده المنبوش والمنهوب ، عرف أن الناس قد صاروا أكثر جرأة ، وأنها مسألة وقت ليس إلا كي يخرجوا عليه ويسلبوه ملكه ، فقرر أن يسير فيهم بالعدل ، وبالفعل تغيرت سيرته فيهم ، فأحبه الناس بعد بغض ، وقبلوه بعد رفض ، وفي أحد الأيام كان الملك في رحلة صيد مع حاشيته ، فإذا بطائر صغير يرفرف فوق رأسه مصفقاً بجناحيه كأنه إنسان مذعور يطلب النجدة ، عرف الملك أن خطباً ما وقع لهذا الطائر ، وأنه ما هان في عينيه النبال والسهام إلا لأن ما وقع له أشد مما أمامه ، فقال الملك في نفسه سأتبع هذا الطائر ، وأنظر في أمره ، وبالفعل تبع الملك العصفور الصغير مسافة صغيرة ، فإذا به يرى حيَّةً صارت على بعد شبر من

عشه تريد أن تلتهم صغاره ، فطلب من أحد حراسه أن يقتلها ففعل ، عندها التفت الملك إلى من معه وقال لهم : ظلمنا حتى نُبشت القبور ، وعدلنا حتى استنجدت بنا الطيور!

أرأيتِ يا أسماء أيَّ لذة في كلام أبي خالد ، وأي سحر ، صوته يجعل هذا السجن أرحب ، ويحيل لحظاته من قيد إلى فضاء ، أخذوا مني هذه الأرض وقيدوني في أربعة أمتار منها ، فجاء هو ليطلقني ، حدثني عن مدن في بلادي لم أزرها ، وعن وقائع لم أشهدها ، وعندما افتقدت حكايا جدتي كان هو لي تعويضاً عنها ، رحيم هذا الرب الذي يعطينا قسطاً من حنان في أشد لحظات الحياة قسوة ، ويعطينا شمعة في أشد لحظات الليل حلكة ، وقد كانت حكايا أبي خالد شموعاً أنارت عتمة ليل السجن الطويل ، ولو سألتني اليوم عن ليل السجن ما خطر لي إلا حكاياه ، ولكنّ حكاية واحدة خرجت من تحت عباءة الليل فرواها في وضح النهار!

كنا في باحة السجن التي يخرجوننا إليها كل أسبوع لنرى الشمس فلا نتعفن في الزنزانة ، وبهذا نصبح بصحة أفضل ومؤهلين لنعيش أكثر كي يسجوننا أطول كما سبق وأخبرتك ، كنتُ جالساً بعيداً عنهم قليلاً أفكر فيكِ ، لم أكن أفكر فيكِ بقدر ما كنتُ غارقاً فيكِ ، حلم من أحلام اليقظة التي كنتُ أتعزى بها في السجن ، ولم أستفق من هذا الحلم إلا ويد أبي خالد على كتفي يسألني : لماذا تجلس وحدكَ يا حمزة؟

قلتُ له مازحاً : اشتقتُ إلى الزنزانة الانفرادية

ضحكَ يومها ملء صوته ، ثم قال لي : لم تجبني .

- لا أعرفُ يا أبا خالد ، ولا يوجد سبب مقنع ، جلستُ هنا فسرحتُ فيمن تركتهم خلفي .

- هذه أشد لحظات السجن وجعاً يا حمزة ، الذاكرة أشد أدوات التعذيب فتكاً ، أحياناً يُخيَّل إليَّ أنَّ النسيان نعمة ، ولكن أتعرف ما هي النعمة الحقيقية في هذا السجن؟ ليس أن تنسى ، لأنكَ إن نسيت ستعود لتتذكر ، ولكن النعمة الحقيقية أن تفقد ذاكرتك ، فتعيش كل يوم حياتك كأنه اليوم الأول والأخير!

- ما الذي تريد أنتَ أن تنساه تحديداً؟

- كل شيء ، بقدر ما أريد أن أتذكر كل شيء ، أريد أن أنسى كل شيء! أتحسب الأمر هيناً يا حمزة؟ سُجنتُ وكان ابني خالد في السابعة من عمره ، الآن هو في السابعة والعشرين ، وقد تزوج وأنجب أول أبنائه ، لقد كبر بعيداً عن عينيّ ، أردتُ أن يكبر أمامي ، لطالما كنتُ أخشى أن أموت كي لا يذوق اليتم الذي ذقته ، ولكني سُجنتُ فأخذني السجن منه وأخذه مني ، لم أكن أريد له أن يجرب جوع الأبوة ، أردتُ أن يجدني بقربه كلما احتاج إليَّ ، أردتُ أن يتخرج من الجامعة فأكون جالساً يوم تخرجه لأراه ويراني ، أردتُ أن أفرح بعرسه ، وأن أحمل ابنه ، ولكن كما ترى ها أنا مكبل هنا ، مثلك ومثل الجميع!

- لا تلم نفسك ، أنت عظيم يا أبا خالد ، وقد فعلتَ ما كان يجبِ عليكَ أن تفعله ، وأنا واثق أنه فخور بك الآن!

كانت المرة الأولى التي أرى فيها أبا خالد يبكي ، أوجعني بدموعه كما لم توجعني سياط المحققين ولكماتهم ، مؤلم مشهد دموع الرجال يا أسماء ، تعتقدين أن أحدهم جبلاً لا يركع ولا يلين ، ثم إذا انهمرت دموعه تذكرتِ أنه إنسان وأنه كان يتحامل على نفسه لفترة طويلة ، بكاء الرجال ليس ضعفاً يا أسماء ، أنهم يبكون لأنهم لم يبكوا في لحظات كان يجب أن يبكوا فيها فيتحاملون على أنفسهم .

ثم قال لي وهو يمسح الدموع عن خديه :

لستُ ضعيفاً يا حمزة ، وهذا السجن لم ينل من عزيمتي وإن كان نال من إنسانيتي ، ولكن غداً عندما تنجب ستعرف معنى الولد يا حمزة ، هذه القطعة المجتثة من قلبك ستكون نقطة ضعفك .

- كيف سأنجب وأنا هنا؟ بربك ألا ترى ما نحن فيه .

- غداً تخرج يا حمزة ، فترة سجنك وإن كانت طويلة إلا أنّ لها نهاية ، على الأقل لست مثلي ، عليك أن تموت لتخرج من هنا!

خيّم الصمتُ دقائق بيني وبينه ، فلا هو يجد كلاماً ولا أنا ، ثم باغتني بجملته الأثيرة على قلبي : أتعرف يا حمزة؟!

قلتُ : ماذا يا أبا خالد؟

فقال لي : أم خالد بمئة رجل ، ولكن لا شك أنها تعبت وهي تربي خالداً وحدها ، أردتُ أن أكون معها ، أن أعينها على الزمن وعلى ابنها ، الأولاد يحتاجون إلى التوجيه والتربية ، ويمكن للأم أن تربي ابناً وحدها ، ولكن الأب غير يا حمزة ، وأنا أكثر الناس معرفة ما هو الأب لأني ولدتْ يتيماً ، صحيح أن أمي وجدتي رحمهما الله لم يقصرا في تربيتي ولكن ظل فراغه في قلبي لم يملأه أحد! في لحظات الطيش والشباب كنتُ أريد أن أنعم بتوجيهه ، كنتُ سعيداً إلى حدٍ ما بأني حر ، ولكن حين كانت جدتي تحكي لي قصصاً عن الآباء والأبناء كانت تزيد حاجتي إلى أبي دون أن تدري!

عندما أخبرتْني عن الأب الغني الذي كان عنده ثروة طائلة حققها من تجارة رائجة ، وكان يعيش هانئاً ميسوراً ، ولكن لم يكن ينغص حياته إلا ابنه الوحيد الذي كان مدللاً ينفق مال أبيه يمنة ويسرة ، وعرف الأب أن ثروته ستصير يوماً إلى ابنه ، وكانت تزعجه فكرة أن هذه الثروة التي أفنى عمره في تجميعها وتنميتها سيبددها هذا الولد المدلل في وقت قصير ثم سيجلس بعدها يستعطي الناس لأنه لا يعرفُ عملاً ولم يجرب يوماً مهنة ، ففكر الأب في طريقة يثني بها ابنه المستهتر عن استهتاره ، وقضى إحدى لياليه مفكراً قلقاً ، إلى أن خطرت له فكرة ، قرر أن يرسل ابنه على رأس قافلة تجارية من قوافله ليبيع ويشتري بنفسه عله يشتد عوده ويصبح رجلاً ، ولا بأس إن

خسر في تلك التجارة ، فسيربح في غيرها ولكن المهم أن يبدأ!
وجد الأب صعوبة في إقناع ابنه المدلل بفكرته أول الأمر ، ولكن بعد إلحاح من الأب ، وافق الابن أن يرتحل على رأس القافلة ، وأوصى الأب أحد مساعديه الأمناء أن يلزم ابنه ، ويقدم على النصح والمشورة ، وأن يترك له حرية التصرف والقرار الأخير ، وارتحلت القافلة تمخر عباب الرمال ، وسارت ما شاء الله لها أن تسير ، ثم لَمّا جنَّ الليل نزلوا لِيُخَيِّموا على عادة القوافل ، نصبوا خيامهم ، وناموا ليلاً طويلاً لما أصابهم من وعثاء السفر ومشقة الطريق ، نهض الابن باكراً ، ووقف على تلة مشرفة ينظر إلى صباح البادية الساحر ، وبينما هو غارق في هذا المشهد الأخاذ إذ رأى عجباً ، رأى أسداً مقبلاً من بعيد وفي فمه أرنب كان قد اصطاده ، ثم تقدم الأسد نحو كهف ووضع الأرنب هناك وعاد أدراجه! وما هي إلا لحظات حتى خرج من الكهف ثعلب أعمى ، أخذ يتحسس طريقه ويتبع رائحة الأرنب ، إلى أن وصل إليه وأمسكه بفمه وعاد به إلى الكهف ليأكله! حدث كل هذا والابن مشدوه ينظر إلى هذا المشهد ، وما هي إلا دقائق حتى طلب من القافلة أن تستعد للرجوع بدل أن تكمل طريقها! وما كادت شمس ذلك اليوم تغيب حتى كان الابن عند باب بيتهم! دُهش الأب من سرعة عودة ابنه واستفسر عن السبب ، فأخذ الابن يقص على أبيه كيف أن الأسد أحضر الأرنب للثعلب الأعمى ، ثم أردف

قائلاً : إذا كان الله لم ينسَ

ثعلباً أعمى في الصحراء ، وساق إليه رزقه ، أينساني أنا المبصر؟

عندها قال له الأب : يا بني إن الله لا ينسى أحداً من خلقه ، ويرزق المجتهد والمتكل ، ولكني أردتكُ أسداً يعطي لا ثعلباً يأخذ!

خجل الابن من كلام أبيه ، وعزم من تلك اللحظة أن يجد ويجتهد وأن يكون الأسد لا الثعلب الأعمى!

هذه القصص كانت تُمتعني يا حمزة ولكنها كانت بالمقابل توجعني ، فقد كانت تذكرني أني يتيم ولا أب لي يوجهني وينصحني ويرشدني!

وما كاد عميدنا ينهي كلامه حتى رُنَّ جرسُ السجن معلناً انتهاء وقت الفسحة ، وحضر الجنود ليعيدونا إلى الزنازين كما تعيد العجوز دجاجاتها إلى القن!

كانت هذه أول مرة أرى فيها أبا خالد بهذه الرقة يا أسماء ، أتعرفين أنا الآن على قناعة أن البشر كثمرة الجوز ، تحيطها قشرة سميكة كي لا تُكسر بسهولة ولكنها من الداخل رقيقة وطعمها عذب ، لا نستطيع أن نرى طيبة الآخرين إلا إذا نجحنا في إزالة هذه القشرة السميكة دون أن نكسرها! البشر يخلعون قشورهم الصلبة التي يرتدونها لمواجهة الحياة عند أول موقف حنان ، حتى أنتِ يا أسماء كنتِ كثمرة الجوز! في لحظاتي

الأولى معكِ وتحديداً عندما رأيتكِ أول مرة وتبعتكِ ، كنتِ قاسية لأنكِ كنتِ تحمين هذه الأنوثة اللينة داخلكِ ، ولكن عندما أحببتكِ فانزاحت تلك القشرة كنتِ أعذب امرأة على سطح هذه الأرض ، وهكذا الناس جميعاً يا أسماء ، في كل إنسان بذرة خير حتى الأشرار منهم ، ولكل إنسان نقطة ضعف حتى الأقوياء منهم ، أما الأشرار الذين ماتت فيهم بذرة الخير تلك فلأنهم لم يجدوا من يسقيها ويعتني بها لتهيج وتثمر ، فصاروا قاحلين قُساة على الشكل الذي نعرفهم عليه ، طوال حياتي بين المحاربين تحت الأرض وفوقها كنتُ أعرف هذا الأمر جيداً ، عرفتُ أشخاصاً من الوهلة الأولى ظننتُ أن لا قلوب لهم ، أو أن هذه القلوب في صدورهم مجرد مضخات للدم ، فلا مشاعر فيهم ولا أحاسيس ، ولكني حين اطلعتُ على تفاصيل حياتهم خارج الأنفاق ، وبعيداً عن البنادق ورائحة البارود ، اكتشفتُ أن لهم قلوباً كقطع السُكر متى كانت في حياتها الطبيعية تذوب!

أعود بكِ إلى أبي خالد ، وهذه آخر مرة أرجع بكِ إليه ، لا لأن حكاياه قد نضبت ، ما زال في جعبتي الكثير منه ، ولكن أخشى عليكِ أن تملي ، مع أني أعرفكِ جيداً ، فأنت شغوفة بحكايا الجدات مثلي تماماً!

سألني مرة : أيمكن أن يحقد الأخ على أخيه يا حمزة؟

فقلتُ له : يمكن لهذا أن يحدث يا أبا خالد ، يكفي أنّ أول

أخوين على سطح الأرض قد قتل أحدهما الآخر .

- أتعني قابيل وهابيل؟

- أجل ومن غيرهما!

- يا أخي هذه القصة لو لم تكن في القرآن الكريم لظننتها ضرباً من الخيال ، كيف لأخ أن يقتل أخاه .

- إنه الحسد يا أبا خالد ، هذه النار إذ استعرت في قلب الإنسان جعلته شيطاناً

- ولكن لأجل امرأة؟!

- الأمر لا يتعلق بالسبب ، وإنما بالنفسية المريضة للشخص ، خذ عندك السرقة مثلاً ، الأمر لا يتعلق بالشيء المسروق أو قيمته المادية بقدر ما هو متعلق بكون هذا الشخص لصاً ، فالأمين لا يسرق لأن السلع رخيصة وإنما لأنه نبيل ويتورع عما ليس له ، فلو راودته أموال الدنيا كلها عن نفسه ما سرق ، في حين تجد شخصاً آخر يسرق بيضة ، والذي يسرق بيضة يسرق جملاً ، المسألة متعلقة بالمبادئ وليس بالأشياء .

- صحيح

- ما الذي دفعكَ لهذا الكلام يا أبا خالد ، ما أظنكَ إلا ستخبرني حكاية عن الإخوة ، قُلْ ، فقد صرتُ أعرفك .

- أنت لا تمل من الحكايا

- ومن ذا يمل منكَ يا أبا خالد

يبتسم تلك الابتسامة التي يبدو فيها وجهه كوجه صبي

في الثامنة ثم يقول لي : حسناً ، اسمع

كان يا ما كان في قديم الزمان ، أخوان متجاورين ، أحدهما غنيّ يملك مالاً كثيراً وعقلاً راجحاً ، كريم يواسي الناس بماله ، وأقربهم مواساة أقاربه وعلى رأسهم أخيه ، أما الآخر فكان حسوداً طماعاً لا يعترف بفضل أخيه عليه ، وكان هذا الحسود لا همَّ له في الدنيا إلا أن يضاهي أخاه . ونام الحسود ذات ليلة فرأى فيما يرى النائم أنه في مغارة واسعة ، فأخذ يتجوَّل فيها ، فعثر على مصباح ، فحكَّه ، فخرج منه مارد عظيم وقال له :

- شبيك لبيك عبدك بين يديك .

- أريد أن أضاهي أخي

- إنما جُعلتُ لتحقيق الأمنيات من الأشياء لا لإسداء النصائح ، ولكن في البلد الفلانيّ جبلاً أجرد ، لا ماء فيه ولا نبات ، اللهم إلا شجرة يتيمة في قمته تسمى شجرة الأماني ، اذهب إليها وسترشدك كيف تضاهي أخاك . وعندما أفاق الحسود من نومه ، حمل زاده وارتحل يريد شجرة الأماني تلك ، وفي الطريق التقى بضبع ، فسأله الضبع إلى أين المسير؟

- إلى شجرة الأماني

- وما هي شجرة الأماني؟

- إنها شجرة حكيمة تعرف أسرار الحياة ، وتملك جواباً لكل سؤال .

- وماذا تريد من شجرة الأماني؟

- أريد منها أن تخبرني كيف أضاهي أخي عزاً ومالاً وجاهاً .

- هل يمكنكَ أن تسأل شجرة الأماني سؤالاً عني؟

- بالطبع ، ماذا تريد أن أسألها؟

- سلها لماذا أنا هزيل هكذا ، فعلى كثرة صيدي وطعامي إلا أنني كما ترى ، جلد على عظم ، الضباع من حولي تسمن وأنا كل يوم أضعف من اليوم الذي قبله!

- حسناً ، سأسألها عن سبب ضعفك هذا .

وتابع صاحبنا مسيره ، يصل الليل بالنهار ، وكلما تعب عزى نفسه أنه عما قريب سيصل إلى شجرة الأماني ، وسترشده كيف يضاهي أخاه ، وأثناء سيره أنهكه التعب ، فجلس في ظل شجرة وارفة في بستان مرَّ عليه ، وما هي إلا لحظات حتى طلع عليه صاحب البستان ، فسلَّم عليه وتحدثا ، وعرف صاحب البستان أن الرجل ذاهب إلى شجرة الأماني ، فقال له :

- هل لك أن تسأل شجرة الأماني عني سؤالاً؟

- بالطبع ، ماذا تريد مني أن أسألها؟

- سلها لماذا شجري هزيل ومحصولي قليل كما ترى ، رغم أني أهتم بالشجر وأحنو عليه ، وأسقيه الماء وأضع له السماد ، وكل البساتين من حولي كما ترى محصولها كثير ، وغلتها وفيرة إلا بستاني .

- لا عليك ، سأسأل شجرة الأماني عن السبب ثم آتيك بالجواب .

ودَّع صاحبنا البستاني ، ومضى في طريقه ، يستقبل قرية ويودع أخرى ، إلى أن التقى أثناء سيره بأحدِ الملوك الذي كان يتمشى قرب قصره مع حاشيته ، فأخذ الملك يحدثه ويستفسر عن وجهته ، وعندما علم أنه ذاهب للقاء شجرة الأماني ، انفرد به بعيداً عن حرسه وقال له :

- هل لك أن تسأل شجرة الأماني عني سؤالاً؟

- بالطبع ، ماذا تريد مني أن أسألها؟

- سلها لماذا لا تخافني رعيتي كما يخاف الناس الملوك؟ فعلى كثرة مالي وجندي إلا أني لا أجد من الناس توقيراً كالذي يجده بقية الملوك؟ أريد أن تسأل عن السبب

- لا عليك ، سأسأل شجرة الأماني وآتيك بالجواب

وتابع الحسود طريقه ، وما كادت شمس ذلك اليوم تغرب حتى كان عند الجبل الذي عليه شجرة الأماني ، ونسي تعبه ، وأخذ يصعد الجبل غير عابئ بناتئ الصخر ، كأنه يسير في سهل لا يتسلق جبلاً ، وما هي إلا ساعة حتى كان عند شجرة الأماني ، وقال لها :

- السلام عليكِ يا شجرة الأماني

- وعليكَ السلام ورحمة الله يا إنسان ، سل حاجتك

- أريد أن أسألك لماذا الضبع هزيل على عكس رفاقه

الضباع ، رغم صيده الوفير ، ولماذا محصول البستاني قليل رغم أنه يحنو على شجره ، ولماذا لا تخاف الرعية الملك رغم كثرة ماله وجنده؟ وأريد أن أسألك كيف . .

هنا قاطعته شجرة الأماني قائلة :

- لا يحق لك أكثر من ثلاثة أسئلة .

- لكني لم أسأل سؤالي بعد!

- هذه مشكلتك ، أجيبك عما سألت ، وتذهب ثم ترجع مرة أخرى إليّ

- حسناً ما هي الإجابات .

- امضِ في طريقكَ ، وعندما تصل إلى صاحب السؤال سأنطق على لسانك!

عاد صاحبنا أدراجه ، وما أن وصل إلى الملك حتى طلب منه أن ينفرد به ، فأمر الملك المجلس أن ينفض وصارا وحدهما ، فقال له :

- أنت أيها الملك امرأة ، كنتَ صغيراً عندما مات الملك ، وكعادة قومك في مبايعة الملوك ، اجتمعتم جميعاً بعد دفنه ، ووقفتم في صمت ، ومن يحط طائر على رأسه يكون هو الملك ، وحط الطائر على رأسك ، فحسبك الناس صبياً ونصبوك ملكاً ، لهذا طبع النساء فيكَ ، فأنت لين وحنون ولو لبست ملابس الرجال .

- لا يعرف حقيقتي إلا أنت ، ما رأيكَ أن تبقى معي ،

فتتزوجني سراً ونحكم هذه المملكة معاً؟

- لا ، أنا أريد أن أرجع لأضاهي أخي

أمر الملك حراسه أن يغلقوا فم الحسود ويرافقوه حتى حدود المملكة ثم يطردوه ، ومضى في طريقه إلى أن وصل إلى البستاني ، وقال له :

- في بستانك شجرة زيتون معمرة ، وعند جذعها كنز مرصود تحرسه حية ضخمة هي السبب في قلة محصولك .

حمل البستاني فأسه وأخذ يحفر إلى أن وجد الحية وقتلها ثم استخرج الكنز ، وقال للحسود :

- ما رأيك أن تبقى معي ، فكما ترى المال كثير ، والبستان كبير ، أبني لك داراً وتأتي بأهلك ونعيش هنا في سعادة وهناءة؟

- لا ، أنا أريد أن أرجع لأضاهي أخي .

ومضى في طريقه إلى أن وصل إلى الضبع ، فحدّثه عما كان منه مع الملك والبستاني ، ولما انتهى قال له الضبع :

- وأنا ماذا عنيّ؟

- أنتَ أيها الضبع مريض ، وهذا المرض هو الذي يسبب لك هذا الضعف والوهن الذي أنت فيه .

- وهل أخبرتكَ شجرة الأماني عن دوائي؟

- أجل ، دواؤك أن تأكل رجلاً أحمق .

فكَّر الضبع قليلاً في كلام الحسود ، ثم قال له :

- عرضت عليكَ الملكة الزواج فرفضتَ ، وعرض عليكَ البستاني مالاً كثيراً فأبيتَ فمن أين سأعثر على رجل أحمق منكَ؟!

ثم انقض عليه وأكله!

هذه ساعات الفجر الأولى يا أسماء ، لا ديكَ يصيح لتسكتَ شهرزاد عن الكلام المباح ، ولكني أسكت عنه على غير رجعة إليه ، أطوي صفحة أبي خالد ، وأرجع إليكِ ، ما أحلى الرجوع إليكِ ولو على صهوة الكلام!

وأخيراً سنلتقي يا أسماء ، قضيتُ من السجن ما يسمح لي بزيارة!

سنلتقي تحت عين السجّان ، ستحول بيننا القضبان ، ولكن بأي حالٍ سأراكِ وهذا يكفي لتصير القضبان الفاصلة بيني وبينك باقات وردا!

صعب عليَّ أن تريني أسيراً كأسد السيرك ، أخذوه من الأدغال حيث ينتمي وجعلوه للفرجة فقط ، ملك عزلوه من مملكته وجعلوه مهرجاً!

صعبٌ عليَّ أن تريني بثياب السجن عاجزاً مكبلاً يسوقني سجّان إليكِ!

صعبٌ عليَّ أن أراكِ ولا أتمكن من ضمكِ كما أشتهي ، ولكن يكفي أن أعرف أني سأنظر في عينيكِ عن قرب ليصبح كل صعبٍ سهلاً ، اللقاء تحت رعاية السّجان حيث يكون رقيباً

علينا ، والقضبان حيث تكون حاجزاً من نار يحمل كثيراً من الألم ولكنه يحمل في طياته الكثير من المواساة ، سيكون مثل كوب ماءٍ في يد ظمآن كمموا فمه ، فالرؤية لا ترويه ، والإمساك به لا يغنيه عن شربه ، وإنما يزيده ظمأً وقهراً ، ولكن هذا لا يلغي فرحي بلقائكِ ، نحن اللذان حُرمنا كل شيء ، نجد في القليل ما يواسي فينا حاجة الاجتماع ، ولو كان تحت مظلة الظلم التي لم تكف يوماً عن حجب شمس الحياة عنا .

أزيح كل هذه الأفكار عن كاهلي وأفكر بكِ وحدكِ .

أفكر بصوتكِ موسيقاي العذبة ، وببحته الحلوة التي ما أن تقع في أذني حتى يصبح العالم كله أنتِ .

أفكر في عينيكِ ، هذا المأتم الأسود المهيب الذي يسكنه الحزن ويشوبه شيء من الفرح ، هكذا أنتِ كما أقول لكِ دوماً : أضداد متناسقة!

ثلج ونار في بقعةٍ واحدة ، حرب وسلام في مكان واحد ، صيف وشتاء في بلد واحد!

أفكر في شفتيكِ وأتذكر شفتيَّ عليهما في عناقنا المحبب

أفكر بالغمازة على خدكِ ، سأتعمدُ إضحاككِ فلا شيء يفك أغلالي إلا أن أراها قد ارتسمت في وجهكِ كفلقتي قمر!

أفكر في شعركِ الذي لن أراه ورائحتكِ التي لن أشمها مرتبك كالمرة الأولى التي وقفتُ فيها أمامكِ

عاجز تماماً كاللحظة التي كنتُ أحاول فيها اختلاق عذر لأتحدث معكِ

متلهف جداً كما كنتُ حين جلستُ قربكِ في أول موعد لنا .

أتساءل كيف أنتِ الآن؟

ماذا سرق الحزن منكِ؟

ماذا فعل الغياب بكِ؟

ماذا فعل البكاء بعينيكِ؟

كم كسرت قسوة الليل الطويل من رقتكِ؟

ماذا فعل الانتظار بقسماتكِ الطفولية؟

وأحاول عند كل سؤال أن أتمالك نفسي كي لا أحاول تحطيم هذه الجدران التي تفصلني عنكِ ، كي لا أصبَّ جام غضبي وعجزي على هذه القضبان التي حالت بيننا وصارت سبباً في حزنك وحزني ، لكني سأحاول أن أرى وجهكِ لا أثر غيابي عليه ، أن أغرق في سواد عينيكِ لا في بحر الوجع الذي أحدثه رحيلي فيهما ، سأحاول أن أحبكِ كثيراً عندما أراكِ لا أن أموت قهراً لأني محروم منكِ ، فأنا على موعد مع القهر بعد ذهابكِ على أية حال!

نادى عليّ السجان بلكنته العبرية البغيضة : حمزة ، زيارة!

طار قلبي فرحاً يا أسماء ، كنتُ أعرف أنكِ أتيتِ برفقة أبي ، يا الله كم أشتاق له أيضاً ، أشتاق إلى الحد الذي أريد أن

أرتمي فيه على الأرض وأقبل قدميه ، هذا الرجل الأشم كالجبل ماذا أحدث غيابي فيه ، هذا الرجل الذي كان دوماً يقول لي : قلبي على ولدي وقلب ولدي على حجر ، لو يعرف أن قلب ولده عليه أحنُّ من قلبه على ولده ، أريد أن أعانقه كما صباح العيد ، عناق الرجال عزيز في غزة ، كل شيء يتصنع القوة ، وكان صباح العيد اليوم الوحيد المتاح لعناقه دون أن يكون هذا العناق مثيراً للريبة والاستغراب!

مددتُ للسجان يديّ كي يضع فيهما الأصفاد ، كانت هذه هي المرة الأولى التي أمدُّ يدي للتصفيد فرحاً ، معكِ يتغير كل شيء يا أسماء ، كل شيء له معنًى آخر ، وطعمٌ آخر ، وطريقة أخرى للتعاطي معه .

عندما صفّدني كانت يديّ أمامي ففي الزيارات لا يجعلون أيدينا وراء ظهورنا ولا أعرف ما السبب ، ربما يريدون أن يجعلوا أهالينا يرون أنهم رحماء! يعتقدون أننا سنحبهم يوماً ، أو سنغفر لهم ، لا يعرفون أننا لن نغفر ولو أضاؤوا لنا أصابعهم شموعاً ، و من قسوتهم يعتقدون أن تكبيل الأيدي إلى الأمام رأفة ، لا يريدون لذوينا أن يروا أيدينا مكبلة خلف ظهورنا ، ولا أعرف ما الفرق ، يعتقدون أن أم العصفور ستكون سعيدة لو رأت حابسه قد صنع له قفصاً من ذهب ، لا يعرفون أن الأغلال هي الأغلال ، وأن الذين خُلقوا أحراراً لن يرضوا بالسجون ولو كان السجن غرفة مطلة على شلالات نياغرا!

عندما شارفنا على الوصول حيث سنلتقي ، كنتُ أمدُّ رأسي للأعلى محاولاً رؤيتكِ ، كغريق يشده البحر إلى أسفل وهو يقاتل ساحباً رقبته إلى أعلى ليتنفس ويبقى!

وأخيراً رأيتكِ ، كاد قلبي أن يخرج من قفصي الصدري لشدة خفقانه يا أسماء ، لم أرد لحظتذاك إلا أن أضمكِ إلى صدري كيوم فعلتُ أمام بيتِ أختكِ يوم وضعتِ الحرب أوزارها ، وكنتِ أنتِ تنظرين إليَّ من بعيد أيضاً ، لا زلتُ أذكر ملامح وجهكِ وقتها ، فرح مشوب بحزن ، أفهم مشاعركِ تماماً ، سعيدة برؤيتي ، حزينة لهذا المشهد الذي رأيتني فيه ، أعرف معنى أن ترى امرأة حبيبها مقيداً بالسلاسل يجرّه جندي إليها!

وحدها رؤية أبي فطرت قلبي يا أسماء ، كانت المرة الأولى التي أرى فيها الدموع في عينيه ، يا للرجال حين يبكون ، حيث تتجمع سحب الحزن في صدورهم فيحاولون أن يمنعوها أن تمطر من أعينهم ، فالعيون نافذة الحزن الوحيدة ، ولكن هيهات ، حتى الرجال الأشداء تغلبهم دموعهم ، وقد أمطر هذا الرجل الشديد دمعاً فكسرني كما لم يستطع السجن أن يفعل .

عندما أجلسني الجندي أمام القضبان حيث ستجلسون أمامي ، وضع أبي يده على كتفكِ يدفعكِ لأن تتقدمي إليَّ ، فوضعتِ يدكِ على كتفه ودفعته إليّ ، أكبرتُ هذه الحركة منكِ ، أعرف أنه ليس الزهد فيَّ أبداً ، ولكنكِ هكذا ، إنسانة حتى في أشد لحظات احتياجكِ واشتياقكِ .

وتقدم أبي ، جلس قبالتي ، لا شيء يفصل بيني وبينه إلا القضبان ، مدَّ يده وأمسكَ يدي ، وقال لي :

- أنا فخور بكَ يا حمزة ، هذا قدرنا ، أن يقتلونا أو يسجنونا ، وأنا فخور أن لي ابناً سجيناً لأنه رفض أن يجلس في البيوت كالنساء .

قلتُ له محاولاً ترميم الانكسار في صوته :

- هذا الشبل من ذاك الأسد يا أبي .

ابتسم وقال لي : لا أسد هنا اليوم سواك ، لا تسمح لهم أن يكسروك أو يهزموك ، وقت ويمضي يا حمزة ، كن صلباً كما عرفتك ، ولا تقلق علينا ، كلنا بخير ، وأسماء في عيوننا .

- كيف إخوتي وجدتي؟

- الجميع بخير يا حمزة لا تقلق ، إخوتك حملوني سلاماً كثيراً ، وكانوا يريدون أن يحضروا جميعاً ، ولكنكَ تعرف أنهم لا يسمحون إلا لشخصين فأتيتُ أنا وأسماء ، وجدتكَ أيضاً بخير ، على الحال الذي تركتها عليه ، ولكنها أصبحت أضعف من ذي قبل ، لقد أحزنها غيابك كما أحزننا جميعاً .

- أطال الله بعمرها .

- أخبرني يا بني ، هل يعاملونكم جيداً؟

- لا نتوقع منهم معاملة أفضل من التي يعاملونا بها ، هؤلاء أعداؤنا يا أبي ، صرنا مسجونين لأنهم لم يعثروا علينا في معركة ليقتلونا ، وصاروا سجّانين لأننا لم نعثر عليهم في

معركة لنقتلهم ، ولكن الأمور بخير ، لا تقلق .

- أتمنى لو أني لا أقلق ، ولكني لا أستطيع ، أحمل همك دوماً ، لك وحشة يا حمزة ، ومكان في القلب لم يعوضه إخوتك مجتمعين ، أنتَ تعرف أنكَ كنتَ دوماً أحبَّ أبنائي إليّ .

مازحته قائلاً : أنتَ نصير البنات يا أبي ، وهنّ الأحبّ إليكَ .

- هنّ ضيوفنا يا حمزة ، تعرف هذا .

- أعرف ، أنا أمازحكَ فقط ، أعرف قلبك يا أبي ، ولكنكَ الآن كالأعرابية التي سألوها : من أحب أولادكِ إليك؟ فقالت : صغيرهم حتى يكبر ، ومريضهم حتى يشفى ، وغائبهم حتى يعود ، وأنا الآن غائبك الذي تنتظر عودته!

- صحيح

- أوصيكَ بأسماء يا أبي ، انتبه لها .

- لا تقلق يا حمزة ، أسماء في عينيَّ

- أعرف يا أبي ، أعرف .

- لم أشبع منكَ يا بُني ، ولكن كما تعرف وقت الزيارة قصير ، سأذهب لتأتي أسماء ، أعرف أنكَ اشتقت لها .

- حسناً

جئتِ إليّ ، وكأنكِ جلبتِ الشمس برفقتكِ ، كما لو كانت الحياة طيلة أيام السجن متجمدة بي ، وبمجيئكِ سمحتِ

لها بالتدفق داخلي ، كأني كنتُ تحت المطر والثلج أتجمد وبنظرة منكِ جعلتِ الدفء يسري في جسدي ، كأنَّ روحي كانت معكِ وحين أتيتِ أعدتها إليَّ ، وبها شعرتُ بوجودي الغائب بغيابكِ .

بصوتكِ الذي نزل كالماء البارد على قلبي المتّقد قلتِ لي :

- كيف حالكَ يا حمزة؟

- الآن صرتُ بخير ، أخبريني عنكِ؟

- بخير إلا من غيابكَ .

- لو كان غيابي رجلاً لقتلته ، ولكنه مع الأسف يستفيد من خاصية استحالة الإمساك به ويجرؤ على أن يحزن حبيبتي .

ابتسامتكِ الصغيرة تلك كانت غايتي ، لذلك أضفتُ بلهفة :

- تنعشين قلبي الموشك على الموت بهذه الضحكة .

- ما زلتَ مجنوناً .

- ما زلتُ أحبكِ ، أخبريني ماذا تفعلين في غيابي؟ هل تذهبين إلى الجامعة كما اتفقنا؟

- أذهب إليها بعض الوقت ، وأنتظركَ أغلب الوقت ، وأحبكَ طوال الوقت .

- كيف حال الجميع؟ حدثيني

- الجميع ينقصهم أنت ليكتملوا ، هم بخير ، غير أن الفراغ

الذي خلفته لا يمكن تغطيته ، يفتقدونكَ كثيراً وإن كانوا أكثر تجلداً مني ، إلا أن لديهم تلك الحسرة التي يتركها فقد عزيز ، والدك كما تعرف ، جبل من الصبر يمشي على الأرض ، جدتك تتماثل للشفاء ، وتدعو أن تراكَ قريباً ، الجميع يدعو بذلك يا حمزة .

- يكفي أن يكونوا بخير ، يكفي أن أجدهم جميعاً حين أغادر هذا الحبس .

- أخبرني عنك ، هل تأكل جيداً ، هل تنام جيداً؟ هل يعاملونك هنا بسوء؟

- لا تقلقي يا حبيبتي ، إن نجوتُ من شوقي إليك فلن يقتلني سوء الطعام أو قلة النوم .

- سأقلق ، إذا لم أقلق وأنتَ بعيد عن يديّ ، وفي يديَ العدو فمتى سأقلق؟

- لا تقلقي أبداً ، اجعلي قلبك الجميل مرتاحاً ، أنا بخير ، ألا أراكِ الآن؟ هذا يكفي أن ينسيني كل شيء .

- لو تعرف كم أرغب في أخذك معي الآن ، يبدو من العسير عليّ أن أتقبل فكرة العودة إلى البيت بدونك .

- أما زلتِ في البيت؟

- أجل ، لم أستطع مفارقة المكان الذي تقاسمنا فيه الحياة ، ما زال فيه رائحتكَ أتصبر بها ، وتأتي أختي أحياناً لتسليني .

- لا أحب أن تبقي وحيدة هناك يا أسماء ، عودي إلى بيت أهلك حتى ينجلي هذا الفراق ، لا تجعليني أقلق فوق قلقي .

- حسناً ، سأفعل لا تقلق .

مددتُ أصابعي من بين القضبان لألمس أصابعكِ ، وهمستُ لكِ :

- اشتقت إليك ، اشتقت كثيراً كثيراً

- وأنا اشتقت يا حمزة ، كل شيء في غيابكِ يغذي أشواقي لتكبر ، صارت أكبر مني .

- سنجتمع مجدداً ، علينا أن نتحلى بالصبر ونتمسك بالأمل يا حبيبتي ، سنكون معاً مرة أخرى ، حتى هذه القضبان أضعف من أن تفصلنا ، أحبكِ ، لا تنسي ذلك .

- لولا هذا الأمل ، ولولا هذا الحب ، لقتلني غيابك يا حمزة ، إنهما أسلحتي في معركتي اليومية مع الحياة التي تخلو من وجودك .

كان السجان قد بدأ بإعلان انتهاء وقت الزيارة بصوته الذي يشبه جرس إنذار الحرائق ، صمتنا قليلاً ونحن نحاول أن ننظر لبعضنا أطول فترة ممكنة ، ونحاول أن نلمس أطراف أصابع بعضنا بقدر ما تسمح لنا الفتحات بين القضبان ، ونحاول أن نأخذ من رائحة بعضنا ما تسمح به المسافة الفاصلة بين جسدينا ، ولكننا كنا نعلم أن لا شيء يكفي لمواجهة ما ينتظرنا من الشوق ، وما

ينتظرنا من الحرمان ، لا شيء يكفي أن نأخذه في لقاء مدته دقائق في هذا الجو من الحواجز والرقباء ، ولكنني شعرتُ كأني حصلتُ على جرعة من الحياة تساعدني على احتمال الموت اليومي في هذه الزنزانة . . وبينما كنتِ تغادرين تركتِ في يدي ورقة كنتِ تخبئينها في كمّ قميصكِ ، فخبأتها سريعاً قبل أن تقع عليها عين السّجان ، وأسرعتُ إلى مهجعي لأنفصل عن هذا الوجود البائس وأحلّق بعيداً في سماء كلماتكِ :

حبيبي . . .

أعيشُ في غيابكَ كالمهزومة ، لا أرض تحتمل ثقل قلبي ، ولا سماء تظللني ، كأني ضائعة في عوالم أخرى ، لا تعترف بي ولا أعرف عنها شيئاً ، لأنكَ أنتَ عالمي الذي انسحب فجأة من تحت قدمي ، فبقيتُ لا أدري أي خطوة فيها بقائي وأي خطوة فيها هلاكي .

يقال يا حبيبي أنّ طباع الزوجين السيئة تبدأ بالظهور بعد شهر الزواج الأول ، ولكن بما أننا هنا نعاني من نقص حاد في الأحداث الطبيعية ، فأنتَ في طباعكَ السيئة كما في طباعكَ الجيدة لا تشبه أحداً ، إذ بينما تشتكي النسوة فظاظة أزواجهن ، وقلة اهتمامهم ، وانخفاض منسوب الشغف في علاقتهم ، أجد في طباعكَ المقاومة ، وحمل الوطن على عاتقكَ ، وقضّ مضاجع العدو ، ولا يكفي هذا لتحل نزيلاً في سجونهم أيضاً!

وبدل أن أشكو التعب من غسيل الثياب وتنظيف المنزل ، أجدني أتلهف على قميص يحمل رائحتكَ ليرتد قلبي بصيراً ، وأتلهف على أثر منكَ في هذا البيت الذي يشبه كهفاً مهجوراً منذ توقفت عن الدخول ببابه ، وبدل أن ألومكَ على تأخركَ لساعة أجدني مستعدة لانتظاركَ عاماً كاملاً وأكثر فقط لتأتِ ، وأحيط عنقكَ بذراعيّ ، وأمطر وجهكَ بقبلاتي .

كان يفترض بنا الآن أن نكون نتجادل حول الاسم الذي سنختاره لطفلنا الأول ، كنت سأشترط أن يحمل اسم ولدنا صفة من صفاتكَ ، وكنتُ سأقترح أن يكون اسمه «وسيم» ، ولكنكَ طبعاً ستعترض لتقول إن كان ولا بد أن يحمل اسمه من صفاتي شيئاً فليكن «نضال» ، فأنتَ تؤمن بأن الاسم يساعد صاحبه على إدراك دوره في الحياة ، وكنتَ ستختار لابنتنا اسماً دون استشارتي ، لأنكَ تريد أن يكون كل ما فيها على ذوقكَ كما أخبرتني ، الوجه من أمها ، والاسم من ابيها . ولكنني لم أخبركَ أن أطفالنا جميعاً سيشبهون أباهم ، فلن يجدوا بداخل أمهم إلا صورته ، وكم أردتُ أن أنجبهم لأرى في وجوههم وجهكَ ، وفي وجودهم وجودكَ .

أيام عدة تفصلني عن المرة الأخيرة التي نمتُ فيها مطمئنة وذراعيكَ حولي ، المرة الأخيرة التي استيقظتُ فيها على حياة جميلة تتشكل من ملامح وجهكَ ، شهر من أنفاسكَ ، شهر

من صوتكَ ، شهر من ضحكتكَ ، شهر من حبكَ ، شهر منكَ ، والآن يوشك العام الثاني لغيابكَ أن يكتمل ، ولا شيء معي منكَ ليعزيني ، لا شيء يا حمزة ، فقدكَ يكبر مع الوقت ، يصبح كل يوم أقوى وأقسى ، و الأمل في داخلي يشبه ضوء شمعة معرضة للرياح .

في الشهر الذي تلا اعتقالكَ عشتُ في ظل احتمال أن يكون في أحشائي طفلكَ ، احتمال أن تكون بذور حبكَ قد أثمرت بداخلي ، احتمال أن يكونوا تركوا لي منكَ ما يسد ولو قليلاً من فجوة الفقد التي تبتلعني .

ولكن ذلك الاحتمال لم يعش طويلاً ، كان عمره قصيراً كعمر فرحتي بكَ ، وكم كنت بحاجة ماسة لتلك المواساة يا حمزة ، ليدٍ صغيرة تشبه يدك ، لوجه صغير فيه ملامحكَ ، لطفلٍ منكَ .

لم يسمحوا لنا أن نعيش أكثر ، سرقوا منا الحياة قبل أن نبدأها ، سرقوا منا كل أسبابنا التي نعيش بها ولأجلها ، وتركونا على بساط الاحتمالات نعاني جوع الأمل .

لكني لن أجعل خطاب اليأس يستحوذ على لغتي ، لأني أعرف أن هذا ليس وقت الضعف ، لا يحق لي الضعف إلا معكَ ، أما في بُعدكَ فأنا في عراك مستمر مع كل شيء يحول بيننا ، والمحاربون لا يليق بهم الاستسلام للوهن حتى تضع الحرب أوزارها ، وهذا ينطبق عليكَ أيضاً ، لقد شققتَ باطن

الأرض لتستمر في معركتكَ ، هل ستعجزك الآن حفنة من الحديد والحجارة؟

لن تفعل . . لأني أعرف الرجل الذي أحببت .

أحبكَ جداً وأحملك دائماً في داخلي ولا شيء مهما كان يستطيع أن يغير هذا .

كانت هذه رسالتكِ يا أسماء . . .

السّاعة الآن تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل ، وها أنا ذا جالس وحدي أحاول أن أرد على رسالتكِ ، قرأتها عشرات المرات ، قبّلتِ كل حرف فيها ، على هذه الورقة الصغيرة كانت يدكِ فكيف لا أقبّلها! وهذا هو خطّك الصغير الذي أحبه ، ذكرني بالأيام الخوالي ، أيام حبنا يا أسماء ، كانت الرسائل وقتها حمامنا الزاجل ، يحمل قلبي إليكِ ، ويحمل قلبكِ إليّ ، الآن على ما يبدو سيعود الحمام ليمارس مهنته القديمة : حمل القلوب!

فكتبتُ إليكِ . .

حبيبتي أسماء :

أما قبل : أحبكِ

وأما بعد : أحبكِ

وبين قبل وبعد : أحبكِ أيضاً

حبكِ هو الشيء الوحيد الذي أتقنه ، وسأبقى أمارسه

حتى آخر خفقة لقلبي في صدري .

وقعتْ رسالتكِ عليّ يا غالية كما يقع كوب ماء بارد في يد عطشان لحظة قيظ! ولقد كان بودي أن أقول لكِ ارتويتُ ولكنكِ تعرفين أنكِ كماء البحر كلما شربتُ منه أزداد عطشاً!

لهذا أنا الآن أكثر شوقاً إليكِ من ذي قبل .

فطرتِ قلبي يا أسماء بحديث قلبكِ ، إنه لشيء فاتن أن يقرأ رجل كلام شوق كتبته له أحبُ نساء الأرض إلى قلبه ، ولكن بالمقابل إنه لشيء موجع أن يعرف رجل أنه سبب في عذاب امرأة يحبها ، هكذا أنا الآن في صراع ، نشوة الفرح بقلبكِ ، وألم عميق لعذابكِ ، ولكنها الحياة يا أسماء ، وهذا هو قدرنا ، هذه هي الطريق التي اخترتها بنفسي ، وأنا لستُ نادماً على شيء ، أوصيتني أن أحذر ، ولكن هذه الطريق لا ينفع فيها الحذر أغلب الأحيان ، إنها تشبه السير في حقل ألغام ، ولا يمنع حذر من قدر .

مرة أخرى تعودين للحديث عن الأولاد ، هذا سبب إضافي لحزني الآن يا أسماء ، أشعر بالذنب إذ حرمتك بسجني هذا من تحقيق أمومتكِ ، ولكن ما باليد حيلة ، كنا معاً فترة قصيرة ولم يشأ الله أن يكون لكِ مني ولد ، وكم تمنيتُ لو أنه قد حصل على الأقل لكان بقي شيء مني عندكِ يسليكِ في غيابي ، ولكن قدر الله نافذ لا محالة .

ومرة أخرى تعودين للحديث عن الأولاد ، ما زلتِ متشبثة

بحلمكِ ، تريدين أن تنجبي مني ولداً قد اخترتِ اسمه ، تريدين أن تضعيني تحت الأمر الواقع ، أريدُ بنتاً تشبهكِ ، وأريد أن أسميها أمل ، لا شيء غير الأمل يُبقينا أحياء يا أسماء ، كم سأحبُ هذه البنت لو جاءت ، تخيلي مخلوقة صغيرة رقيقة تشبهكِ ، يا الله كم سيكون شاقاً عليَّ أن أجاهد نفسي أن أبتعد عنها كما كنتُ أجاهد نفسي حين أبتعد عنكِ .

في صدري كلام كثير أريد أن أقوله لكِ ، ولكني لا أريد للكلام أن يأخذ أكثر من ورقة كي يسهل عليَّ دسّها في يدكِ في المرة القادمة على غفلة من السّجان .

آخراً كما أولاً : أحبكِ .

كنتُ أريد أن أدسَّ هذه الرسالة في يدكِ وأنا أراقبُ عينيكِ تزدادان توتراً عن قرب ، ولكن يبدو أن الأمور كما تقول جدتي إذا أُغلقت فإنها تُغلق مرة واحدة ، وإذا فُتحت فإنها تُفتح مرة واحدة! وكان مقدراً لهذه الرسائل أن تكون أكثر من اللقاءات ، فقد عرفتُ أن زميلاً لي يمكن لأهله أن يوصلوا رسالتي إليكِ ، فحملّته إياها ليحملّهم إياها لكِ ، وقدّر لها ككل الرسائل التي كانت بيننا أن تصل!

دعيني لا أستبق ما كان ، فإنها لمتعة لي أن أسرد التفاصيل دون عجالة!

وعدتكِ يا أسماء أن لا أحدثكِ عن أبي خالد مرة أخرى ، ولكن على ما يبدو أنه لا مناص من الحديث عنه ، وأنا إذ وعدتكِ فليس زهداً فيه وإنما أردتُ أن لا يستأثر أحد بحصة الأسد في حديث أردته أن يكون عني وعنكِ!

ولكن هذا الرجل بطيبته يحشر نفسه عنوة في مسام الكلمات ، فكيف أتجاهله!!

صبيحة الليلة التي كتبتُ فيها لكِ رداً على رسالتكِ جاء إليّ وسألني :

- لم تحدثني عن زيارة أهلكِ يا حمزة ، كيف كانت؟

- جميلة جداً ، توجعت كثيراً في بعض لحظاتها ، وفرحتُ كثيراً .

- ستعتاد هذا الأمر ، هكذا هي زيارة الأهل للسجين ، الألم ممزوج بالفرح دوماً ولكن ما الذي آلمك؟

- آلمني انكسار أبي يا أبا خالد ، لم أرده أن يراني مكبلاً هكذا ، أحسستُ أني كسرتُ قلبه .

- لا تقل هذا يا حمزة ، والدك فخور بكَ ، أنت هنا لأنكَ بطل ، صدقني لو كنتَ لصاً ، أو ارتكبت جنحة لتردد أساساً أن يأتيكَ ، ولكنه جاءك ليعود ويحدثهم كيف أن ابنه حفظ الدرس الذي علمه إياه ، أما عن الانكسار فنحن بشر يا حمزة ، وإن كنا نؤمن أن كل ثمن يرخص في سبيل هذه الأرض ، وفي سبيل استعادتها ، إلا أننا لا نستطيع إلا أن نحزن إذا فقدنا

حبيباً على هذه الطريق .

لم أجد كلامًا يليق بهذا العزاء فسكتُ ، ثم قال لي :

- ومن حضر أيضًا؟

- أسماء جاءت مع أبي .

ابتسم أبو خالد ، ثم قال لي : يا روميو أنتَ!

- روميو مكبّل بالسلاسل وجولييت وراء القضبان .

- يا أخي أنتَ لا تفرح بشيء ، لماذا تخاف من الفرح ، دعْ عنكَ هذه الكآبة وأخبرني كيف وجدتها؟ أنا أبوكَ هنا هيا أخبرني .

- ما زالت كما هي ، جميلة ورقيقة ، تتصنع القوة رغم كل الحزن الذي خلفه فيها غيابي ، مجنونة أسماء يا أبا خالد ، أعطتني رسالة كانت قد خبأتها في كمها على غفلة من الحراس!

- كلنا نفعل هذا يا حمزة ، نستقبل الرسائل ، ونكتبها ، بيد أنها اهتدت إلى هذا الأمر وحدها ، كنتُ سأرشدكَ إلى هذا الأمر ، حدثني ، ماذا أخبرتك؟

- أسماء تريد أن تنجب يا أبا خالد ، تشتاق إلى هذا كثيراً ، لم تخبرني هذا صراحة ، ولكن مجرد أنها ذكرت هذا الأمر في رسالة قصيرة فهذا يعني أنه قد استحوذ على تفكيرها .

- وما المانع في هذا ، هي امرأة ، والأمومة غريزة في

النساء ، ثم لماذا تنظر إلى الأمر على أنه أولاد فقط ، إنها تريد جزءاً منكَ معها يا حمزة ، صدقني أنا أفهم النساء .

- أتعرف ، في لحظات سجني الأول كنتُ أتمنى لو أني تركتُ لها طفلاً يشغلها في غيابي ، ولكني الآن سعيد أني لم أفعل ، لا أريد لها أن تتحمل مشقة هذا وحدها .

- ما هذا الكلام ، لا تكن أحمقاً .

- أحمق! ولمَ؟ لأني لا أريد لها أن تتعب ، أخبرني بصراحة يا أبا خالد ، لو كنت تعرف أنكَ ستسجن ، أكنتَ لتنجب ابنك وتتركه عند زوجتكَ لتربيه وحدها؟

- بالطبع كنتُ لأفعل ، تعب أم خالد في تربية ولد وحدها أقل وحشة من تركها وحيدة مقطوعة من شجرة ، ولو عدتُ إلى أول الطريق لأنجبته مرة أخرى ، ثم نحن أصحاب قضية يا حمزة ، علينا أن ننجب الأولاد لأنفسنا لأننا بشر ، وأن ننجب الأولاد لهذه الأرض ، نحن كموج البحر الذي لا يتوقف ، هل رأيتَ بحراً دون موج ، البحار التي لا موج فيها تأسن ، ونحن علينا أن نستمر!

- ربما معكَ حق ، ولكن هذا موضوع لا طائل من الحديث فيه الآن ، تزوجنا مدة شهر ولم ننجب ، لم يكن هذا مقدراً لنا ، والآن أنا هنا كما ترى ، ربما إذا خرجتُ سأنجب ولداً تحسباً لحبسي المقبل!

ضحكتُ وأنا أقول هذا لأبي خالد ، فضحك بدوره وقال

لي : أنتَ عنيد ، ما برأسك برأسك!

مضى أسبوع الآن على زيارتكِ لي يا أسماء ، صارت الأيام ثقيلة منذ رأيتكِ ، قبل تلكَ الزيارة كنتُ معتاداً على السجن ، كانت الأيام تمضي بسرعة ، أما الآن فقد أصيبت بالشلل ، لا أكفُ عن التفكير بكِ ، لا أستطيع الوصول إليكِ ، ولا أستطيع إيصال هذه الرسالة التي كتبتها رداً على رسالتكِ! ثم وأنا في قمة اليأس تلك فُتحت نافذة من السماء لي!

كنتُ قد تعرفتُ على سجين في زنزانة مجاورة ، وكان يسكن في منطقة قريبة مني في غزة ، ولكن لم يحدث أن التقينا من قبل ، تخيلي فرقتنا غزة وجمعنا هذا السجن ، وكان موعد زيارة أهله له ، فطلبتُ منه أن يرسل رسالتي مع أقربائه إليكِ ، وبقيتُ ساعات و يدي على قلبي ، إلى أن التقينا أخيراً ، وأخبرني أن الأمر قد تم!

كنا دون أن ندري نضع قوانين جديدة للعبة ، لا حاجة أن نلتقي لنتواصل ، لقد وجدنا في هذه الرسائل عزاءً عن اللقاء ، وفتحنا في جدار السجن فجوة فصرنا نتحدث .

لم أشك أبداً بذكائك يا أسماء ، ولكني لم أتوقع أن تكوني داهية ، فعندما وصلتكِ رسالتي نقبتِ بيوت غزة ، بحثاً عن سجين معي له وقت زيارة قبل زيارتكِ لترسلي لي رسالتكِ ، وكم كانت دهشتي عظيمة عندما جاءني زميل لي

في السجن وقال لي : هذه الرسالة من زوجتك يا حمزة ، أرسلتها مع زوجتي!

كالمجنون قمتُ إليه وعانقته ، ولكني اكتشفتُ حين قرأتُ رسالتكِ أني في بداية مرحلة الجنون ، أما أنتِ ففي قمتها ، فقد جاء في سطورها :

حمزة . .

أحتاج أن أناديكَ ، لأني اشتقت إلى أن تلتفتَ إليّ ، وتجيبني بعينيكَ قبل صوتك ، ولكني أعرف الآن أن الشيء الوحيد الذي ما زال قادراً على الالتفات لي منكَ هو قلبكَ ، لأنه ما بقيَ حراً بعد أن أخذوكَ مني إلى قضبانهم . أما قلبي فبقي سجيناً معك وإن كان جسدي طليقاً ، هذا ما يجعلنا نعيش معاً في نقطة ما من هذا العالم ، نقطة تلتقي فيها مشاعرنا بعيداً عن طرق الحياة المعقدة .

ألجأ إلى الحديث معكَ على الورق مرة أخرى ، لأنه المكان الوحيد الذي نكون فيه أحراراً ، المكان الوحيد الذي أكون فيه معكَ بعيداً عن أعين الحراس وحواجز الحديد ، لأقول لك ما في قلبي دون أن أحبسه خشية أن يطّلع عليه سوانا ، وأعانق عينيكَ بحرية دون أن يمنعني من ذلكَ كل ما يمنعني حين أراكَ .

عيناكَ . . لو تعلم كم اشتقت لتقبيلهما!

قرأتُ رسالتكَ على مهل وكأني أخشى أن تنتهيَ

الكلمات ، أردتها أن تطول أكثر لتخف أعراض غيابكَ من هذا الكون الموحش قليلاً ، ولكنها ككل الأشياء الجميلة . . كانت محكومة بالانتهاء .

أنا بخير يا حبيبي . . ولكني ككل العشاق أعاني فقد روحي ، وهذا لا يعد شيئاً في عالمنا هذا . . فأنتَ أكثر من يعرف أنّ الحب بات أقليّة مهمشة على هذه الأرض ، لذا لا يبدو الشوق مرضاً فتّاكاً ، ولا يُصنّف صمت القلب تحت بند السكتة القلبية ، فما دام يضخ الدماء فالحياة مستمرة .

الحياة مستمرة حولي يا حبيبي كما كانت قبل أن يأخذوكَ ، لم تتوقف إلا داخلي ، غير أني أحاول مسايرتها كما يجب .

أحاول جهدي أن أكون أقوى من الضعف الذي يكبر بداخلي كلما مرّ يوم دون أن تكون فيه معي .

أحاول أن أتغلب على الغربة التي ملأتني حين تركتُ منزلنا وعدتُ إلى غرفتي نزولاً عند رغبتك ورغبة عائلتي ، كأني لم أعش فيها طيلة سنوات عمري التي سبقت زواجنا يا حمزة ، كأن ذكرياتي معك حذفت من ذاكرتي كل ما سبقها ، ووحدها بقيت الآن تحفّز أشواقي ، كما سبق أن استحوذ حبكَ على كل المشاعر في قلبي .

أحاول أن أتعلّم المشي وحيدة في الشارع ، دون يدكَ تمسك يدي ، دون ذراعكَ تحيط كتفي ، دون ظلكَ يعانق ظلي ، دون

أن تبدو لي الشوارع أطول ، ودون أن تبدو لي الوحدة أوسع ، ولا أنجح .

كأني أعيش في مدينة اسمها الفقد ، كل سكانها يعانون اليُتم ، ولم يمر في تاريخها حنان الأمهات ولا شفقة الآباء ، ولا يمكن أن يتنفس المرء فيها سوى الألم .

هذا الشوق لا يعرف الصمت .

كلما جئتُ لأنام ، تذكرتكَ وأنتَ تصر أن تنام على شقّك الأيسر ، ليكون وجهي قريباً من وجهكَ ، لتتنفس أنفاسي ، ولأكون أول ما تراه حين تستيقظ ، فتسرق الأسئلة مني قدرة النوم :

ماذا يتنفس حمزة الآن؟ وعلى أي شيء يفتح عينيه؟

اشتقتُ كثيراً أن أضع جبيني على جبينكَ ، وأغمض عينيّ ، أشم رائحة جلدكَ فيتهيأ لي أنني أشم رائحة الجنة .

حديث الشوق إليكَ لا نهاية له ، لا الرسائل تقوى على حمله ، ولا الكلمات ، وحده قلبي قادر أن يحمل هكذا ثقل ، أو مضطر إذ لا خيار له .

لكن الفراغ الذي تركه فقدكَ يا حمزة لا يسدُّه شيء إلا أنتَ ، لذلكَ سأعود بكَ إلى الحديث عن الأطفال . . أطفالنا .

ولكن التي تحدثكَ عنهم وتلح كل مرة ليست الأم بداخلي ، ليس الشوق إلى الأمومة دافعي لذلك يا حبيبي ، فأنا أستطيع أن أؤجل أمومتي وحتى أتخلى عنها لأجلكَ ، لا

شيء قبلكَ ولا شيء دونكَ كما تعلم .

وليس هذا صوت الزوجة التي تتوق لتكوين عائلة أيضاً . . أنت يا حبيبي عائلتي ، وإني لأكتفي بضحكتكَ عن العالم بأسره ، ولا أبالغ في قولي هذا .

لا أنكر أن جزءاً من إلحاحي هو صوت المرأة العاشقة التي تبحث عن قطعة من حبيبها لتشمها وتضمها وتفرغ شوقها إليه من خلالها ، ولكنه ليس كل شيء يا حمزة .

هناك صوت أعلى من كل الأصوات وأكثر أهمية وإلحاحاً منها . . إنه صوت المقاومة . . تلك التي تعرفها جيداً ، وتدرك أنها لا تستسلم بسهولة ، وإني قد عجزت عن إخراسها .

قد يبدو لكَ ما سأطلبه منكَ جنونياً ولكن كل ما أريده هو أن تفكر ملياً في الأمر ، وألا ترفض مباشرة ، لأني فكرتُ كثيراً قبل أن أطرح هذه الفكرة عليكَ ، وفي الحقيقة ترددت كثيراً .

قد يبدو لكَ غريباً أن أطلب منك أن ننجب طفلاً في هذه الحالة التي يستحيل فيها اللقاء ، قد يبدو لك غريباً أن أخبرك أني أريد أن أحمل طفلك وأنتَ في السجن ، ولكني أفكر بذلك جدياً يا حمزة ، أن أحمل طفلكَ رغم السجن والحراس والاحتلال والفراق .

أريد أن ترسل لي نطفة منكَ يا حمزة ، أريد أن نحرر أول أطفالنا من الأسر ، لأن المقاومة يجب أن تستمر من طريق آخر حين يقطعوا عليها أحد الطرق ، ولأننا يجب أن نستمر في

صنع الحياة مهما حاصرونا بالموت ، ولأن مكانكَ ليس السجن ، ولأن مكاني ليس إلا معكَ ، ولأنهم حكموا علينا بهذا المصير الذي لا نقبله ، سنقاوم بكل ما لدينا من قوة ، ولن نرضخ لا لحكم العدو ولا لقوانين المسافة ، ولا حتى لما يقوله المنطق ، فالمنطق كما تعلم يا حبيبي قد غادر هذا الوطن منذ استوطنوه .

أحبكَ وأقبّلك من عينيكَ كثيراً كثيرًا .

مكتبة المحمد

نزلتْ رسالتكِ كالصاعقة عليَّ يا أسماء ، كانت أكثر مواقف حياتكِ جنوناً ، وأردتُ لحظتذاك أن أكتب لكِ رداً بسرعة لأني لم أعد مضطراً أن أنتظر مواعيد الزيارات بعد أن صار لنا حمام زاجل ، ولكني آثرتُ أن أنتظر حتى الليل لأقلب الأمر في عقلي ، فلا أتسرع في قراري برفض أو قبول ، ثم بعد ساعات تفكير حزمتُ أمري أن لا أطيعكِ في هذه الفكرة المجنونة فكتبتُ إليكِ :

حبيبتي أسماء :

قُبلة على جبينكِ وبعد :

اشتقتُ إليكِ ، اشتقتُ أكثر مما اشتقتُ في أيام سجني كله مجتمعة ، فقد كنتُ أحسبُ أن لقاءنا سيضمدُ جرح الشوق في قلبي ، ولكن ذاك اللقاء كان كالملح ، تعرفين ما يفعل

الملح بالجرح يا أسماء ، يجعله أكثر شراسة ، وأبلغ ألماً ، وهذا هو حال جرح الشوق في قلبي ، أنتِ امرأة قليلها لا يسمن ولا يغني من شوق ، وكثيرها يجعلني أردد هل من مزيد!

أريد لقاءً آخر ، لا أريد لهذا الجرح أن يهدأ ، أريده أن يبقى مستعراً على الدوام ، فما نحن إلا بما نحس ، وأنا يطربني إحساسي بكِ ، ولو كان موجعاً ، ومزخرفاً بالحرمان!

الحبيبة أسماء :

لم أكن بحاجة إلى رسالتكِ لأعرف حجمي في قلبكِ ، ولا أنتِ تنتظرين مني رسالة لتعرفي حجمكِ في قلبي ، هذا تقولينه لي لأنكِ بحاجة إلى أن تقوليه لنفسكِ قبل أن تقوليه لي ، وأقوله أنا لكِ لأني بحاجة إلى أن أقوله لنفسي قبل أن أقوله لكِ! لهذا دعيني أركز على أهمّ فكرة في رسالتكِ . .

أنتِ مجنونة يا أسماء!

لقد وقعت عليّ رسالتكِ كبرقٍ تجمع في السماء ثم صبَّ فيَّ ، ولأول مرة في حياتي لا أجد كلاماً أقوله لكِ ، أنا أريد أن أنجب منكِ اليوم قبل الغد ، أريد هذا لأجلي وليس لأجلكِ فقط ، أنا إنسان أيضاً وأتوق لما تتوقين وأشدّ ، وأعرف تماماً أن الفكرة عندكِ ليست فكرة إنجاب فقط ، وأنكِ على استعداد أن تنتظري هذا حتى آخر لحظة في عمركِ ، هذا لم يكن يوماً محط شكٍ عندي ، ولكني ضد أن نسلكَ سبيلاً مجنوناً لغاية حلوة يا حلوة . .

قلبتُ هذه الفكرة كثيراً في رأسي ، منذ أن قرأتُ رسالتك يا غالية وأنا أفكر بالأمر ، ثم بدا لي أن لا نفعل ، لننتظر قليلاً يا أسماء ، لعلَّ الله يحدث بعد ذلك أمراً ، لا أريد أن نقوم بخطوة كبيرة تحركنا لها العاطفة دون أن نحسب حساباً لكل تفصيل صغير ، تعرفين كما أعرف أن الأمر ليس يسيراً ، وحتى إن تغلبنا على عقباته المادية -وهذا ليس ما يمنعني فقط- أخشى أن لا نكون قد حسبنا بقية العقبات .

لأول مرة في حياتي أجدني مضطراً أن أقول لكِ لا على شيء تطلبينه ، وما كنتُ أحسبني قائلها لكِ يوماً ، ولكن أقولها لكِ الآن لأجلكِ ولأشياء أحسها ولا أستطيع قولها .

أسماء يا حبيبتي :

أثق بقلبكِ وقبل قلبكِ أثق بعقلكِ ، لننتظر قليلاً ، قليل من الانتظار خير من كثير من الاستعجال ، وأنا أحبكِ

مضى وقت طويل على آخر رسالة مني إليك ، دون أن يصلني منكِ أي رد يا أسماء ، لقد تساءلتُ كثيراً عن سر انقطاعكِ عن الكتابة إليّ كل هذا الوقت ، لا شيء يمكن أن يمنعكِ من الكتابة إليّ سوى أن يكون مكروه قد ألمّ بكِ ، أو غضبٌ قد استحوذ على قلبكِ ، فأنا أعرفكِ ، تفعلين ما

تستطيعين وما لا تستطيعين لتصلي إليّ ، أو تبعثي إليّ صوتكِ في رسالة .

أصعب ما يواجهه السجين في أيام السجن الطويلة يا أسماء هو الانتظار ، الساعات هنا لا تشبه الساعات في الخارج ، الوقت هنا أثقل من الجبال يقف على أرواحنا فيهشمها ، وأحدّ من السيوف ، يمرّ على قلوبنا فيدميها .

لذلك حين تأخرت رسالتكِ عن موعدها تحول عالمي الضيق هذا إلى قبر ، كأن جدران السجن وسقفه تضغطان عليّ فلا يتسع لي مكان ، تساءلتُ كثيراً إن كان رفضي لطلبكِ هو ما منعكِ من الكتابة إليّ ، أأكون برفضي طلبكِ قد كسرتُ فيكِ أكثر مما كسرته بغيابي؟

أأكون قد خذلتكِ مرة أخرى يا أسماء؟

ألهذا توقفتِ عن الحديث معي يا حبيبتي؟

ألا تعلمين أن رسائلكِ هي الشيء الوحيد الذي ما زال يشعرني بأن هناك حياة تنتظرني خارج هذه الزنزانة؟

إنها تجعل هذه الوسادة الصلبة شيئاً يمكن النوم عليه ، وتجعل هذا الهواء القذر شيء يمكن تنفسه ، وتجعل هذا الليل مكاناً صالحاً للأحلام .

إنكِ تعرفين يا أسماء أن الصمت أكبر عقاب يمكن أن تعاقبيني به ، لأن صمتكِ وأنتِ بعيدة عن عيني هكذا يعدُّ قتلاً لا عقاباً ، لو كنتُ معكِ لكان صمتكِ عقاباً عادلاً ، إذ

يمكنني حينئذن أن أقرأ وجهكِ إن منعتِ عني كلامكِ ، وأن أضع رأسي على صدركِ لأسمع نبضه إن حرمتِ سمعي من صوتكِ ، يمكنني أن أجعل غضبكِ رضاً بقبلة مني ، وإن لم أنل رضاكِ سأظل أقبّلك حتى ترضي .

أما الآن . . وأنا هنا غارق في غيابكِ حد التعاسة ، أبحث من خلال رسائلكِ عن قشة غريق ، فصمتكِ ليس عقاباً عادلاً ، أنا معاقبٌ أساساً ببعدكِ يا أسماء ، هل يمكن أن يكون هناك أقسى من صمتكِ الآن؟

كلما جاء سجين من زيارة ، انتظرتُ أن يدس في يدي رسالة منكِ ، أظل أراقب أيديهم على أمل ، وفي كل مرة أقع في هاوية سحيقة من الخيبة ، لم تكتب لي أسماء هذه المرة أيضاً!

لماذا تقطعين عني الأوكسجين الآن ، وفي هذا الوقت الحرج من الاختناق؟

كنت أعاود كل مرة قراءة رسالتي لكِ في ذاكرتي ، ألوم نفسي وأطرح آلاف الأسئلة عليها .

هل كنتُ قاسياً؟

هل كانت كلماتي ينقصها الدفء؟

ألم أعبّر عن رأيي بطريقة لائقة؟

هل أغضبتكِ؟

هل كسرتُ قلبكِ؟

هل وهل وهل . . . ولا أخرج في نهاية المطاف إلا بنتيجة واحدة : أنا غير قادر على الانتظار أكثر!

كنتُ أحاول أن أنام أطول من المعتاد أملاً في رؤيتكِ في المنام لتجيبي على أسئلتي ، أو حتى لتهدئي أشواقي ، ولكني عبثاً أحاول فإن أغمضتُ عينيّ استيقظ قلبي ، وإن أطفأتُ قلبي اشتعل عقلي ، وكلاهما أكثر قسوة من بعضهما .

أسماء العنيدة لا يمكن أن تكون قد تراجعت عما تريده بهذه السهولة ، لا يمكن أن يكون الصمت ردة فعلها حين تريد شيئاً بهذه القوة ، أسماء التي أعرف تسعى بكل ما تملك لتقنعني ، أسماء التي لا يقف شيء في وجهها كانت ستكتب لي رسائل طويلة تشرح لي فيها بكل السبل أن هذا الأمر يجب أن يتم ، أسماء تجتهد لتغير رفضي ، لتجعل قناعاتي تنقلب عليّ .

ولكن هذا الصمت يحيرني ، يجعلني لا أفهم موقفكِ مني الآن ، لعله البعد ما يجعلني ضعيفاً وهشاً إلى هذه الدرجة أمام غياب رسائلكِ ، لعلها قلة الحيلة ما تجعل سكوتكِ سياطاً على قلبي ، لعلها المسافة الكبيرة بيننا ما تجعل لهفتي أكبر مما يحتمل صبري .

كان رفاقي في السجن يحاولون معرفة ما حدث لي ، يسألون باستمرار عن سبب غياب ابتسامتي أو شحوبها ، وعن سر عبوسي المستمر ، وأرقي الدائم ، غير أني لم أكن راغباً في

الحديث مع أحد ، لم أكن راغباً في الحديث إلا معكِ ، بل كنتُ بأمس الحاجة لحديثكِ ، هذه قسوة بالغة منكِ يا أسماء ، أن تتركيني معلقاً هكذا في مشنقة الانتظار ، تعرفين كم هو صعب انتظاركِ ، كم هي مقيتة تلك الساعات التي تتحالف مع غيابكِ لتفقدني عقلي .

وذات يوم وبينما أنا أتشاجر معكِ في داخلي ، جاءت اللكنة العبرية في صوت السجّان حاملة اسمي ، وبينما كنتُ أنتظر رسالة ، فاجأني بقوله : زيارة!

نهضتُ من فوري كأنه لم يقل زيارة بل إفراج!

كنتُ كمن دبّت الحياة فيه فجأة بعد أن ظنّ أنها فارقته ، لم تزعجني الأغلال في يدي ، ولا ثياب السجن عليّ ، ولا طريقة السجّان السيئة في معاملتي ، كنتُ أفكر فقط أنكِ أنتِ الزائرة ، كنتُ أدعو أنكِ أنتِ .

حين رأيتكِ تلاشى كل ذلك التعب الذي كان يسكنني قبل لحظات ، تلاشى غضبي على صمتكِ ، تلاشى كل كلام العتاب الذي جهزّته لأقوله حين أراكِ ، أردتُ فقط أن أراكِ ، أن أملأ عينيّ من وجهكِ ، أردتُ كثيراً أن لا يكون بيننا حاجز ، أحتاج أن أستعيد أنفاسي برائحتكِ ، يا الله كم يبدو هذا الوجه بالنسبة لي كالشاطئ في عينيّ غريق!

- أسماء!

لفظتُ اسمكِ حين تزاحمت الكلمات وعجزت أن أختار

منها ما يليق بشعوري ، كان اسمكِ وحده من يختصر كل مشاعري ، ولمستُ يدكِ التي امتدت من بين القضبان لتلمس يدي .

- كيف حالكَ يا حبيبي؟

- لستُ بخير يا أسماء .

قلتُ لكِ ذلكَ وأنا أحاول قراءة وجهكِ ، لأعرف إن كان ما منعكِ عني غضبكِ فعلاً أو هي أوهامي التي يجعلها البعد والوحدة عظيمة وحقيقية ، ولكني لم أرَ في عينيكِ سوى الشوق ، والقلق الذي غشاها حين قلتُ لكِ أنني لستُ بخير ، اقتربتِ أكثر كعادتكِ حين تحاولين الاطمئنان ولكن القضبان ذكّرتكِ بالمسافة بيننا ، فقلتِ :

- ما بكَ؟ هل أنت مريض؟ هل فعلوا بكَ شيئاً؟

ابتسمتُ محاولاً أن أهدئ روعكِ ، وأجبت :

- أنتِ من فعل بي!

- أنا؟

- هل تريدين قتلي يا حبيبتي؟ تعرفين أني أعيش على رسائلكِ ، كيف تتوقفين عن الكتابة لي ، كدتُ أجن يا أسماء!

نظرتِ إليّ وقد امتلأت عيناكِ دموعاً ، وبدا من ملامحكِ أنكِ تقاومين البكاء ، ثم همستِ :

- أعتذر يا حمزة ، لم يكن شيئاً مقصوداً يا حبيبي ، لقد أردتُ أن نتحدث بالأمر وجهاً لوجه لذلك انتظرت أن يُسمح

لي بزيارتكَ لنتحدث ، صدقني لم يكن في الأمر أكثر من أني شعرتُ أن الورق لا يخبرك ما أردت أن تعرفه ، سامحني .

- أسامحكِ بشرط واحد .

- ما هو؟

- تمسحي هذه الدموع التي تجعل عينيكِ حزينة .

مسحتِ عينيكِ بظاهر يدكِ وأنتِ تبتسمين لي ابتسامتكِ العذبة تلكِ ، ثم قلتِ وكأنكِ في عجلة من أمركِ :

- علينا أن نتحدث في مسألة النطفة قبل أن ينتهي وقت الزيارة .

- أخبرتكِ رأيي في هذه المسألة يا أسماء .

- وأنا أريدكَ أن تفكر مرة أخرى يا حمزة ، أرجوك يا حبيبي ، لا ترفض الأمر بشكل قاطع ، أنا أريد أن أقوم بهذه العملية يا حمزة ، اسمح لنا بذلك أرجوك .

- لا أستطيع يا أسماء ، يكفي ما أشعر به من عجز في هذا المعتقل ، لا أريد أن أشعر بمقدار عجزي أكثر ، لا أريد أن أشعر أني عاجز عن أكثر الأمور طبيعية في هذا العالم ، إنجاب طفل من زوجتي كما يفعل أي زوجين!

- حبيبي ، أنتَ لستَ عاجزاً ، هذا لا يعني أنكَ عاجز أبداً ، بالعكس ، هذا يعني أنكَ تقول لمن يحاولون جعلكَ عاجزاً أنهم فشلوا في ذلك ، يعني أنكَ تقول لهم : هأنذا عندكم معتقل ولكنكم لم تمنعوني أن أكون حراً ، ما زلتُ أصنع

الحياة في الخارج ، وما زلتُ مؤثراً ، ألستَ أنتَ من أخبرني أن إنجاب الأطفال شكل من أشكال المقاومة ، ألسنا نقاوم الموت بالمزيد من الحياة؟

- نعم يا أسماء ، ولكن ليس سهلاً عليّ أن آتي بطفل إلى هذه الدنيا وأنا في السجن ، لقد تركتكُ وحدكِ وأنتِ ما زلتِ عروساً ، هل أترك طفلي أيضاً يأتي للحياة وحيداً ، هل أتركك تنجبين طفلنا وحدكِ ، تحملينه تسعة أشهر وحدكِ ، تربينه وحدكِ ، لا يمكنني أن أفعل بكِ هذا .

- أنا لا أقول أن الأمر بهذه السهولة ياحمزة ، أعرف ماذا يعني أن أحمل طفلي الأول منكَ بهذه الطريقة التي هي أبعد ما تكون عن الحميمية ، لكن في حياة كحياتنا يا حبيبي الطرق الطبيعية للعيش هي نوع من الرفاهية ، لقد خلقنا لنسلكَ الطرق الصعبة على هذه الأرض ، كل دروبنا وعرة ، كلها محفوفة بالمشقة ، إن وقوعنا سهل ، يكفي أن نستسلم لنقع ، يكفي أن نكفّ عن مقاومة اليأس بداخلنا والعوائق من حولنا لننتهي ، نحن بحاجة إلى بعضنا يا حمزة ، إلى قوة بعضنا البعض ، إلى إصرارنا على الاستمرار ، لا يعني أن دوركَ قد توقف لمجرد أنكَ في السجن ، أنتَ معي ، ولن أسمح بغيابكَ ، هذا الفراق لن يدوم أبداً ، لا يجب أن يدوم ، سينتهي يوماً ، وسنكمل من حيث توقفنا ، ستخرج لتجدني بانتظاركَ كما تركتني آخر مرة ، أنا أعرف كم يبدو عسيراً عليكَ أن تخطو

مثل هذه الخطوة الغريبة وغير المألوفة ، وربما تشعر أن إنجاب طفل سيكون عبئاً عليّ ، ولكني أقول لكَ أنه سيكون سنداً لي ، سننتظركَ معاً حينها ، سيكون معي قطعة منكَ ، أعتني بها ، وأزرع فيها كل خصالكَ الجميلة التي أحبّ ، ألا تثق بي يا حمزة؟

- ليست مسألة ثقة يا حبيبتي ، أعرف جيداً أنكِ أقوى مني حتى ، أعرف أنكِ ستكونين أماً عظيمة ، ولكنه قلب المُحب يا أسماء ، لا يقوى قلبي على ترككِ تناضلين في هذه الحياة وحدكِ ، أن أزيدكِ أعباءً ومسؤوليات دون أن أكون قريباً منكِ لأحملها معكِ .

- حسناً ، أعدكَ أن تأخذ حصتكَ من المسؤوليات كاملة حينما تخرج ، سيكون لنا أطفال بعد يا حمزة ، ستخرج لننجبهم معاً ، ونربيهم معاً ، وربما سنزورهم في السجن معاً أيضاً .

قلتِ عبارتكِ الأخيرة وأنتِ تبتسمين محاولة أن تخففي من جدية الحديث أو تهوني عليّ وقعه لألين ، كنتُ أعرف تلك الحيلة التي تقومين بها حين أغلق أمامكِ كل أبواب الإقناع ، ولكنكِ تعرفين أيضاً أني لا أصمد عند رفضي طويلاً حين يكون الطرف الآخر أنتِ :

- هذا يعني أنني موعود بأولاد مثلي؟

- تعلم أنّي لا أريد لأولادي أن يشبهوا غيرك .

- سأقبل إن وعدتني ببنات يشبهنك .

- اعمل على ذلك بنفسكَ حين تخرج .

كنتِ تبتسمين لي ابتسامة رجاء يصعب تجاهلها ، وكأن عينيكِ تراودني عن رفضي ، فلا أملك إلا أن أقول لها : هيتَ لك .

- سأعمل كثيراً .

قلتها وأنا أتأمل تفاصيل وجهكِ ، وأشعر أني لم أعد أحتمل أن يفصلني عنكِ حتى الهواء ، تنهدتِ وقلتِ :

- هل ستقبل أن نقوم بتلك العملية؟

- سأفكر بالأمر يا أسماء ، لستُ راغباً بفعل ذلك ، ولكن لأجلك سأفكر .

- ولأجل غزة أيضاً .

- لأجل غزة أنا هنا يا حبيبتي .

- ستخبرني بقراركَ في الزيارة القادمة ، أقصد ستبلغني موافقتكَ .

- يبدو أن الطلب قد تحول إلى أمر!

- لديّ ما يكفي من السّلطة القلبية لأصدر الأوامر عليكَ يا حبيبي ، ولكني كما ترى أفضّل الديمقراطية .

- أنا أرى أنكِ تستخدمين أسلحتكِ دون رحمة للفتكِ بمقاومتي ، أنا السجين الأعزل . . .العاشق .

- أنا لا أملكِ سلاحاً سوى حبكِ

- ماذا عن عينيكِ إذن؟

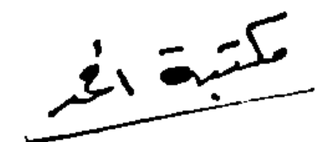
- تحبَّانك .

- تغرِقاني .

كدتُ أنسى أين نقف ، كدتُ أنسى قيودي حتى أيقظني السجّان معلناً انتهاء وقت الحياة المخصص لي ، ليعيدني إلى قبري ، لمستِ يدي قبل أن يأخذني وأنتِ تقولين لي بصوتٍ مختنق :

- أحبكَ يا حمزة .

- أنا غارق في حبكِ يا أسماء



فارقتكِ كما كل مرة أفارقكِ فيها ، أعود كمن يمشي في جنازة ، غير أني في فراقكِ أشيّعُ نفسي ، روحي أنتِ يا أسماء!

عدتُ إلى الزنزانة ، واتكأتُ إلى الجدار ، وتكورتُ كجنين في بطن أمه ، وأخذتُ أفكر مجدداً في هذا الأمر الذي تريدين ، كنتُ هذه المرة أكثر حماساً للفكرة ، أو لنقل أكثر تقبلاً لها ، فقد كنتُ في المرات السابقة التي فكرتُ فيها أسأل نفسي : لماذا علينا أن نفعل هذا الأمر؟ أما الآن تغيرت الأمور ، فقد وجدتني أسألها : ولمَ لا نفعل؟!

لم أعد ضد الفكرة ، وانتقلتُ من حالة الرفض التام إلى

حالة ممكن الحدوث ، ولم أعد أفكر أفعل أم لا ، بل صرتُ أفكر كيف نفعل هذا ، وهذا الانقلاب في تفكيري جعلني بحاجة ماسة لأعرف كيف يمكن إتمام هذا الأمر ، كنتُ قد درستُ كما الجميع في المرحلة الثانوية في مادة الأحياء عن الإنجاب والتكاثر ، ولكن ما أعرفه ويعرفه الجميع هو كيف يتم هذا الأمر في ظروف طبيعية ، ولم يكن شيء طبيعي في ظرفنا هذا ، ولهذا قررتُ أن أنفرد بالدكتور سامي راجياً أن أجد عنده ضالتي ، وتمنيتُ أن يكون يعرف عن هذا الأمر كما يعرف عن بقية الأمور التي سمعته يتحدث عنها ، فالرجل كما صرتِ تعرفين مكتبة متنقلة ، وموسوعة معرفيّة من لحم ودم .

لم أرد أن أتحدث معه في أمرنا هذا أمام الجميع ، لا لقلة الثقة بالآخرين ، على العكس تماماً ، لقد جعلنا هذا السجن عائلة ، وجعلتنا يد السجّان إخوة في السوط ، ومجرد وجود أحد هنا فهذا يعني أساساً أنه أهل للثقة ، ولكن كما تعرفين ، ثمة أشياء تتعلق بالخصوصية لا بالثقة ، فلا يمكن للمرء أن يتحدث بأي شيء أمام من يثق به ، ولطالما كنتُ حيياً! حتى وأنا مع سامي لوحدنا أحتاج أن أستجمع كل جرأتي لأحدثه بالأمر ، لهذا انتظرتُ يومين حتى يحين موعد خروجنا للشمس ، هناك يمكن أن نتحدث على انفراد ، وهكذا أحفظ للأمر خصوصيته ، وليكون الحديث عن هذا أقل مشقة عليّ!

عندما خرجنا للباحة ، كان سامي يجلس مع فراس

وآخرين ، وكالعادة كانا يتناقشان ، هذان الرجلان لا يملان من ضرب العقل بالعقل والرأي بالرأي ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي لا أجدني فيها مهتماً بمعرفة موضوع النقاش ، كل ما كان يهمني أن أخطف سامي من بين أيديهم ، فانتظرتُ قليلاً علَّ وتيرة الحوار تهدأ ولكن دون جدوى ، عندها تقدمتُ إليهم ، وقلتُ لهم :

- بعد إذنكم أريد الدكتور سامي قليلاً ، يمكنكم أن تكملوا هذا في الزنزانة ، على الأقل نجد شيئاً نستمع إليه هذا المساء :

لم يُبدِ أحد انزعاجاً أنّي أخطفه منهم!

وقام الدكتور سامي فوراً من مكانه واستأذن من جلسائه ، ومضينا . . .

رأيتُ علامات الفضول في نظرات سامي ونحن نتجه للجلوس على مقعد خالٍ في باحة السجن ، وعندما جلسنا ، قلتُ له دون مقدمات :

- اسمع يا دكتور ، قررتُ أنا وزوجتي تهريب نطفة مني من أجل الحصول على ولد!

عندها انفرجت أسارير سامي وكأني أخبرته أن المسجد الأقصى قد عاد لنا!

فقال لي :

- خطوة جبارة يا حمزة!

- إذاً أنتَ توافقنا في هذا؟

- ولمَ لا أوافقكم ، هذا عمل عظيم ، علينا أن نستمر يا حمزة ، يجب أن لا نسمح لهم أن يضعوا لنا حداً ، ثم الأمر لا يتعلق بهم وحدهم ، الأمر يتعلق بنا أيضاً ، من حق زوجتك أن تكون أماً ، ما زلتما صغيرين ، وولد معها في غيابكَ يشغلها ويجعلها أصبر على فراقكَ ، وصدقني أنتَ تحتاج هذا الأمر بقدر حاجتها هي إليه ، أنتَ إنسان أيضاً ، وجود ولد لكَ سيربطكَ بهذه الأرض أكثر ، وسيجعل الحياة في نظركَ أكثر قيمة .

- لقد أرحتني بكلامكَ هذا يا دكتور ، خشيتُ أن تكون ضد هذه الفكرة من الأساس فأغيّر رأيي ، أنتَ تعرف أن الخطوات الجريئة أو المجنونة تحتاج من يحثُّ عليها ، ولا شيء برأيي أكثر جنوناً من هذا .

- بالعكس هذا عين العقل ، أتعرف يا حمزة ، أنتظرُ تمام هذا الأمر على أحرَّ من الجمر ، لا أستطيع الانتظار حتى أمرّ بجانب آمر السجن وأخبر هذا الحقير أن زوجتكَ حامل ، وتعرف كم سيغتاظ ، إن لم يكن في هذا الأمر غير تكدير صفوه ذلك اليوم فهذا وحده يكفي .

- كل يوم أكتشفُ فيكَ شيئاً جديداً يا دكتور ، وكل يوم تصبح في عيني أكبر من اليوم الذي قبله .

- بارك الله بك يا حمزة ، هذا من حسن ظنك بأخيك ، وأنت أيضاً تعرفُ كم أحبك ، يعلم الله أنتَ عزيز وغالٍ .

- أحبّك الله يا دكتور .

- أخبرني يا حمزة ، ماذا تريد مني؟ أنا مستعد لأي شيء تطلبه .

- أريد أن أسألك عن بعض الأمور ، معرفتي بهذه الأشياء سطحية ، وما أعرفه لا يعدو ما يعرفه الجميع ، ولكنكَ تعرف أنّ من المهم ونحن في هذا الوضع أن نعرف أدق التفاصيل ، أريد أن أعرف كل شيء ، حتى نتجنب الفشل ، تعرف ليس من السهل نفسياً ولا عملياً تكرار هذا الأمر .

- صدقت ، يجب معرفة كل ما يجعل الأمر ممكناً لاتباعه ، وكل ما يمكن أن يؤدي إلى فشل هذا الأمر لتجنبه ، أنا بخدمتك ، اسأل عن أي شيء تريده ، أنا حاضر .

- أريد أن أعرف بداية ما نسبة نجاح الأمر ، أو هل هو قابل للحدوث أساساً؟

- طبعاً يا حمزة ، عملية الإنجاب هي عملية «بيولوجية» بحتة ، لا تلقي بالاً بكل المشاعر والعواطف التي تلقي أنتَ لها بالاً ، ولا يعنيها السجن والسجّان الذي يعنيك ، يكفي أن تفعل كل شيء بإتقان ، وتحسبه بدقة ، فيحدث الحمل إن شاء الله .

- ماذا لو حسبنا كل شيء بدقة ونجحنا في تهريب النطفة ولم يحدث الحمل؟

- هذا وارد جداً ، ولكن لماذا تفترض نتائج سلبية قبل

الإقدام على الأمر ، تفاءلوا بالخير تجدوه يا حمزة .

- لستُ متشائماً يا دكتور ، بقدر ما أنا واقعي ، لقد تزوجنا ، وكنا معاً في بيت واحد ، ولم يحدث الحمل ، فيحق لي أن أقلق ونحن نجرب هذا الأمر في ظرف أنت تعرفه .

- كم كانت مدة زواجكما قبل أن تُسجن؟

- شهر تقريباً

- شهر!

قالها لي بغضب كأنه سمع مني سُبّة ثم أردف :

- الشهر الأول في الزواج شيء لا يُحسب له حساباً ، وهو بالأساس ليس فترة يمكن القلق بشأنها ، إذا لم يتمّ الحمل خلالها ، صحيح أن كثير من الحالات يحصل فيها الحمل بعد الاتصال الأول ، ولكن هناك زيجات لا يتم فيها الحمل دون أن يكون هناك عائق من قبل الزوج أو من قبل الزوجة .

- ولمَ؟

- هكذا بدون سبب يا حمزة ، ليست الأجساد كلها سواء ، أحياناً لا يتقبل جسم المرأة هذا الأمر في أول فترات الزواج الأولى دون أن يكون هناك خطب ما ، لهذا ينصح الأطباء الزوجين بعدم البحث عن أسباب تأخر حدوث الحمل قبل مرور سنة من الزواج ، والسبب في هذا ما أخبرتكَ به لأن هذا أمر طبيعيٌ جداً ، ولا يمكن علاج أمر طبيعي ، أعني لا يمكنك أن تبحث عن دواء إن لم يكن عندك مرض ، فما دامت

السنة الأولى لم تنقضِ ، فالأمر طبيعي جداً ، وفترة الشهر التي تزوجتما خلالها لو ذهبتما إلى طبيب لضحكَ منكما! حتى الذين أنجبوا من قبل ، ليس بالضرورة أنهم يستطيعون الإنجاب متى قرروا ذلك ، لأن احتمال حدوث الحمل بعد كل دورة شهرية عند المرأة لا يزيد عن عشرين بالمئة .

- الأمر طبيعي إذاً؟

- طبيعي جداً ، لا تدع هذه الأفكار تسيطر عليك ، كما أخبرتكَ الشهر الأول ليس شيئاً من السنة الأولى التي ينصح الأطباء فيها بالانتظار قبل التوجه للبحث عن سبب في تأخر الإنجاب .

- حسناً ، كيف نجعل هذا الأمر يتم؟ أعني ما هي الخطوات التي يجب أن نتبعها؟

- هذا يقتضي خطوات تقوم أنتَ وزوجتكَ بها ، أنتِ كلّ ما عليكَ هو أن تسلّم النطفة إلى زوجتكَ ، في وقت تكون هي مستعدة «بيولوجياً» للحمل ، ولأن أيام الإباضة عند المرأة أيام قليلة في الشهر وهي الأيام التي يحدث فيها الحمل فقط ، وهي عليها أن تكون قد رتبت أمورها مع مركز صحي ليتم التلقيح بعد أن تكون قد حسبته بدقة وقت الإباضة .

- وهل المركز الصحيّ ضروري؟

- ليس شرطاً ، بإمكان المرأة أن تقوم بهذا بنفسها ، ولكن نسبة نجاحه أقلّ منها في مركز صحي ، وإن قامت به زوجتك

بنفسها فعليها أن تفعل ذلك في دورة مياه السجن ، وأنا لا أحبذ هذا ، فبقاء المرأة مستلقية بعد أن تقوم بحقن نفسها بالنطفة له أثر إيجابي على نسبة حدوث الحمل ، وكما تعرف فهذا غير ممكن في السجن .

- لماذا لا تفعل هذا في البيت بعد عودتها إلى غزة؟

- هذا مستحيل تقنياً ، لأنها تحتاج نصف نهار لتصل إلى غزة ، والسائل المنويّ لا يمكن له أن يعيش كل هذه الفترة خارج الرحم ، لهذا أنا أقترح أن تتفق مع مركز صحي في الضفة تتوجه إليه فوراً بعد حصولها على النطفة منك ، ثم يتم الأمر هناك تحت إشراف الطبيبة ثم تعود إلى بيتها .

- كم تعيش النطفة؟

- تعتمد هذه الإجابة على مجموعة من العوامل ، وأهمها مكان الحيوانات المنوية ، وجودة ونوع الحيوان المنوي ، فإذا تواجدت هذه الحيوانات المنوية على سطح جاف كالملابس أو الفراش فإنها تموت على الفور نظراً لعدم توافر بيئة صحية لها خصوصاً بمجرد جفافها ، أما إذا تواجدت هذه الحيوانات المنوية في حوض استحمام به ماء دافئ ، فهي تعيش لفترة أطول لأنها تنمو في البيئات الرطبة والدافئة ، أما بالنسبة لجسم المرأة فإنها تعيش داخلها لمدة قد تصل إلى خمسة أيام ، لهذا أقترح أن توضع في أنبوب صغير يسهل تخبئته ، وهذا يمنحها حياة تقارب الساعتين على الأقل ، وهذا وقت كاف لتصل به إلى

مركز صحي في الضفة .

- جميل جداً ، هذا ما عليّ فعله ، ماذا عن أسماء؟ ماذا عليها أن تفعل غير هذا ، أعني كيف تعرف أنها في حالة «بيولوجية» تسمح لها بالحمل؟

- تعني فترة حدوث الإباضة؟

- أجل

- هل تريد أن أخبرك ملخصاً سريعاً ، أم أخبرك الأمر بالتفصيل؟

- لا بالتفصيل أرجوك ، قد تغيب بعض الأمور عن أسماء ، مع أني على يقين أنها قد استشارت طبيبة وحسبت كل شيء ، زوجتي وأعرفها .

ضحك سامي وقال لي :

- كلهن كذلك يا حمزة ، عندما تريد المرأة أمراً ، فإنها تتفانى في سبيل الحصول عليه .

- ولكن لا يمنع أن أعرف أنا .

- لا عليك ، سأخبرك الأمر بالتفصيل ، اسمع يا حمزة : المبيضان عند المرأة غدتان صغيرتان لهما وظيفتان رئيسيتان وهما العمل على إنتاج هرمونات متخصصة منها الاستروجين والبروجستيرون ، والتبويض ؛ وتعني إطلاق البيوض اللازمة من أجل الإنجاب ، وتتحكم هرمونات كثيرة بحدوث هذه العملية ، أما كيف يتم الأمر ، يطلق المبيض بويضة ، وتهبط هذه البويضة

عبر البوق وتكون بمكان يمكن للنطف الوصول إليها ، عندما تصل النطفة إلى البويضة تصبح مخصبة ، وتهبط هذه البويضة المخصبة إلى الرحم ، وتنغرس في بطانته ، ويبدأ نموها ، لتصبح جنيناً بعد هذا . أما عن تحديد الأيام التي يكون فيها التبويض ، فهذا يتم عبر طرق مختلفة ، أولها طريقة قياس درجة الحرارة ، وتعتمد هذه الطريقة على قيام المرأة بقياس يومي لدرجة حرارة جسمها ، حيث تزداد حرارة الجسم زيادة طفيفة عند حدوث عملية الإباضة ، أما الطريقة الثانية فهي مراقبة الإفرازات المخاطية الموجودة في عنق الرحم ، ولاستخدام هذه الطريقة يجب على المرأة أن تنتبه إلى التغيرات التي تطرأ على الإفرازات ، والتغيرات التي أعنيها تكون في لون وكثافة هذه الإفرازات ، أما الطريقة الثالثة فهي الاعتماد على الأيام ، تُعرف هذه الطريقة باسم الطريقة الإيقاعية ، حيث يكون لدى المرأة في هذه الطريقة سجلاً لموعد بدء الحيض طوال ستة أشهر على الأقل ، وبعد ذلك يصبح لديها القدرة على استخدام هذا السجل من أجل توقع مواعيد الخصوبة ، والأيسر من هذا كل هو الطريقة الرابعة وهي استخدام جهاز تحديد أيام الإباضة ، وهو قائم على فكرة تحري ارتفاع الهرمون المكون في البول ، وتتوفر هذه الفحوصات في الصيدليات ، وهي سهلة الاستخدام كفحص الحمل تماماً ، ويمكن أيضاً الاعتماد على فحص الدم وهو قائم على نفس الفكرة السابقة ، قياس مستوى الهرمون

المكون ، ولكن الجهاز أيسر في الاستخدام ولا يحتاج إلى مختبرات .

- أشكرك جداً يا دكتور .

- على الرحب يا حمزة ، أنا بخدمتكَ دوماً .

- أتعرف شيئاً!

- ماذا؟

- أريد أن أسألكَ كيف تعرف كل هذا؟ أنت مدهش يا رجلي ، لا شكَّ أنكَ قضيت حياتكَ بين الكتب .

- المعرفة شغف يا حمزة ، وأنا شغوف بها ، ولكن صدقني لا يعرف المرء مدى جهله إلا إذا تعلم ، الجاهل يحسب أنه يعرف كل شيء ، أما المتعلم فيعرف أنه لا يعرف شيئاً .

- بالنسبة لكَ لا أعتقد ، لدرجة أني صرتُ أتمنى أن أجدكَ لا تعرف عن أمرٍ ما .

ضحكَ الدكتور ، وربتَ علي كتفي ، ثم عدتُ إلى الزنزانة لأكتب إليكِ :

الحبيبة أسماء :

قبلة وباقة ورد ، أما بعد :

اشتقتُ كثيراً أن أكتب إليكِ ، مجرد كتابة اسمكِ في أعلى الصفحة له سحر خاص ، شيء ما في اسمك يأسرني ، يشبه صلوات العجائز ، هكذا بسيط وخارج من القلب!

هكذا هي ، صلوات ليس فيها جمال الصوت وحسن

التجويد ، ولكن فيها طهر عجيب ، كأنهن من طيبهن عُجنّ بماء زمزم!

هكذا هو اسمكِ عندي ، نقي كماء وضوء ، قريب من القلب كسجدة ، أنيق كآية في المصحف ، وأنا أحبه ، أحبه كثيراً لأني أحبكِ .

اشتقتُ أن أناديكِ به ، اشتقتُ لكل ما يخصكِ يا غالية ، رغم أني منذ عرفتكِ لم أعد أعرف ما يخصني وما يخصكِ ، كأني أنتِ ، وكأنكِ أنا ، ذابت حدودكِ فيّ ، وذابت حدودي فيكِ .

الحبيبة أسماء :

يفترض بهذه الرسالة أن تكون موغلة في الواقعية ، بعيدة قدر الإمكان عما جاء في أولها ، ولكني ما استطعتُ غير هذا ، أنتِ المرأة التي تجعل من كل لحظات حياتي حالة عشق .

لقاؤنا الأخير أثّر بي يا أسماء ، استحال الرفض التام إلى قبول جارف ، وأنا اليوم مقتنع بجدوى ما دعوتني إليه ، كنتِ على حق يوم اقترحتِ أن نفعل هذا ، وكنتُ رافضاً لأني أردتُ أن أحميكِ من الأيام ، ثم وجدتُ أننا لو فعلنا فأنا أعينكِ على الأيام ، لهذا أنا معكِ في هذا الأمر حتى آخر خلية في جسدي .

اليوم يا غالية جلستُ مع الدكتور سامي جلسة مطولة كان موضوعها ما نحن بصدد القيام به ، لا أخفيكِ كان رأيه يهمني

جداً ، وكم كانت سعادتي عظيمة عندما وجدته متحمساً للفكرة كحماسكِ لها وأنتِ تقنعيني بها ، لدرجة أني أول مرة أجده يفقد اتزانه ، ويغلب قلبه على عقله ، لقد تعهد أن يقوم بنفسه بإخبار مأمور السجن بخبر حملكِ إن تم إن شاء الله ، ثم قال لي أنه يشتهي أن يرى قسمات وجهه حين يعرف بالأمر ، وقد أذنتُ له أن يفعل .

وبعيداً عن القلوب والمشاعر تحدثنا في أمور تقنية من شأنها أن تجعل هذا الأمر ممكناً ، لقد أخبرني بما يترتب عليَّ وما يترتب عليكِ ، لقد أخبرني أن النطفة في الأنبوب الصغير التي أنوي تهريبها لكِ فيه تعيش ما يقارب الساعتين ، لهذا عليكِ أن تتفقي مع مركز طبيّ في الضفة أن تتم عملية الحقن فيه ، لأن غزة بعيدة ولن تصلي إليها والنطفة حيّة ، هذا أولاً ، أما ثانياً فعليكِ أيضاً أن تذهبي إلى الطبيبة وتعرفي الأيام التي يكون من الممكن حدوث الحمل فيها وهذا أكثر الخطوات أهمية ، فلا يمكننا أن نبقى نجرب حتى ينجح الأمر ، وعندما تخبرك الطبيبة ويكون موعد الزيارة متوافقاً مع هذه الأيام نقوم بالأمر ، ولا مانع أن تخبري أهلكِ وأهلي بالأمر ، هذا أمر وإن كان موغلاً في الخصوصية إلا أنه أمرهم أيضاً وسيعينوننا عليه ، ولا أريد أن نقوم بهذه الخطوة دون معرفتهم .

صرتُ أترقب تلك اللحظة بشغف ، لا أريد من الدنيا أكثر من أن أعلم انها أتاحت لنا فرصة أن ننجب ، إن فكرة إنجاب

بنت تشبهكِ تتملكني منذ اللحظة ، أريد لهذا الحلم أن يصبح حقيقة يا حبيبة .

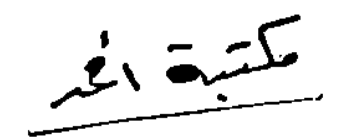
انتبهي لنفسكِ ، وبانتظار رسالتكِ .

أحبكِ .

بعد أيام وصلني ردكِ مع حمامنا الزاجل الذي سخره الله لنا ، وكما توقعتُ ، كنتِ قد ذهبتِ إلى الطبيبة ، واستفسرتِ عن كل الأشياء التي استفسرتُ أنا عنها ، هذا كان ظني بكِ ، دوماً تحسبين كل شيء بدقة ، وقد كنتِ أخوف مني من الفشل ، لهذا أعددتِ أمركِ جيداً .

انتظرنا شهرين لتتوافق أيام حملكِ مع موعد الزيارة ، ثم حانت اللحظة المنتظرة ، وضعتُ النطفة في أنبوب صغير يحضرون به الدواء للأسرى المرضى ، وخرجتُ به إليكِ ، وبقية القصة عندكِ ، أنتِ الآن بطلة الحكاية ، سأتنحى أنا وأتركُ لكِ الكلام ، أنتِ سيدة الحرف الآن يا أسماء ، وأنا الغائب الحاضر ، لكِ السرد فقصي عليَّ أمتع خبر يمكنني سماعه!

.



.

.

تلقيتُ رسالة الموافقة منكَ يا حمزة . . .

لا أخفي عليكَ شعوري أنني أمام تحدٍ صعب وأني دخلتُ في طريق أعرف مسبقاً مدى وعورته ، إلا أني أحمل بداخلي

من العزيمة ما يكفي لأن أطرد ذلك التردد وقلة الثقة التي أصابتني فجأة ، هذا يحدث معنا حين نواجه أحلامنا في الواقع فنجدها مختلفة عما كنا نتخيله ، لا شيء من تلك الهالة الحالمة يحيط بها ، لا شيء من ذلك البريق الأخاذ ، هي هكذا أمامنا الآن ، محفوفة بمخاطرها وصعوباتها ، ولكني كنتُ على يقين من قدرتي على خوضها دون أن ترتجف خطواتي .

أي شيء يمكن أن يكون أصعب من فقدك؟

هكذا سألتُ نفسي . .

وأيقنتُ بأن لا شيء!

إنني منذ ثلاثة أعوام أخوض هذه الحياة وأنتَ بعيد عني

منذ ثلاثة أعوام أستقبل الشمس كل صباح وأنتَ لست معي ، وأضع رأسي على الوسادة وأنتَ لستَ على الطرف الآخر منها

منذ ثلاثة أعوام أتنفس هواءً لم يمر برئتكَ ، وأتناول طعاماً لا أتشاركه معكَ

منذ ثلاثة أعوام أجابه هذا الشعور المخيف بغيابكَ ، أحمل هذه اللوعة الحارقة وأعيش بشكل ما ، دون أن أضعف أو أستسلم ، ما دمتُ قد اجتزت هذا الأمر الذي لا أظن أن من أوجاع الحياة ما يعادله بالنسبة لي ، سوى أن يعيش الإنسان بعد أن يُنزع قلبه من صدره ، هل سيكون صعباً عليّ أن أنجب طفلاً منكَ في غيابكَ؟

أجل سيكون صعباً ، ولكنه أقل صعوبة مما سبقه ، أو هكذا أظن!

كانت مهمتي الأولى بعد أن أخذتُ موافقتكَ هي التحدث مع عائلتينا عن هذا الأمر ، كانت هذه المهمة لا تقل صعوبة عن مهمة عرض الأمر عليكَ ، كنتُ أعرف أن الجميع سيبدي ردة فعل معارضة ، أو على الأقل مستغربة ، ولكني لم أكن أنوي أن أتراجع لا سيما بعد أن قطعتُ نصف الطريق بالحصول على موافقتك .

كان صباح ذلك اليوم ممطراً كعادة بعض صباحات نيسان ، في الماضي كنتُ أجد مطر الصباح أكثر حيوية ودافعاً للبهجة ، ولكني هذا الصباح كنتُ مثقلة بحيث بدت لي السماء أكثر قتامة منها في الحقيقة ، اتجهتُ إلى حيثُ تجلس أمي في صدر الدار مع فنجان قهوتها الصباحي المعتاد ، وهي تراقب خيوط المطر التي تتسابق بجنون لتلامس الأرض ، ابتسمتْ حين رأتني كعادتها منذ عدتُ إلى المنزل ، وكأنها تحاول بذلك أن تبدد ذلك الحزن الذي حل ضيفاً ثقيلاً على ملامحي منذ اعتقالكَ ، ابتسمتُ لها بدوري قائلة :

- صباح الخير ، هل تمطر مجدداً؟

فقالت لي ببهجة مرددة المثل الشائع :

- دعيها تمطر ، «مطرة نيسان بتحيي الأرض والإنسان»

ابتسمتُ دون أن أعلق ، فنيسان دائماً كان شهر أمي

المفضل ، ربما كان المفضل بالنسبة للأغلبية هنا ، حيثُ يكون الشتاء فيه قد بدأ يحزم حقائبه ، وبدأت الأزهار والأشجار بالعودة إلى البهجة مجدداً بعد أشهر من البرد والذبول ، كنتُ أتمنى لو كان لنا أيضاً نيسان ، نتخلص فيه من شتاء الغياب الطويل هذا ، وأجد فيه دفأك ، ويتفتح الزهر في خديّ من جديد برؤيتكَ .

كانت أمي قد انتبهت لشرودي ذاك ، فربتت على يدي بهدوء وقالت :

- هل ستذهبين لزيارة حمزة هذا الأسبوع؟

- لا يا أمي ، ليس هذا الأسبوع ، ولكن هناك شيء أريد أن أقوله لك بهذا الخصوص .

- خيراً إن شاء الله!

- أمي ، أنا وحمزة قررنا أن ننجب طفلاً .

- تنجبون! ولكن كيف؟ وهو هناك وأنتِ هنا!

- سننجب عن طريق التلقيح الصناعي ، آخذ منه نطفة وأجري عملية في المركز الصحي القريب من سجنه ، لقد تحدثنا في الأمر واتفقنا .

- هل هذا الشيء ممكن الحدوث يا ابنتي؟

- نعم ، لقد سألت وتحريت كثيراً عن إمكانية حدوثه ، ووجدت أن الأمر ممكن ، صحيح أنه صعب ولكنه ليس مستحيلاً

- لا أدري يا أسماء، لقد فاجأتني، أعرف أنكِ تفعلين المستحيل لأجل حمزة، ولكن في الأمر خطورة، وأنا أمّ وأخشى عليك، ثم ماذا سنقول للناس حين يرونكِ حاملاً وزوجكِ في السجن، كيف يمكن أن نوضح لهم هذا؟

- سنشهر الأمر بين الناس حين يتم، لا يوجد ما نخجل به، لدينا الحق في إنجاب الأطفال كغيرنا، وإن كنا حرمنا من إنجابهم بطرق طبيعية بسبب الاحتلال، فلن نُحرم من ذلك بالطرق المشروعة الأخرى بسبب كلام الناس، ثم إن الناس هنا على قلب واحد يا أمي، وجعنا واحد، وجميعنا متفق على مقاومته كلٌ بالسلاح الذي يملك، الأوجاع توحد الناس أكثر مما تفعل الأفراح، هذا ليس لأجلنا فقط، لأجل كل النساء اللاتي يرزح أزواجهن في المعتقلات، ولأجل كل الأطفال الذين لم يولدوا لأن آباءهم في قبضة العدو، لأجل أن تستمر هذه الحياة يجب أن نصنعها ولو بالتهريب.

- هل تظنين أنهم سيتفهمونه ويتقبلونه؟

- أجل لا تقلقي بشأن هذا، إذا استنكروه في البداية بدافع الدهشة سيتقبلوه بعد أن يفهموه، وسيعملون به أيضاً، نحن لا نرتكب خطأً لذلك أنا مطمئنة من ناحية المجتمع، وأعرف أيضاً أن الجميع بحاجة لمخرج ما تتسرب من خلاله الحياة المحبوسة خارج هذا الحصار إليهم، لقد تجاوزنا الكثير مما لا زال سارياً عند غيرنا، الحرب علمتنا في يومين أكثر مما علمت

الحياة الآخرين في أعوام ، والخسارات الكبيرة أعطتنا بالمقابل مفاهيم مختلفة ، صرنا نعرف أن الحياة لا تُعاش فقط ، بل تُنتزع أحياناً ، كما تنتزع اللقمة من فم الأسد ، لذلك لا همّ لي الآن سوى أن ننجح في تهريب النطفة ، ويؤتي التلقيح ثماره .

– هذا جنون يا أسماء ، فكري جيداً ، أنا معكِ وبجانبكِ دائماً في كل ما أنتِ مقبلة عليه ، ولكن ماذا عن والدكِ كيف سأقنعه بشيء جنوني كهذا؟

– أنا أتحدث معه لا تشغلي بالكِ ، ولا تنزعجي ، أعرف أن الفكرة صعبة التقبل في البداية ، ولكن فكري في الأمر وكأننا لم نستطع الإنجاب لعائق صحي ما ، وكأننا سنقوم بعملية أطفال أنابيب مثلاً ، هو نفس الشيء ، غير أن العائق هنا مرض أشد خطورة ، وينبغي لنا عدم الاستسلام لفتكه بنا . هذه هي حياتنا يا أمي ، وهذا قدرنا ، ماذا نفعل؟

– لا بأس يا ابنتي ، لكن لكل شيء أوانه ، لعل زوجكِ يخرج من سجنه وتنجبون الصبيان والبنات حينئذ ، ما هذه العجلة ، ما زلتم في أول حياتكم وشبابكم وستنجبون إن شاء الله دون هذا العناء كله .

– حمزة محكوم بثماني سنين يا أمي ، ونحن لا نريد أن ننتظر كل هذه المدة ، ثم وكما قلتُ لكِ ، هذا ليس لأجلنا فقط ، لأجل غزة وأهل غزة ، وكل فلسطين .

– عسى أن يكون خيراً ، ماذا أقول يا ابنتي . . أنا أعرفكِ

جيداً ، إنكِ إن وضعتِ في رأسكِ أمراً ستمضين فيه مهما قلنا لكِ ، ولكن احسبي الأمر جيداً قبل الإقدام عليه ، لأني لا أريد لكِ أن تحزني أكثر مما أنتِ الآن حزينة يا أسماء .

أمسكتُ يديها وقبلتهما وأنا أحاول أن أداعبها قائلة :

- هل تخشين أن أكبّركِ حين أنجب لكِ حفيداً يا أم أسماء .

احمرَّ أنفها كالعادة حين تواري عني ضحكتها وربتت على رأسي بحنوها المعتاد قائلة :

- رزقكِ الله ما تتمنين يا ابنتي .

كنتُ أدرك أن تقبلها للأمر سيكون صعباً يا حمزة ، الأمهات لا يستطعن أن يتخلين عن التفكير في مصلحة الأبناء مهما كان الأمر ، أعرف أنها تخشى عليّ من تبعات هذه الخطوة ، وتخشى مما قد تسببه لي من حزن أو عناء ، هي فقط أمّ قبل كل شيء ، ولم أكن أتوقع أن تتقبل الأمر برحابة صدر ، فلا يمكن أن تكون الأفكار الغريبة والجديدة إلا مصدر تهديد لكل من يتلقاها للمرة الأولى ، لا سيما البسطاء من الناس ، أولئك الذين يعاملون الحياة كما تبدو عليه ، يأخذون منها ما تعطيهم ، وينصرفون عما تمنعهم مرددين دائماً : لعله خير .

حين نهضتُ من أمامها كنتُ أفكر في أبي ، وكيف يمكن أن أقنعه بأمر كهذا ، بالأحرى كيف أبدأ معه الحديث ،

الأمهات يمكن الحديث إليهن دائماً ، حتى بالرغم من رفضهن الدائم لمعظم الأشياء ، لكنهن قابلات للإقناع حتى في أشد حالاتهن عناداً ، لأنهن يسمعن حديث الأبناء بقلوبهن دائماً ، ومن هذه الثغرة بالذات تسقط قلاعهن الحصينة .

لكن الآباء شيء آخر يا حمزة ، لا سيما أبي ، العقلانية عنده تنتصر دائماً ، وحين يقول لا لأمر لا يمكن أن تنقلب نعم إلا بمعجزة ، وأنا لم أكن أرغب في أن أجعل كلمته تسقط أرضاً ، لأني قد اتخذتُ قراراً لا عودة فيه ، لذا قررتُ أن أتحدث إليه في مجلس واحد مع والدكَ ، فقد كنتُ أثق أنه الوحيد الذي سيتفهم قرارنا ، وإن لم يتفهمه فهو سيحترمه في أسوأ الحالات . هاتفته وطلبتُ منه الحضور إلينا لتناول طعام العشاء ، لم أخبره بشيء لأني لم أشأ أن أسبب له القلق ، أردتُ أن تكون زيارة عادية كي لا يكون الجو مشحوناً بالترقب .

وهكذا كان ، حين جاء لزيارتنا ملأ المكان بدفء حضوره كالعادة ، كان يحاول دائماً أن يكون قوياً ، ولا يجعل ما في قلبه من حزن يسلب ما في روحه من صلابة ، كان والدكَ أباً لي يا حمزة دون مبالغة في هذا الوصف ، رؤيته كانت تملأني بالطمأنينة الشديدة ، ووجوده يشعرني بأني في أمان ، ربما يعود هذا لكونه والدكَ ، وكل من يمتُ لك بصلة يبث الطمأنينة في نفسي ، وربما هو عائد لطبيعته الطيبة ، ولذلك الدفء الكبير في نظراته وكلماته ، كان كلما رآني حياني بلطف غامر ،

واهتمام لا نظير له ، كأني فعلاً ابنته ، بل كأني أحب بناته إليه ، عندما قبّلتُ يده ربت على رأسي بحنو وقال :

- أهلاً يا أسماء ، كيف حالكِ يا ابنتي؟

- بفضل من الله يا عمي ، كيف حالك أنتَ؟

- نشكر الله يا ابنتي ، بخير أيضاً .

حينها دخل أبي إلى المجلس وبدأ بتحاياه المعتادة ، ثم دخلوا في الأحاديث التي لا يخلو منها مجلس في غزة ، الأوضاع الاقتصادية السيئة ، الحرب ، الكهرباء ، المعابر ، الاحتلال ، لذلك انسحبتُ لأساعد أمي في إعداد العشاء وأنا أفكر كيف سأطرح عليهما الفكرة ، وكيف ستكون رد فعلهما ، وهل سأصمد أمام رفضهما إن رفضا؟

تنهدتُ وأنا أقلب الأمر في رأسي فقالت لي أمي :

- ستخبرينهم على العشاء؟

- أجل هذا ما أخطط لفعله .

- سيكون كل شيء على ما يرام لا تقلقي ، والدكِ إن اعترض لخوفه عليكِ سيلين لحرصه على عدم كسر خاطركِ ، وسيكون معكِ فيما تريدين وإن لم يبدِ تحمساً لأنكِ تعرفين أنه يحب أن يتريث دائماً في الأمور ويحسبها من جميع الجهات .

- أعرف ، لذلك استدعيتُ عمي ، هو متفهم أكثر ، لكنني فقط أجدني خجلى من الخوض في هذا الحديث معهما .

- هل تريدين أن أتحدث أنا معهما .

- كلا يا أمي ، هذا حديث عليّ أن أقوم به بنفسي ، ثم أنا بحاجة إلى أن أظهر بموقف واثق ، وعدم قدرتي على الكلام ستجعلني أبدو مترددة أو خائفة ، مما سيجعل أبي يخاف من إقحامي لنفسي في أمر لستُ واثقة منه .

- كما تشائين ، ولكن اهدئي ، لا شيء يستدعي كل هذا القلق ، كلا الرجلين ليسا غريبين عنكِ ، الأول والدكِ والثاني والد زوجكِ ، وكلاهما يحبانكِ أكثر من عينيهما .

تنهدتُ وخرجتُ إلى حيث كانا يجلسان ، حين جلس الجميع على العشاء ، وجدتُ الفرصة مواتية لفتح الموضوع قبل أن أتراجع ، لذلك قلتُ بسرعة :

- هناك أمر أرغب في إخباركما به إن سمحتما لي .

كانت أعين الجميع قد اتجهت إليّ ، مما جعلني أرتبكُ قليلاً ، إلا أني تابعتُ بهدوء :

لقد اتخذتُ وحمزة قراراً أحب أن أطلعكما عليه ، وأرجو منكما أن تتفهماه وتكونا لنا عوناً .

بادر والدكَ حينها بالقول على الفور :

- نحن دائماً لكم عوناً يا أسماء ، أخبرينا بما يجول في خاطركِ دون تردد .

- هذا ظني بكم .

قلتُ ذلك وأنا أنقل بصري بين والدي ووالدكَ ثم أضفت :

نحن قررنا أن ننجب طفلاً .

كانت علامات الاستفهام قد ملأت العيون المسمّرة على وجهي ، بينما قال أبي :

- هل يسمحون لزوجات السجناء بالخلوة أثناء الزيارة؟ لم يكن ذلك مسموحاً قبل الآن حسب علمي .

تنهدتُ قائلة :

- كلا يا أبي .

- كيف سيحدث ذلك الأمر إذن؟

- نحن سننجب عن طريق التلقيح الصناعي .

بدأت تعابير وجهه المستفهمة تتحول إلى تعابير مستغربة وهو يسأل قائلاً :

- حمزة في السجن يا أسماء ، كيف يمكن لشيء كهذا أن يتم؟

تدخل والدك بهدوء قائلاً :

- اسمح لها أن تشرح الأمر يا أبا أسماء ، أنا واثق أن لديها ما يستحق أن نسمعه ، أخبرينا هذا الأمر بالتفصيل يا ابنتي .

- اتفقتُ وحمزة على أن يُهرّب لي نطفة من السجن ، آخذها إلى مركز صحي اتفق معه مسبقاً في نفس منطقة السجن الذي يُعتقل فيه حمزة ، وهناك سيتم التلقيح الصناعي مع تثبيت هوية الوالدين بطريقة رسمية ، لقد تحريتُ عن الأمر قبل أن أخوض فيه ، هناك مراكز متخصصة لذلك ، وحين عرضتُ على أحد الأطباء المختصين الأمر قال أنه ممكن

الحدوث ، وأن المركز على استعداد لتقديم الدعم اللازم ، لأن هذا يخدم قضية الأسرى ، وبالتالي يخدم قضية البلد كلها .

حين فرغتُ من الحديث أدركتُ أني كنتُ أحبس أنفاسي فأطلقتُ سراحها دفعة واحدة ثم راقبتُ ملامح الرجلين الجالسين أمامي لأرى وقع كلامي عليهما ، أول من تكلم كان أبي ، وقد قال كما توقعت :

- لا أعرف ماذا أقول لكِ يا أسماء ، لستُ ضد الفكرة ، أنا مع كل ما يبقي المقاومة صامدة ، ولكني ضد أن تنهكي نفسكِ أكثر ، منذ اعتقل حمزة وأنتِ تمشين بلا روح ، لا أريدكِ أن تعيشي خيبات وأحزان أكثر ، من رأيي أن تتريثي ، أو تنتظري خروج زوجكِ من السجن لتنجبوا أبناءكم معاً .

لكن والدكَ سارع قائلاً :

- انتظر يا صديقي ، لا تتعجل ، حمزة وأسماء عاقلان كفاية ليطرحا فكرة يعرفان مدى جنونها ، وناضجان كفاية ليقررا ما يريدان فعله ، ولكن علينا أولاً أن نتثبت من إمكانية ذلك ، والإجراءات اللازمة له ، لأن هناك طفل سيأتي للحياة ، وهذا الطفل لا بد أن يتم تسجيله رسمياً ، وهذا قد يشكل صعوبة في ظل غياب والده ، لذا سأهتم أنا بهذه المسألة وأنظر فيها بعد إذنك يا أبا أسماء .

- يا أبا حمزة هذا الأمر لا يتوقف على القانون فقط ، هناك المجتمع ، وإن تجاوزنا المجتمع ، وتجاوزنا كل شيء ،الاحتلال الذي

يعتقل رجلاً يعرف أنه يقاومه ويريد زواله ، كيف يسمح له بتهريب نطفة وإنجاب طفل ، ألا تتم تلك الزيارة تحت أعين الحراس؟

- لا تقلق بهذا الشأن يا أبي ، أنا وحمزة اتفقنا على كل شيء .

- كيف لا أقلق يا أسماء ، لا يوجد أب يحتمل أن يرى ابنته تقاسي كل هذا ، دموعها لا تجف ليلاً أو نهاراً ، ثم يعرف أنها تعرض نفسها للخطر ويغض الطرف عن كل هذا .

- لا يوجد أي خطورة في الأمر ، صدقني يا أبي إن هذا ما أريده أنا ، إنها فكرتي ورغبتي وأنا من اتخذ هذا القرار ، أنا لا أريد أن أسبب لكَ قلقاً ، كل ما أريده هو أن يكون لنا طفل ، وأحتاج أن تكون سنداً لي في قراري هذا ، لأنكَ أبي ، وأكثر من يدرك معنى أن يكون للإنسان طفل يحبه ويرعاه ويرى فيه معنى لوجوده .

- ماذا أقول لكِ يا أسماء؟ أعرف أنكِ ستمضين في هذا شئتُ أم أبيت ، ولا أعرف من أين جئتِ بهذا الرأس العنيد ، ولكني لن أتركك في هذا وحدكِ رغم عدم رضاي بأن تدخلي في أمر نجهل طرقه وعواقبه .

حينها ابتسم والدكَ قائلاً :

- سترضى عنها حين يصبح حفيدكَ في حضنكَ يا صديقي .

- يبدو أنكَ بدأتَ من الآن بلعب دور الجد يا أبا حمزة .

- حتى أني تأخرتُ كثيراً على ذلك .

- ما زلتَ شاباً يا صديقي ، حتى أننا نخطط لتزويجكَ .

كان والدكَ يبتسم بهدوء وعيناه تقولان لي أن هذه الخطوة المجنونة كانت مصدر سعادة له ، وأنه بحاجة إلى هذا الأمل الصغير ليتغلب على وجع فقدكَ ، وكنتُ أشعر بالراحة لأني خرجتُ من العاصفة دون أضرار .

أمضيتُ الأيام التي تفصلني عن يوم زيارتكَ في العمل على إتمام إجراءات المركز الصحي الذي سأجري فيه العملية ، كان والدكَ معي في كل ذلك ، لم يتركني أقوم بذلك وحدي ، كان يسعى جاهداً لأن يجعل كل شيء تاماً ومهيأً دون نقصان ، تحدث مع الأطباء في المركز ليتأكد من نسبة نجاح مثل هذه العملية ، وكان معي حين أجريتُ الفحوصات اللازمة للتأكد من عدم وجود أي مانع لحدوث الحمل ، كان كل شيء على ما يرام شرط أن نصل إلى المركز بالنطفة في الوقت المناسب ، لذلك اخترنا أقرب المراكز إلى السجن كي نضمن عدم تأخرنا في الطريق إليه ، وأخذنا موعداً لإتمام الأمر بعد شهرين ، لأنه الموعد الوحيد الذي يتوافق فيه موعد حدوث الحمل مع موعد زيارتي لكَ .

في الليلة التي سبقت لقائي بكَ لم أتمكن من النوم ، كان الليل يمتد دون نهاية ، بينما تتنازع الهواجس راحتي ، لم

أستطع أن أجتاز قلقي بأي شكل ، الكثير من الأسئلة والمخاوف كانت تجول في رأسي ، لذلك بحثتُ عن الطمأنينة بالطريقة الوحيدة التي أعرفها ، لم يكن هناك ما هو أكبر من مخاوفي في تلك الليلة ، سوى ثقتي بقدرة الله على كل شيء ، لذا أرسلتُ إليه مخاوفي في حديث طويل أملاً أن يقايضني بالطمأنينة وأن يكون معنا في هذا الطريق الذي لا نعلم أي نهاية تنتظرنا في آخره ، ناجيته قائلة :

اسمح لي يا الله أن أكون ممن تصل أصواتهم إليكَ ، ممن تفرح بسماع صلواتهم ، وتعيدها إليهم على هيئة أمان .

اسمح لي أن استخدم حاجتي إليكَ لتوسل لطفك الذي هو وحده قادر على إنقاذي .

ثمة ما يثقل كاهلي أنت تعلمه ، ولا يد غير يدك قادرة على إزاحته .

امنحني قدرة التقاط إشاراتك لأنجح في عبور هذا الطريق الطويل الذي لا أعرف فيه أحداً سواك .

علمني التجلد حين يصيبني الوهن وتجتاحني رغبة الاتكاء

علمني الاعتماد عليك والسير على أقدام الصبر إلى ما عزمت عليه .

أرني الخير في الأحداث قبل الشر . والرضا في المنع إن كتبته عليّ ، قبل الفرح بالعطاء إن وهبتنيه .

ازرع في نفسي الأمل مع البصيرة الذي يدفعني للوصول

بالمحاولة ، لا الأمل الأعمى الذي يشلني مع أول خيبة .

عاملني بلطفك ليس لأني أهل لذلك بل لأنك أهل له .

ساعدني لأرى ما يجب أن أراه في مرايا الكون الكثيرة .

لملم شتات نفسي وامنحني الرضا الذي يجلو عن بصيرتي عمى الأنانية .

ألهمني الشكر وجنبني الجحود .

افتح لنا باباً من سمائك فأبواب الأرض التي تحملنا لا مفاتيح لأقفالها إلا بإذنك .

اجعل القوة التي أجتهد في إظهارها تنبع من داخلي حقيقة ، وتستند هذا الضعف الذي يكاد يقعدني في أول الطريق .

امنحني العزيمة كي لا أخذل نفسي ولا أخذل حمزة ، ولا أخذل هذا الطفل الذي أحاول جلبه إلى حياة أدرك مدى قسوتها .

أنا وحدي بي ، كثيرة بك ، ناقصة بغيرك ، فأكملني واكفلني وأعني وأرشدني .

الدعاء طمأنينة يا حمزة ، طمأنينة لا تتعلق بالإجابة بقدر ما تتعلق بالشعور الآمن بمعية الله حين تشاركه مخاوفكَ ، وتطلعه على ضعفك الذي تخشى أن يتكشف للناس ، ثمة شيء في الدعاء يجعلنا نتعافى من متاعبنا بمجرد أن نرفعه إلى السماء .

أشرقت شمس ذلك النهار بضياء أكثر من المعتاد ، أو هكذا شعرت أنا ، تهيأتُ لزيارتكَ حين اقترب موعدها ، ثم جاء والدكَ ليصطحبني بوجه بشوش في محاولة واضحة منه لرفع معنوياتي ، سألني وهو يرافقني في الطريق :

- مستعدة لليوم الكبير؟

- أرجو ذلك .

- لم يعجبني هذا الجواب الذي يشوبه التخوف ، لا يليق الخوف بصاحبة أكثر الأفكار جنوناً على هذه الأرض .

- لستُ خائفة بقدر ما أنا قلقة يا عمي ، ليس بشأن العملية بل بشأن قدرة حمزة على تهريب النطفة ، أخشى فقط أن يكشفوا أمرنا ، فأكون بذلك قد أقحمته في مأزق بدل أن أمنحه طفلاً .

- لا تخافي على حمزة يا أسماء ، هذه الأمور من اختصاصه ، حاولي أن تظهري ثقتكِ أكثر من قلقكِ ، حتى لا تثيري الريبة وستسير الأمور على ما يرام إن شاء الله .

- سأحاول يا عمي .

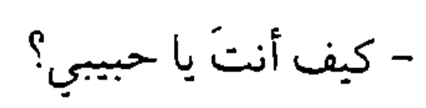
كنتُ أقفُ بانتظار رؤيتكَ على الجهة المقابلة من الفاصل الحديدي الذي اعتدتُ أن يقف بيننا كلما التقينا ، هذه المرة كان قلبي يخفق بنفس الطريقة التي كان يخفق بها وأنا أنتظر مجيئكَ عند زيارتي الأولى لكَ في هذا المكان ، الكثير من الاشتياق ، والكثير من اللهفة ، والكثير من القلق ، كان وجهي

يحاول أن يكون طبيعياً ، بينما كان شعوري كله ظاهراً من رجفة يديّ ، وتراكم صوتي في حنجرتي على هيئة غصة .

وأخيراً جئتَ ، يداكَ مقيدتان كالعادة ، ووجهكَ تعلوه ابتسامة صغيرة تشبه تلك التي تبتسمها وأنتَ في قمة تعبكَ للتظاهر بالعكس ، كنتُ أنتظر أن يراكَ والدكَ ويطمئن عليكَ أولاً ، ثم آتي إليكَ ، مع أن انتظاري هذه المرة كان شاقاً ونافد الصبر ، ولكني قدّمت والدكَ لأسباب عدة ، أولها أنه أولى برؤيتكَ مني ، وثانيها لأني أريد أن أخرج مباشرة بعد أن أستلم النطفة منكَ .

جئتُ إليكَ بعد دقائق من الانتظار ، كانت ملامحكَ متعبة ، ووجهكَ أكثر شحوباً من المعتاد ، كأنكَ قضيت الليل كما قضيته أنا ، أرقاً وقلقاً ، اقتربتُ منكَ بأقصى حد تسمح به المسافة الفاصلة بيننا ، ثم سألتكُ وأصابعي تتلمس أصابعك :

- كيف أنتَ يا حبيبي؟



- بشوق إليكِ لا يحتمل .
- شوقي إليكَ أكبر .
- طمئنيني عنكِ ، هل كل شيء على ما يرام؟
- لا شيء يُرام غير وجودكَ معي ، وهو ما لا أملكه ، ولكن الأمور تسير بشكل ما ، غير أني سعيدة بقدر ما أنا قلقة مما نحن بصدد فعله .

- يسعدني أن كنتُ سبباً في إسعادكِ يا أسماء، بعد كل الحزن الذي سببته لكِ.

- لا تقل هذا، أنتَ مصدر سعادتي الوحيد، يكفي أنكَ على هذا الكوكب لأكون سعيدة، هذه مجرد أزمة، والأزمات جزء من هذه الحياة، لا بد من الصبر لاجتيازها.

بعد ثوان من الصمت سألتكَ:

- هل استطعتَ أن تؤمّن ما طلبته منكَ؟

- أجل، جلبته معي، سأدسه في يدكِ حين تهمين بالانصراف.

- علينا أن نستعجل قليلاً، لأن وقتنا ضيق، سأراسلكَ إن لم أستطع زيارتك وأخبركَ بما تؤول إليه الأمور.

- لا بأس يا حبيبتي، هل كل شيء جاهز؟

- أجل، لا تقلق يا حمزة، سيكونون بانتظارنا في المركز.

حين مددتَ يدكَ إليّ بالأنبوب الصغير الذي يحوي النطفة، ودسته في كم قميصي كما كنتُ أفعل مع الرسائل، لم أقوَ على الذهاب دون أن أراقب ملامحكَ التي توشك أن تذوب من شدة الحزن، بينما تشتعل في عينيكَ جذوة فرح صغيرة يحاصرها القلق، كنتُ أعرف ما يدور في خاطركَ، وكنتُ أقاسمكَ كل مشاعركَ التي تتنازع في قلبكَ في تلكَ اللحظة، غير أني اكتفيتُ بأن همستُ لكَ قبل أن أنصرف:

- سنكون اثنين في الزيارة القادمة إن شاء الله، أحبكَ.

- قلبي معكِ يا حبيبتي .

انطلقنا بعدها إلى المركز لنتم عملية التلقيح ، كانت الطبيبة في انتظارنا ، سلمتها الأنبوب ، ثم طلبت مني أن أنتظر حتى تقوم ببعض التحضيرات اللازمة لإجراء العملية ، اصطحبتني الممرضة لغرفة يبدو أنها الغرفة التي سيتم فيها تجهيزي ، كانت تحاول تهدئتي لأن القلق كان بادٍ عليّ ، ولم يكن لمخاوفي تلك أي علاقة برهبة المستشفيات أو الخوف من الشعور بالألم كما كانت تعتقد وهي تؤكد لي أن الأمر غير مؤلم ، كنتُ على استعداد لأحتمل أشد أنواع الوجع فقط ليتكلل جهدنا بالنجاح ، كنتُ قلقة فقط أن يخيب أملكُ وأملي .

عدتُ إلى البيت بعد أن انتهت تلك العملية ، بداخلي كان شعور مضاعف بالحذر ، كنتُ أشعر أن جزءاً منكَ صار يسكنني ، وأن عليّ حمايته بكل الطرق ، لم أكن متأكدة من حدوث الحمل أو عدمه ، كان أمامي شهر كامل من الترقب ، ولكني كنتُ فقط أحاول أن أنتبه على الأمل الذي تم زرعه بداخلي ، أحاول أن أرعاه لأنه يعني لنا الكثير ، وأدعو أن يصبح حقيقة كما نرجوا .

أوصلني والدكَ إلى البيت بعد أن أوصاني بنفسي خيراً ، وحاول أن يخفف عني الشعور الثقيل بعدم وجودكَ ، كان كريماً كعادته في الأحاديث المطمئنة والباعثة على الأمان ، ولم يجعلني أحس بالوحدة في تلك اللحظات الحرجة من فقدكَ ،

واساني برفقته وبعطفه وحسن حديثه ، حينها عرفتُ من أين ينبع ذلك النهر من الحب والدفء في قلبكَ ، عرفتُ أن هذا الابن العظيم صنيعة هكذا أب ، وعرفتُ أن طفلي سيكون ذو حظ عظيم طالما أنتَ والده ، وهذا جده .

استقبلتني أمي التي كان القلق يكسو ملامحها عند باب الدار ، وكأنها لم تفارق العتبة منذ خرجتُ صباحاً ، بينما جاء أبي من غرفته مسرعاً حين سمع أمي تحدثني ، أمطراني بوابل من الأسئلة التي كان القلق مصدرها ، طمأنتهما بأن كل شيء سار على ما يرام ، ولكني لم أكن قادرة على البقاء معهما أكثر ، لتعبي أولاً ، ولشعور طاغ بالوحدة كان يتملكني ثانياً ، أردتُ فقط أن أغلق عليّ باب غرفتي وأستسلم لمشاعري المتضاربة ، أن لا أكون مضطرة لمقاومتها كي لا يقلقوا .

حين أقفلتُ الباب وارتميتُ على سريري كان شعوري بالحاجة إلى حضنكَ يغمرني ، وضعتُ رأسي على وسادتي التي ألبستها قميصكَ لأشم رائحتكَ كلما أويتُ إليها ، لأهدئ من روع قلبي الذي جعله الفقد عليلاً على الدوام ، لأوهم نفسي أني آوي إليكَ ، ثم غفوتُ وأنا أتخيلكَ بجانبي كما كنا في أيامنا السعيدة ، فرأيتكُ في منامي ، تقف بعيداً عني ، بينما تقف في المنتصف بيني وبينكَ طفلة جميلة جداً ، كنتُ أحاول الاقتراب منها فلا أستطيع ، وكانت تبدو غير قادرة على المجيء إليّ أو الذهاب إليكَ ، استيقظتُ من نومي وشعور العجز الذي كنتُ

أشعر به ما زال يلازمني ، فكرتُ في تلك الطفلة ، وتساءلتُ : أتراها طفلتنا؟ أم أن هذه أفكاري قد ظهرت في منامي أيضاً!

كانت الأيام تمر بطيئة كعادتها حين تعلم بحاجتنا إلى سرعة مرورها ، وكان الترقب سيد المشاعر فيها ، وكعادتي أيضاً ، أمضيتُ كل يوم فيها وأنا أفكر بكَ ، وكل يوم أقترب فيه من حلمنا يزداد خوفي ورجائي .

في الموعد المحدد ذهبنا لزيارة الطبيبة لنتأكد من حدوث الحمل أو عدمه ، بداخلي كان شبه يقين بأنني أحمل في أحشائي طفلك ، ولكني أردتُ أن أكون متأكدة وأسد ثغرة الاحتمالات الأخرى ، رافقتني أمي لإجراء فحص الحمل ، كنا نجلس بانتظار النتيجة ، كان يغشاني هدوء غريب وكأني لم أكن تلك التي أكل الانتظار قلبها طيلة شهر ، بينما كانت أمي تحاول أن تختلق الأحاديث لتخرجني من صمتي ، ظناً منها أن الخوف من الفشل هو ما يعقد لساني . بعد وقت نادتني الممرضة لتطلعني على النتيجة ، نهضت أمي بعجالة ، بينما كنت ما زلت على حالة السكينة التي ألّمت بي . قالت لي وأنا أنظر إليها مستفهمة :

- مباركٌ يا أسماء ، أنتِ حامل .

تدفق في قلبي شعور غريب لم أستطع أن أدركَ إن كان فرحاً أو ارتياحاً أو خليطاً من كل المشاعر التي مررتُ بها في الأيام الماضية ، لكني ولسبب لم أفهمه أردتُ أن أجهش

بالبكاء ، ربما تلك دموع الفرح التي يتحدثون عنها ، وربما لأن النساء في الغالب يشعرن أن الدموع هي أهم وسيلة يملكنها للتعبير عن مشاعرهن ، لذلك يبكين لأبسط الأسباب ، وحتى بلا أسباب ، يبكين كلما امتلأت قلوبهن وكلما فرغت ، غير أني لم أبكِ ، كانت أمي قد ضمتني في تلكَ اللحظة ، فانتبهتُ من شرودي وهمستُ لها :

- الحمد لله

- ها قد بلغتِ مرادكِ يا حبيبتي ، عسى أن يأتيكما الخير بقدوم الطفل ، وتفرحين بخروج حمزة أيضاً .

- لا حدود لكرم الله يا أمي ، هيا لنخرج ونبلّغ من ينتظر الخبر على أحر من الجمر .

كما توقعتُ والدكَ كان بانتظارنا برفقة أبي في المنزل ، لم يكن الخبر بالنسبة له أقل أهمية منه بالنسبة لنا يا حمزة ، بل لا أبالغ إن قلتُ أنه كان أكثرنا توقاً لتحقق هذه المعجزة ، بعد أن فقدكَ شعرتُ بأننا قدّمنا له سلواناً حين خطونا خطوة الإنجاب هذه ، كان أول من سأل حين دخلنا عليهما في مجلسهما :

- بشرونا!

- تم الأمر يا عمي ، ستكون جداً بعد ثمانية أشهر إن شاء الله .

كانت عيناه قد امتلأتا بالدموع العصية على النزول وهو ينهض ليقبل جبيني ، بينما ربت والدي على كتفي وابتسامة

عريضة تملأ وجهه وهو يردد :

- مبارك يا أسماء ، مبارك لنا جميعاً ، أتم الله حملكِ على خير ما يرام ، ورزقكِ ما تصبو إليه نفسكِ .

ثم التفت إلى والدكَ الذي بدا أن لسانه انعقد من شدة تأثره ولم يستطع أن يجد ما ينصف به ما اعتراه من فرح ودهشة ، وقال له مهنئاً :

- مبارك يا أبا حمزة ، وأرجو أن يكون حمزة بيننا قريباً ليستقبل طفله .

- آمين يا صديقي .

انسحبتُ من بينهم بهدوء إلى غرفتي ، شعرتُ أني أريد أن أنفرد بكَ في هذه اللحظة ، مهما كان من حولي فمكانك الفارغ دائماً يطغى على كل الحاضرين ، أمسكتُ ورقة وقلم وكتبتُ إليكَ :

حبيبي حمزة :

أعرف يا صاحب أجمل عينين أنكَ تبحث في سطوري هذه عما تنتظره منذ شهر ، وأعرف أن هذه الرسالة ستقع في يديكَ المتلهفتين كما يقع طوق نجاة بين يدي غريق ، لذلك لن أطيل في الحديث ، ولن أسمح للشوق أن يفصح عن نفسه هذه المرة ، سأزف إليكَ البشرى التي تتمنى :

تحققت معجزتنا يا حبيبي ، طفلكَ الآن يعيش في أحشاء أمه ، طفلك الذي يشبهكَ .

ستقول لي ما أدراكِ أنه يشبهني ولم تطلعي بعد عليه ، سأقول لكَ من غيركَ يملك قدرة الوصول وتخطي العقبات سوى ابنك الذي ورث صفاتكَ وأرجو أن يرث ملامحكَ ، هذا الشقي الذي قطع الطريق إليّ رغم السجن والسجّان سيسلكَ طريق والده ويحذو في الشجاعة حذوه .

الجميع يطير فرحاً بهذا الإنجاز يا حمزة ، الجميع يحتفي بالأمل الذي ينمو الآن بداخلي ، وكم كنتُ أتمنى لو رأيتُ تلك الفرحة على ملامحكَ أيضاً ، وكم تمنيتُ أن أقرأ على صفحة وجهكَ مشاعركَ بهذا الخبر الجميل ، غير أن قلبي على قلبكَ وكلانا يعلم ما في نفس الآخر ، لأن قلبينا قد تمازجا بالعشق فأصبحا واحداً .

بداخلي كثير من الكلام ، وكثير من المشاعر ، ولكن الورق لا يحتمل منهما إلا القليل ، فنحن محكومون بالقليل من كل شيء حتى يأذن الله بالنصر أو أمر من عنده .

أحبكَ أضعاف ما يمكن لقلب امرأة أن يحب .

أرسلتُ إليكَ رسالتي بذات الطريقة التي أرسلتُ بها رسائلي السابقة ، لم يكن لدينا إذن بزيارة قريبة ، لذلك اكتفينا بالرسائل حتى نجد سبيلاً للقاء ، وبينما أنتظر ردكَ كنتُ قد بدأتُ أستشعر وجود حياة صغيرة تنمو في داخلي ، هذا الشعور لا يشبه غيره من المشاعر التي يمكن الحديث عنها بالكلمات ،

لم يسبق لأحد أن سمع الشجرة تحكي شعورها حينما تثمر ، ولم يسبق لأحد إدراكَ ما تحس به الأرض وهي تخضر في مواسم المطر ، هي فقط تخرج الحياة من باطنها لتشكر السماء على عطاياها ، وأنتَ كنتَ سمائي يا حمزة ، بكَ تنمو الحياة في داخلي ، أنتَ تصنع بي ربيعاً دائماً مهما حاول الشتاء من حولي أن يجمدني .

مضى أسبوع على رسالتي إليكَ قبل أن أتلقى ردكَ عليها ، حين سلمتني المرأة الرسالة التي بعثتها لي مع زوجها توجهتُ سريعاً إلى غرفتي لأخلو بكلماتكَ ، وأقرأها عشرات المرات :

الحبيبة أسماء :

يا أجمل هدايا الله

أول الحديث شوقٌ إليكِ لو لامس الأرض من شدته لزلزلها ، ولكن قدر القلوب أن تتصدع دون أن تصدر صوتاً ، قدرها أن تنفطر بصمت لأن أوجاعها بلا صوت .

وبقية الحديث رغبة عارمة في داخلي بضمكِ ، هكذا أعبر عن سعادتي كما تعرفين ، ولكن هذه الكلمات يا حبيبتي لا تملك ذراعين ، إن كل وسائل التعبير قاصرة حين يتعلق الأمر بي وبكِ ، شعوري بكِ دائماً أكبر ، وأنتِ بي دائماً فوق الوصف .

تحملين طفلي إذن!

هل يمكن لأحد في هذا الكون أن ينافسني في سعادتي هذه اللحظة؟

أنا الرجل المحظوظ الذي أحبّكِ، وتزوجكِ، والآن يحظى منكِ بطفل!

الرجل المحظوظ الذي عشق امرأةً مثلكِ، يتحول التراب في يد غيرها إلى ذهب في يديها، هذه المرأة التي تكتسب الأشياء قيمتها حين تمسها، وتجعل لكل شيء معناه، حتى وإن كان قبل ذلك مجرد شيء لا يُذكر.

طفلنا محظوظ لأن أسماء تحمله، وترعاه، وتنجبه، وتصبح أمه، محظوظ كوالده.

إنني أكتب والبسمة لا تفارقني، سعيد إلى درجة تجعل حتى جدران السجن لا تبدو حولي، حتى وجه السجّان لا يعكر صفوي، حتى صوته البغيض لا يزعجني.

سعيد إلى حد أني سببت عدوى السعادة لكل ما حولي.

كل السجناء معي يا أسماء يحتفون بالخبر، كلهم يقولون لي أصبحنا آباءً معكَ يا حمزة، هذا الفرح لنا جميعاً، لقد كسبنا جولة في المعركة، وكأنما كسبنا الحرب كلها.

حين أخبرتهم الخبر تحولت الزنزانة إلى عرس!

الجميع اندهش من جنون الفكرة، والجميع بارك جرأتها، والجميع قرر أن يأخذنا أسوة حسنة.

اثنان من السجناء معي قررا أن يطلبا من زوجتيهما أن

تحذوا حذوكِ ، والبقية على نفس الخطى ، نصرنا لم يتوقف على الطفل الذي في أحشائكِ يا أسماء ، وإن كان عندي بالدنيا كلها ، ولكنه امتد ليصبح أداة مقاومة جديدة ، وأنتِ بطلة هذه المعركة دون منازع .

أما الدكتور سامي فقد فعل ما عزم عليه ، حين جاء آمر السجن على أصواتنا والجلبة التي أحدثناها ونحن نحتفل بالخبر ، سائلاً عما يحدث ، قال له وهو يبتسم ابتسامة المنتصر : تعال ، لدينا خبر يهمنا أن تسمعه ، هل ترى هذا الرجل الذي أكمل عامه الثالث في قبضتكم؟

هذا الرجل سيصبح أباً عما قريب ، زوجته حامل بطفله الأول!

حتى زنزانتكم الضيقة هذه لا تكفي لتكون لنا سجناً ، حتى هذه القضبان التي تظنون أنها تبقينا تحت رحمتكم لا تكفي لتسلب منا حريتنا ، حتى بقاءنا تحت أعينكم لا يكفي ليجعلنا نتوقف عن مقاومتكم ، نحن أقوى منكم ، لأن أسلحتنا بداخلنا ، ولا أحد يملك قدرة نزع سلاح لا يراه!

كان عليكِ أن تري نظرة البلاهة التي كان ينظر بها يا أسماء ، حتى أنه من دهشته لم يستطع أن يغضب ، لم يستطع إلا أن يسأل بعربية مكسّرة :

- كيف حدث هذا؟

فأجابه سامي والجميع يتسلى بهذا المشهد :

- لا يُسأل الطائر كيف يستخدم أجنحته ، الحرية فطرة لا يملكها إلا الأحرار ، ولا يمكن شرحها لغيرهم .

بقينا طيلة أسبوع نتندر على تلك الحادثة ، رغم أنهم حاولوا أن يجعلونا ندفع ثمن ذلك بمنعنا من الخروج للشمس ، غير أن هذا العقاب كان رخيصاً أمام ما حصلنا عليه ، نحن الذين ضحينا بكل شيء لأجل هذه الأرض ، هل سيزعجنا خسارة ذلك النزر اليسير من الشمس والهواء!

هذا يا حبيبتي بعض حالي وشيء من أخباري ، أبعثها لكِ مع كل حبي والكثير من أشواقي .

والآن أصبحتُ أحمل قلبين ، لعل هذا هو السر في اتساع قلوب الأمهات ، إنهن مع كل قلب يتكون في داخلهن تزداد قدرة الحب لديهن بمقدار قلب ، وتزداد قدرة العطاء بمقدار هذا الحب ، تلك القلوب تعيش في صدورهن حتى حين تخرج الأجساد على شكل حياة منفصلة .

في الأشهر الأولى للحمل لم يكن جسدي قد استوعب ذلكَ الكيان الصغير الذي ينمو فيه ، لكن روحي أحسّت بتلك الروح منذ اللحظة الأولى التي سكنت بجوارها ، وعانقتها بكل ما تملكه من رحمة ، كانت العلاقة النفسية بيننا قوية وعميقة ، كنتُ أعرف يقيناً أنه هنا ، ولو لم يكن بعد قد تعلم كيف

يشعرني بوجوده ، كنتُ أقرأ له رسائلكَ ، أحكي له قصتنا ، وقصص الآخرين في مدينتنا ، أحكي له عن غزة وماذا فعلت بنا ، وكيف أحببناها رغم كل ما يحيط بهذا الحب من صعوبات ، كنتُ كل ليلة أحكي له عن البطل الذي أنجبه ، والحب الذي يكنه له رغم بعده عنه ، كنت أشعر أنه ينصبت لي ، وأن صوتي هو الشيء الوحيد الذي يربطه بالعالم الخارجي ، ذلك الحديث كان يفيدني أكثر مما يفيده يا حمزة ، كان يؤنسني أن قطعة منكَ تنمو في داخلي ، تستمد حياتها من حياتي ، وكلما تكبر يوماً يكبر أملي أعواماً .

كنتُ مواظبة على الذهاب إلى الجامعة كما وعدتكُ ، كنتُ أريدكَ حين تخرج من معتقلكَ أن تجد كل أحلامنا قد صارت حقيقة لنعيشها سوياً ، أن تجدني كما تأمل وكما تحب ، كان ينقصني الكثير بغيابكَ ، كان ينقصني كل شيء كما أشعر ، ولكني كنتُ أحاول أن أتعامل مع ذلك الانتظار كفترة مؤقتة أعمل فيها على أن تكون لحظة اللقاء كما نتمنى ، أن لا أتركَ أعوام سجنكَ تسرق منا أكثر من سعادتنا معاً ، وأن لا تخلف فينا أكثر من لوعة الاشتياق ، أن تكون حاضراً دائماً في حياتنا كما أنتَ في قلبي ، لا يغيب منكَ إلا وجهكَ .

في الجامعة تعرفتُ على صديقة جديدة اسمها «مرح» ، وهي كاسمها ، هالة من البهجة تمشي على الأرض ، لا شيء يطفئ ضحكتها ، ولا شيء يكسر بريق الحياة في عينيها ،

كانت تجد في كل شيء مهما بلغ من البؤس منفذاً للأمل ، وكانت هذه طريقتها للتعامل مع قسوة الحياة وغلظتها ، لم أسمعها يوماً تتذمر أو تشكو ، وإن ضاقت بها الأرض يوماً ، جعلت من أحزانها مادة للسخرية ، فلا يملك الحزن أمامها إلا التحلي بالصمت ، لأنها لا تنطق على لسانه بأي حال من الأحوال ، نحن جميعاً نملك طريقتنا الخاصة لتخطي الأزمات ، فمنا من يبكي حزنه حتى آخر دمعة ، ومنا من يتركه دون سقيا ليذبل ، لا يوجد طرق صحيحة أو خاطئة في هذا الأمر ، يوجد فقط أشخاص يتعاملون بما يجيدونه ، ولا يوجد فشل ونجاح أيضاً بالنظر إلى نتائجه ، فالحزن يترك بصمته ككل ما يمر بنا في هذا المسرح الكبير الذي نؤدي فيه أدوارنا دون اختيار .

كانت مرح تعلم تفاصيل تجربة الإنجاب التي قمنا بها ، وكانت لي عوناً في معظم الأوقات التي احتجتُ فيها كتف صديقة ، ومعظم الأحيان التي احتجتُ فيها من أستشيره إذا ما استبدت بي حيرتي ، وكانت تشجعني إذا مسّ قلبي الخوف ، وتواسيني إذا اشتد بي الإحباط ، وتنفث في روحي الأمل حين يحرقها اليأس .

ذهبتُ إلى الجامعة بعد أن مرّت فترة الحمل التي يكون فيها احتمال الإجهاض قائماً ، لم يكن ذلك الاحتمال كبيراً ، غير أني كنتُ أضع جميع الاحتمالات وآخذ جميع الاحتياطات ، فلم يكن ما أحمله في داخلي شيء يمكن

المخاطرة به ، قبل أن يكون طفل الرجل الذي أحبّ ، هو معجزتنا التي تحققت بعد عناء .

حين التقيتُ ومرح في باحة الجامعة وأخبرتها الخبر الجميل ، أبدت كعادتها سعادة غامرة بالأمر ، وسألتني وهي تمسكُ يدي وتجلسني بجانبها :

- أخبريني كيف هو البطل الصغير الذي تحملين ، هل بدأ بجلب المتاعب لكِ؟

- لا ، ما زال هادئاً وديعاً ، لا يشعرني بوجوده إلا من خلال قلبي ، وهو يرحب بهذا الوجود كثيراً كما تعرفين .

- أعرف يا أسماء ، أنتِ سعيدة جداً بهذا ، هل تعرفين أنكِ بطلة المجالس النسائية في حارتنا هذه الأيام؟

- أنا؟ كيف ذلك؟

- لقد أخبرتُ الجميع بما أقدمتما عليه أنتِ وحمزة ، خبر كهذا يجب أن لا يبقى طي الكتمان ، تجربتكما هذه ستكون ملهمة لجميع الأسرى في السجون والأسر التي توقفت حياتها مع سجنائها ، هل تعرفين! جارتنا زوجة أسير منذ عشرين عاماً ، قد قاربت الأربعين وهو كذلك وليس لهما أطفال ، حين عرفت بما فعلته عزمت على تشجيع زوجها لتهريب نطفة بغرض إنجاب طفل ، هذا الأمر أصبح بمثابة أمل صغير لكل النساء اللاتي فقدن أزواجهن وحُرمن من تأسيس عائلة كغيرهن ، ليس هذا فحسب ، إنه يعني أن تستمر حيوات كثيرة

انقطعت لأن أحد أطرافها في المعتقل والطرف الآخر لا يملك غير الانتظار ، الآن لم يعد الانتظار شرطاً ، الأسير سيكون حراً بطريقته الخاصة .

- هذا كان أحد أهدافنا من هذه التجربة يا مرح ، بالتأكيد أن حبي لحمزة هو دافعي الأول لإنجاب طفل منه ، ولكن استمرار حياة الأشخاص الذين يعيشون ذات المعاناة التي نعيشها يهمني أيضاً .

- لقد تحقق هذا الأمر الآن ، بقي أن نحضن هذا الأمل الصغير قريباً بين أيدينا إن شاء الله .

- إن شاء الله .

- كيف هو حمزة؟ هل رأيتِه بعد أن تم الحمل؟

- كلا ليس بعد ، لا نحصل على مواعيد زيارة متقاربة ، ولكني أسعى لرؤيته في القريب ، لم يعد لدي صبر لأراه .

- ألمْ تخفف مشاعر الأمومة من مشاعر العشق؟

- حمزة ليس مجرد عشق ملتهب لينطفئ يا مرح ، حمزة بالنسبة لي هو الاسم الآخر للحياة ، مشاعر الأمومة هي امتداد لمشاعري تجاهه ، لا يتعارضان أبداً بل يكبران معاً ، لقد أردتُ هذا الطفل لأني أحبُّ حمزة وليس لأني أبحث عن تعويض له ، أو مجرى آخر أسرّب فيه مشاعري .

- طريقتكِ في الحب لا مثيل لها ، الآن أفهم كيف سلبتِ قلب حمزة .

- لأن حمزة لا مثيل له ، هل يمكن أن أحبَّ رجلاً غير عادي بطريقة عادية ، تلقائياً سيحمل قلبي صفات الرجل الذي يسكنه .

- أرجو أن تجتمعا قريباً ، مثلكما لا يليق بهما الفراق .

- أرجو أن أراه قريباً يا مرح ، إن أصعب أنواع الصبر هو الصبر على فراق الحبيب ، يبدو الأمر مثل السير بأقدام حافية على طريق شائك ، الرجوع يدميكِ والتقدم يدميكِ ، والوقوف كذلك يدميكِ ، ولا تجدي بداً من الإكمال إلى نهاية الطريق ، وأنتِ تحملين بداخلكِ الكثير من «لعل» و«ليت» ، ذلك أن الشيء الوحيد الذي يخفف عنكِ هو احتمال أن تلقيه بعد هذا العناء .

كانت يدها تربت على كتفي وعلى وجهها تعبير مفاده : أفهمكِ وعاجزة عن مواساتكِ .

هكذا كانت تمضي أيامي يا حمزة ، بين الصمت المطبق لفترات طويلة ثم البوح بين فينة وأخرى لأفسح المجال لتلك الأشواق الجديدة أن تأخذ حيزها من نفسي ، كنتُ أشعر أن الأيام لا تريد أن تمضي ، لأني أريدها أن تفعل ، وكانت زيارتكَ هي الشيء الوحيد الذي أواسي نفسي به كلما غابت شمس يوم من أيام غيابكَ .

بدأ صغيرنا يعبّر عن وجوده ، ها هو في شهره الثالث الآن ، يملي عليّ ما يرغبه من طعام ، ويرفض ما لا يروق له ، لعل هذا

هو الدرس الأول في الأمومة : التخلي عن رغباتكَ الشخصية أمام رغبات أبنائكَ .

كنتُ كلما وجدتُ في نفسي شهية لأمر ما ضحكتُ على هذا الذوق الغريب الذي يتمتع به طفلنا ، لقد طلب مني اليوم أن أتناول شيئاً حامضاً وحلواً في نفس الوقت ، ولم أجد بداً من خلط العسل بالليمون وشربه! كما أنه يرفض أن أتناول السمك وهو أحبّ الأطعمة إلى نفسي كما تعرف ، أمي تعلل ذلك بأن الحمل يقلب موازين المرأة النفسية فتكره أكثر ما كانت تحبه في السابق ، وهذا برأيي لا صحة له ، فأنتَ كنتَ الأحبّ إلى نفسي ، وما زلت الأحبّ إليها!

أخيراً حان موعد زيارتي لكَ ، لن أكون وحدي هذه المرة كما وعدتكَ ، صرنا اثنين يا حمزة ، أنا وطفلكَ الذي ما زال في شهره الثالث ، لم يظهر عليّ الحمل بعد ، ما زال صغيراً جداً على أن يجعلك تراه ، ولكنك ستراه كما أراد ، بقلبك!

- وأخيراً! كأن أعواماً مضت منذ آخر مرة رأيتكِ فيها يا أسماء!

- هذه الأعوام جعلت أشواقي تكبر كثيراً يا حبيبي ، كيف حالكَ ، طمئني عليكَ؟

- أنا بخير ، على الحال الذي تعرفين ، الأيام متشابهة في السجن يا أسماء ، لا يوجد ما هو جديد في حالي سوى لهفتي

التي تتجدد كل يوم لرؤيتكِ ، الأخبار عندكِ ، هيا حدثيني ، أكاد أجنّ شوقاً!

- نحن بخير ، كلانا .

قلتُ ذلكَ وأنا أشير إلى بطني الذي يحوي أملنا الصغير ، وأبتسم لكَ بفخر طفل قام بأحب الأعمال إلى والديه .

- كيف هو؟ هل يتعبكِ؟

- إذا أتعبني فيا لسعادتي ، هذا هو التعب اللذيذ يا حمزة ، أي شيء أحبّ إلى قلب امرأة من حمل طفل من الرجل الذي تعشق!

- أن يحمل هذا الرجل المرأة التي يحب وطفلها وتعبهما ، ويأخذهما إلى أكثر الأماكن أمناً في هذا العالم .

كنتُ ألمح في عينيكَ تلكَ النظرة ، نظرة العجز الكبير الذي يكبّل تلك اللهفة الأكبر ، لذلك لمستُ بيدي أصابعكَ التي تلتفُ حول القضيب الحديدي وأنا أهمس :

- لا تحزن ، أنتَ تحملنا في قلبكَ ، لا يمكنكَ أن تجد لنا مكاناً أكثر أماناً ودفئاً منه .

- لستُ حزيناً يا أسماء ، أنا فقط أشعر بالمرارة ، هذه المرارة التي لا تفارق مشاعرنا ، حتى تلك السعيدة منها .

- سنتعلم كيف نستسيغها ، لا خيار لنا ، وسنتعلم كيف نجعلها تفارق مشاعرنا أيضاً ، أخبرني ، ماذا تفعل هذه الأيام ، هل ما زالت الحوارات تدور في زنزانتكم؟

- أجل ، هكذا يمضي الرفاق أوقاتهم ، أما أنا فوجدتُ لي عملاً آخر أنشغل به عن أحاديثهم أغلب الوقت .

- حقاً! ما هو؟

- أكتب لطفلنا مذكراتي ، أو هي رسائل تجعله يدرك حين يتمكن من قراءتها يوماً أني لم أكن بعيداً عنه بقدر ما يظن .

- ما أجمل هذا يا حمزة ، هل جلبتها معكَ؟

- أجل ، احتفظي بها عندكِ ، أو اقرئيها له ، يقال أن الطفل يسمع الأصوات التي تدور من حوله وهو في رحم أمه ، بل ويتذكرها أيضاً .

- صحيح ، أنا أيضاً لا أكف عن الحديث إليه ، أملأ وحدتي بأحاديثنا ، وأصنع رابطاً بيننا أيضاً .

- عن أي شيء تحدثينه؟

- عن والده .

- تقومين باغتيابي إذن .

- كثيراً .

- ماذا تقولين عني؟

- هذا سر بيني وبين طفلي .

- هل بدأ تشكيل الأحزاب من الآن ، ليس من العدل أن تستفيدي من غيابي بهذه الطريقة!

- سأقرأ له رسائلكَ وبهذا نكون قد تعادلنا .

وقبل أن يعلن الحارس انتهاء الزيارة ، دسستَ رزمة من

الأوراق المطوية بعناية في يدي ، وقلت لي :

- أحبكما .

-ننتظركَ ، ونحبكَ .

في وقت متأخر من الليل كنتُ في غرفتي مع رسائلكَ ، كما طلبتَ مني أن أفعل ، قرأتها على الصغير الساكن بين أحشائي ، بكامل مشاعري تجاهكَ وتجاهه قرأتها ، فكأن صوتي يخرج من قلبي لا من حنجرتي :

أيها الصغير الذي شاء القدر أن يساعدنا على الحصول عليه ، وشاء الخالق أن يجعل من محاولاتنا العاجزة أن تثمر شيئاً جميلاً كأنتَ .

أحبكَ ، رغم أنني لم أدركَ بعد كيف تكون ، ولا بأي الصفات ستجابه هذه الحياة التي أرجو أن لا تشعر أننا ورطناكَ بإحضاركَ إليها .

بالمناسبة ؛ أنا والدكَ ، الرجل الذي يحب هذه المرأة التي تحملكَ ، ولكني الآن بعيد عنكَ لأني لم أستطع أن أكون رجلاً عادياً ، يولد ويعيش ويموت ، للأمانة لقد أردتُ أن أكون كذلك يا صغيري ، أردتُ أن يكون قوت يومي هو أكبر ما يشغلني ، أردتُ أن تكون أحلامي صغيرة وقابلة للتحقيق ككل الأشخاص الذين يعيشون ظروفاً حياتية طبيعية ، ولكن كان يلزمني من أجل ذلك أن يكون لديّ وطن أعيش فيه ، وطن كالجميع ، لا يكون فيه

دمي مستباحاً ، ولا يكون فيه بيتي مشروع استيطان ، ولا تكون حدود خطواتي واقفة عند معبر ، أو جدار عازل ، كان يلزمني وطن يستقبلني حين ولدتُ ، لأعيش كما يفترض بالعادي أن يعيش ، وحين يموت يكون ذلك لأن أيامه انتهت وليس لأن عدوه قرر أن يطلق عليه رصاصة مستقيمة أو طائشة ، لذلك أنا الآن في سجن العدو بتهمة البحث عن وطن ، وطن أكون فيه عادياً ، وأنجب أطفالاً عاديين ، وأموت من الملل لطول الحياة ، لا من التعب وأنا أبحث عنها .

غير أن القدر اختار لنا أن نكون هنا ، في غزة ، وغزة يا صغيري هي المدينة التي نعيش فيها ، أو كنا نحاول أن نعيش ، في هذه المدينة كل شيء مختلف ، النساء يزغردن في جنازات أبنائهن لا في أعراسهم ، الناس يهنئون بعضهم بالشهادة أكثر مما يهنئون بالولادة ، والشهادة هي ما نسمي به من يموت مدافعاً عن أرضه ، لا نأخذ فيهم عزاءً لأنهم عزاؤنا ، ستفهم ذلك كله حين تعيش في غزة .

أنا أخاطبكَ بصيغة المذكر لأني لا أعرف جنسكَ بعد ، وهذا لا يعني أني أحاول أن أجعلكَ مذكراً في أحلامي ، بل لأن المجهول بالنسبة لنا مذكر حتى يثبت العكس ، وأنا أحبكَ ذكراً كنتَ أو أنثى ، ولكن أمكَ تعرف أني أردتكَ أنثى ، لسبب تعرفه أيضاً ، اسألها إن قرأت هذا وأنا ما زلتُ غائباً وستخبركِ .

بالحديث عن أمكَ ، أريد أن أوصيكَ بها ، فهي وإن كانت تبدو لكَ أكثر الناس الذين قابلتهم قوة إلا أنها هشة القلب حين يتعلق الأمر بمن تحبهم ، لذلك كن حصناً منيعاً في وجه الحياة ، ولا تكن الجهة التي يتسرب منها الحزن إلى قلبها ، يكفي أنني كنتُ هذه الجهة ، فلا تجعلها تصاب من الجهتين ، أنتَ لا تعرف الآن ولكن أمكَ قد أحضرتكَ إلى هذه الحياة قسراً ، لم تسمح لكل مصاعبها أن تمنعها ، كنتَ سجيناً معي حتى قررت أن تحرركَ مني ومن السجان ، أمك هذه أسطورة ، هي لا تعلم أن دهشة الأساطير تبقى باهتة أمام الدهشة التي تخلقها هي ، امرأة كهذه تجعل السجن جحيماً لأنه يبعدني عنها .

قد لا أكون بقربكَ حين تطل برأسكَ الصغير على هذه الحياة ، فلا ترتعب إن بدت لكَ بشاعتها من الوهلة الأولى ، أعرف أن رحم أمكَ لم يكن يسمح للبرد أن يمسكَ ، وأنه لم يكن يسمح حتى للهواء أن يضربكَ ، ولكن هذه الدنيا وإن كانت لا تشبه رحم أمكَ إلا أن فيها ما يستحق محاولة العيش ، فادفع أول أقساط البكاء وتعال قاسمنا حلاوتها ومرارتها على حدٍ سواء .

وربما لن أكون بقربكَ حين تفطمكَ أمكَ فتظن أنها أشد أنواع البعد مرارة ، لا تخف ، ستجتاز هذه المحنة الصغيرة ، ستتذوق الكثير من الأشياء الحلوة التي ستصبح مرارتها لا

تطاق حين تنتزعها الحياة منكِ بطريقة لا تشبه لطف الأمهات .

وربما لن أكون بقربكَ في أعوامكَ الأولى ، فلا تطع الحياة في غزة حين تدفعكَ لتكبر قبل الأوان ، عش طفولتكَ قدر استطاعتكَ ، العب كثيراً قبل أن تفكر في حمل الحجارة لرجم دباباتهم ، لأن الحجر الأول هو أولى علامات النضج في هذه المدينة ، وهذا سار عليكَ إن كنتَ ولداً أو بنتاً ، فالمساواة بين الرجل والمرأة هنا تحدث دون مطالبة ، فالنساء كالرجال سواسية في الألم وفي المعاناة وفي المقاومة .

وربما لن أكون قربكَ في يومكَ المدرسي الأول ، لا تقلق ، الوجوه التي تبدو لكَ الآن غريبة جداً ستصبح مألوفة بعد أيام ، والمعلم الذي يجيد العبوس أكثر من الضحك سيفتح لكَ عالماً جميلاً حين يعلمكَ القراءة ، مثلاً سيساعدكَ على قراءة رسائلي هذه بنفسكَ ، وسيعلمكَ أن تكتب لي كما أكتب لكَ .

وربما لن أكون قربكَ حين تعيش نجاحك الأول أو فشلك الأول ، تذكر يا صغيري أن الخطوات الأولى التي خطوتها كانت تجعل الأرض تبدو بعيدة وأن السقوط عليها يبدو مرعباً ، وأن كل خطوة تنجح فيها كانت تحتاج أخرى ليصبح الوصول إلى ذراعي أمكَ ممكناً ، هذا يشبه ذاك غير أن الأرض الآن أبعد لأنكَ صرتَ أطول!

وربما لن أكون قربكَ حين تودع طفولتكَ وتتجاذبكَ المشاعر

الغريبة والانفعالات غير المبررة ، أنتَ تكبر يا بني ، وهذه أعراض طبيعية للإدراك ، ثلاثة أرباع الإدراك ألم ، ولكن الألم صحي ويساعد على التعامل مع الحياة ، إنه يشبه تماماً معلمك القاسي ، ذلك الذي بفضله صرت الآن تقرأ كتابي إليكَ ، والألم يعلمكَ كيف تقرأ الحياة .

وربما لن أكون قربكَ حين تحب للمرة الأولى ، ستتوجع ، هكذا يعرّف الحب بنفسه ، يأتي أولاً مع الفرح ليعلقنا به ، ثم سرعان ما يتركه متأبطاً ذراع الوجع ، إنه يتغذى على القلوب الموجوعة يا بني ، ولكن مثل هذا الوجع هو ما يجعلكَ تدرك حقيقته ، فالحب الذي يعيش في نار الفراق دون أن يفقد شيئاً من وزنه ، سيكون جديراً أن يُعاش حتى الرمق الأخير ، أما الحب الذي يموت عند أول عقبة فلا يستحق أن يُذكر في تاريخ القلب ، ذلك أن الجميع في الرخاء عشاق والجميع قريبون مهتمون رائعون ، ولكن المعاناة وحدها من تجعل ذلك الحشد الهائل يتفرق حتى لا يثبت إلا من ثبت في قلبه ما كان على لسانه ، فلا تكن من عابري القلوب ، أولئكَ الذين يشربون من بئر القلب ثم يبصقون فيه ، لا تقرب قلباً تعرف أنكَ لستَ أهلاً لحفظه ، فجراح النفس ليست كجراح الجسد ، لا تلتئم ولا تبرأ . . ولا تُنسى .

ربما لا أكون قربكَ حين تحتاج أباً ، ربما ستسأل نفسكَ أحياناً : أين هذا الرجل الذي أنجبني؟

ربما ستسألها : لماذا يرغب رجل في السجن بإنجاب أطفال لن يمارس معهم أبوته؟

ربما ستسأل : بأي حق تتركني في هذا البحر الهائل دون مجاديف؟

غزة ستجيبك عن كل هذا يا بني . . فقط أنصت لها .

بدأ بطني يتكور ، صغيرنا يثبت وجوده يا حمزة ، لم يعد وزنه في قلبي فقط ، الآن أشعر به في جسمي أيضاً ، يتلاعب بمشاعري هذا الشقي الصغير كما يحلو له ، تارة يجعلني هشة بطريقة مضحكة ، فأجدني أبكي لمجرد أن أمي أشاحت بوجهها دون قصد أثناء حديثي معها ، وتارة يدفعني للضحك على أكثر نكات أختي سخافة ، يبدو أنه يملك قدرة التحكم بمشاعري أيضاً ، كما يتحكم الآن بوزني ، ولكني أحبه كل يوم أكثر من سابقه ، هذا الشقي الذي يجعلني أستيقظ من نومي على ركلة منه ، أو على حركته الشديدة لأنه يرغب بالتكور في جهة واحدة من رحمي ، هكذا كما كنتَ تخبئ رأسكَ في صدري وكأنه المكان الوحيد الآمن في هذا العالم ، فينتابني القلق حين يمر يوم دون أتلقى منه ركلة ، أو لا أشعر منه بحركة ، كأن عالمي كله مرتبط بهذا الكائن الصغير الذي يكبر في أحشائي ،

فأتلهف لخروجه وأخاف عليه ، أتلهف إليه لأراه أمامي ، وأقبّل باطن قدمه الصغيرة ، وأخاف عليه من كل ما تخافه أم على صغارها .

أطول الأيام آخرها ، لذلك بدا لي وأنا في أيام حملي الأخيرة وكأني لن ألد أبداً ، كنتُ أقضي وقتي بقراءة رسائلكَ أو الكتابة إليكَ ، فالزيارات كانت متباعدة وحين أثقلت لم يكن بإمكاني أن أقطع كل تلك المسافة رغم شدة حاجتي لرؤيتكَ ، غير أن رسائلكَ كانت سلواني في تلك الأيام ، كما هي منذ حالت بيننا ظروف سجنكَ ، كنتُ أغزل للصغير جوارب وكنزات الصوف أيضاً ، هذا الطقس الحميم كان يجعلني أشعر بأني أمارس أمومتي كما يجب ، ولا أعرف السر في ذلك ، وكنوع من المشاركة أرفقت لكَ جوربين صغيرين مع إحدى رسائلي ، إن فكرة مشاركتكَ لكل ما أعيشه يمنحه قيمة أكبر لديّ ، كحال كل شيء تكون ضمنه ، ومع بدء العد التنازلي لاقتراب حضور طفلنا المنتظر كانت الأشياء تكتسب معنًى مختلفاً عندي ، فلم يعد هذا الطفل مجرد حلم ، إنه حقيقة توشك أن تكون بين أيدينا .

وكنتُ لقلة خبرتي أظن أن الطفل قادم مع كل ألم يمر بي ، فأسرع إلى أمي لأخبرها ما يحدث معي ، لتخبرني بدورها أن ألم المخاض لا يشبه مثل هذه الآلام العابرة ، وأن الطفل حين يقرر المجيء سيكون صريحاً في التعبير عن قراره ، وهذا التعبير

سيكون مؤلماً «بعض الشيء» ، لعلي حين كنتُ أحاول تخيل ذلك الألم فقدتُ حس المبالغة الذي تتمتع به النساء عادة ، لذلك حين حانت اللحظة تفاجأتُ بذلك الكم الهائل من الوجع ، فأدركتُ أني لم أكن أعي حجم العمل الذي أقوم به ، إن صنع الحياة لا بد أن يكون بهذا القدر من التعب على أقل تقدير ، أي أن يكون مقابله مقداراً هائلاً من الجهد .

بعد ساعات من المخاض جاء الأمل الذي صنعناه على هيئة بنت جميلة جداً . . .تشبهكَ . .

حين احتضنتُ الطفلة للمرة الأولى أدركتُ أن ثمة أشياء لا يصل الواقع إليها ولكن الخيال يفعل ، وثمة أشياء أخرى لا يصل الخيال إليها ولكن الواقع يفعل . . وتلك تكون الأجمل .

كان أول عمل قمتُ به بعد أن أسميتُ طفلتنا «أمل» كما اتفقنا ، هو أن طلبتُ من والدكَ أن يلتقط لها صورة ويجلبها إليكَ ، لم أكن أريد أن تسمع خبر مجيء طفلتنا إلى الدنيا دون أن ترى وجهها على الأقل ، ذلك أني كنتُ أحلم أن تكون أنتَ من يهمس باسمها في أذنها ثلاثاً بعد أن يؤذن ، ليكون صوتكَ أول صوتٍ تسمعه ، ولكن جدها لأبيها فعل ، ولم يكن هناك فرحة تشبه تلكَ التي رأيتها على وجهه حين احتضن صغيرتنا :

كتبتُ لك على ظهر الصورة قبل أن أبعثها معه : كنتَ تحلم ببنت تشبهني ، وكنتُ أحلم بولد يشبهكَ ، فجاءت بنت

تشبهكَ . . نصف حلمكَ ونصف حلمي يساويان حلماً كاملاً . . هذا الحلم اسمه «أمل» .

ترجّلي الآن يا أسماء . . .

وهاتي عنكِ صهوة الكلام . . .

ركضتِ في مضمار السرد ما يكفي ليرهق فارسة رقيقة مثلكِ

بقي أمتار قليلة أريدُ أن أعدوها أنا . . .

لا لأني أعرف فرقاً واضحاً بين أنتِ وأنا . . .

يشهدُ الله أني تمنيتُ في بعض لحظات السجن أن أعثر على الحد الفاصل بيني وبينكِ ، ولكن أمنيتي ذهبت هباءً ، فقررتُ أن أعيش كما كنتُ من قبل أن أتمنى ، أن تكوني أنا أكثر مما أنا أنا!

وإنه لأمر لذيذ بالمناسبة أن أضيع فيكِ!

ولكن ثمة خطوات علينا أن نمشيها بأنفسنا ، ولو كنا نرى الآخرين أنفسنا!

عندما رأيتُ صورة أمل لأول مرة لا أعرف ما الذي أصابني ، شعور أجلُّ من أن تصفه اللغة ، لطالما كانت أجمل مشاعرنا هي التي لا يمكننا قولها ، كل شعور بإمكان اللغة أن

تقوله شعور عادي لا يستحق أن نقف عنده ، أما المشاعر التي تكون أكبر من اللغة فهي أقدس مشاعرنا ، ولكني سأحاول بكل ما أوتيت من سرد ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها!

هذه البنت لم تكن قطعة لحم صغيرة كما تحاول الصورة أن تجعلها ، كانت قطعة من قلبي ، ولأول مرة أشعر أن قلبي ناقص ، أردتُ أن أضمها لأتم نفسي! شعرتُ كأني شجرة تطرح ثمرة لأول مرة ، ومن قبل كانت مجرد خشبة حيَّة ، لا شيء يثبت أنها كذلك إلا بعض أوراق خضر ، أما وقد أعطت ثمرة ، فقد صارت شجرة حقاً . هكذا شعرتُ أنا برؤية أمل ، شعرتُ أني أثمرت ، وعرفتُ أني من قبل ما كنتُ! نمت لي جذور شدتني إلى هذه الأرض أكثر ، فمن قبل كنتُ ضيفاً عابراً على سطح الأرض لا يهمه متى يغادر ، أما الآن فقد غرستني هذه البنت عميقاً ، وصرتُ أريد أن أبقى!

الأمومة بالغريزة يا أسماء لهذا كنتِ أماً قبل أن تأتي أمل ، أما الأبوة فبالتجربة ، وقد جربتُ الآن ماذا يعني أن يكون الرجل أباً ، عرفتُ الآن لماذا انكسر أبي حين رآني خلف هذه القضبان ، عرفتُ أي وجع يشعر به الأبُ وقد قيدوا جزءاً من قلبه ، أولادنا يجعلوننا نعرف كم هم أهلنا عظماء ، ثمة مشاعر لا يمكن لنا أن نفهمها إلا إذا جربناها!

كنتُ دائماً أقدس الخصوصية ، أعيش أفراحي وأحزاني وحدي ، ولكني الآن عرفتُ أن الفرح الذي لا نشرك الآخرين

به سعادة عابرة ليس إلا ، وقد كانت أمل فرحاً عجزتُ أن أبقيه لي! حملتُ صورتها وطفتُ بها على السجناء كطفل حصل على هدية ويريد أن يتباهى بها أمام أترابه! ويشهد الله أنهم كانوا أشد فرحاً مني ، حتى الدكتور سامي ، ذلك الوقور الذي لا يبدي فرحاً أو حزناً ، كأن عقله قد ابتلع قلبه ، رأيته فرحاً كما لم أره من قبل ، وقال لي وهو يعانقني : هذه ليست ابنتك وحدك يا حمزة ، هذه ابنتنا كلنا!

مضى الآن أربعة سنوات ونصف منذ أخذوني منكِ ، وأخذوكِ مني ، صرتِ محامية كما حلمتِ أن تكوني ، وصار عمر أمل ستة أشهر ، وقد نفد صبري ، وشعرتُ أن السجن بدأ للتو! الذي يزيد السجن ضراوة هو أجمل لحظات حياتنا التي تنتظرنا خارجه ، وقد حرموني من حضور حفل تخرجكِ ، وحرموني من حضور لحظة ولادة ابنتي ، وحرموني أن أُأذنَ في أذنها وأضمها إلى صدري ، حرموني أن أسمع منها كلمة بابا التي نطقتها لأول مرة منذ أسبوع .

ثم لاح في الأفق فرج ، بدأت الأحاديث تكثر عن صفقة تبادل للأسرى ، وعرفتُ أن اسمي مدرج على قائمة التبادل ، كنتُ أعرف أني تركتُ خلفي رجالاً لن تشغلهم حريتهم عن سجني ، كانوا أكثر جرأة لأجلنا ، اقتربوا منهم ما يكفي ليأسروهم ، خاطروا بحياتهم ليحررونا .

كنتُ الوحيد في زنزانتنا الذي كُتب له الخروج ، وكانت

لحظة وداعهم مأتم حقيقي ، بكيتُ كما لو أني ذاهب إلى حبل المشنقة لا إلى بيتي! وبكوا كما لو أنهم يُشيعوني لا يودّعوني ، يد الجلاد جعلتنا إخوة في السوط يا أسماء!

أطول أسبوع عشته في السجن كان قبل أن تتم عملية التبادل ، أخذوني من الزنزانة إلى سجن آخر فيه كل الذين سيتم الإفراج عنهم ، كان اليوم هناك بسنة ، سنة على وجه الحقيقة لا على سبيل المجاز ، وأخيراً حانت اللحظة المرتقبة ، صعدنا إلى حافلات الصليب الأحمر التي توقفت في باحة السجن ، ومضينا . . .

كانت الطريق طويلة كما لم تكن يوماً من قبل هكذا ، كأنه كان علينا عبور الربع الخالي سيراً على الأقدام لا عدّة كيلو مترات في حافلة مكيّفة! وعندما اجتازت الحافلة المعبر ودخلتُ غزة شعرتُ أني أتنفس مجدداً ، وسارت الحافلة نحو الحشود ، بحثتُ عنكِ بعيني من النافذة ، ولكني لم أركِ ، بحر متلاطم من الناس ، كنتُ أعرف أنكِ تقفين على إحدى أمواجه ولكني لم أعثر عليكِ! وعندما توقفت الحافلة رأيتكِ على بعد أمتار مني تحملين أمل ، لا اعرف كيف أمسكتُ نفسي أن لا أقفز من النافذة ، وعندما رأيتكِ تبكين ، بكيتُ كما لم يحدث من قبل أن فعلت ، ثمة لحظات لا يعبر عنها إلا البكاء ، ثم نزلتُ . . . .

ركضتُ نحوكِ ، وركضتِ نحوي ، وصارت المسافة بيننا

تقصر شيئاً فشيئاً ، إلى أن توقف الزمن ورأسكِ على صدري أضمكِ أنتِ وأمل .

هذه حكايتنا يا أسماء ، بدأتُ أكتبها وأنا لا أعرف نهاية لها ، أول حرف خططته كان في زنزانة ، وآخر حرف أخطه الآن في بيتٍ يجمعنا ، أنت الآن نائمة على مرمى متر من قلبي ، وأمل على ذراعكِ ، أنظر إليكما ، وقد عرفتُ الآن فقط ماذا عنى درويش حين قال : على هذه الأرض ما يستحق الحياة .

سنبقى على هذه الأرض رغماً عنهم ، سنبقى في منامهم كابوساً وفي يقظتهم غصَّة ، ثمة معركة قادمة لا محالة ، قدر هذه المدينة أن تحارب ، وقدرنا ما دمنا سكانها أن نحارب ، غداً سأرجع إلى الخندق ، هذا قدري أيضاً ، وكما قال رجل الكهف الذي اكتشف الحب ذات أسطورة : الناس لا يمشون على هذه الأرض إلا في دروب أقدارهم!

